موسوعة
غرائب وعجائب الشعوب

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والاعلام

اسم الكتاب: موسوعة عجائب وغرائب الشعوب

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع : ١٤٠٣١ - ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977-354-049-9

كلمة الناشر

غرائب وعجائب الشعوب كتاب موسوعى فى أدب الرحلات وفى عادات الشعوب وغرائبها وعقائدها وما يتميز به كل شعب عن الآخر .

كتاب يغوص فى أعماق الشعوب ويطوف بك فى مدن العالم الشهيرة والبلاد الكبيرة بل يدخل بك إلى الشوارع والحارات والمحلات التجارية والمطاعم السياحية .

والكتاب يجمع بين دفتيه القديم والحديث ويمتلئ بالغرابة والطرافة ويحشد كماً هائلا من المعلومات التى تجعلك تطوف العالم شرقاً وغرباً وأنت تقرأ هذا الكتاب .

هذا الكتاب الموسوعى لا غنى عنه للقارئ فى جميع أقطار الأرض حيث يحقق التعارف بين الشعوب وهو بمثابة مرشد سياحى عالمى يستفيد منه القادة والساسة ومخططو السياسات والعاملون بالعلاقات العامة والعلاقات الخارجية .

كتاب ممتع غاية الامتاع مشوق غاية التشويق أردنا أن ندعم به المكتبة العربية لأنها بحاجة إلى هذا الكتاب .

أحمد فكرى

المقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنـــزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) ﴾ [الكهف]

والصلاة والسلام على سيد المرسلين وإمام الغر المحجلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ،

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله رب العالمين .

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب غرائب وعجائب الشعوب وغرائب الرحلات والأسفار يضم بين جنباته قصصا غريبة وأخبارا عجيبة يروي لك عن الصين والهند وتركيا وبلاد الشام واستراليا وسيلان وكثيرا من البلاد والمدن والأقاليم والجبال والبحار .

تجلى عادات الشعوب وغرائبهم وعجائبهم وخصائص هذه الشعوب ومعتقداتها ومأكولاتها وملابسها ولغاتها وأفراحها وأعيادها ودياناتها .

ويصف شوارعها ومدنها وبيوتها ويصف ويحكى ويروى الكثير والكثير من غرائب وعجائب الشعوب وينقل القارئ إلى بلاد كثيرة ومدن عديدة فكأنه يسافر ويلف العالم شرقاً وغربا وهو جالس فى حجرته على مقعد أو أريكة .

كتاب شيق ملئ بالحكايات والأخبار والأسرار والمعارف ولنترك القارئ

العزيز يستمتع بهذا السفر الجليل ويطوف العالم يتعرف على دوله وشعوبه وأفراده ، وهو يجمع بين القديم والحديث .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

الفصل الأول:

بداية الرحلة إلى الهند(١)

يقول الاستاذ حلمى مراد : بدأت اجراءات الاستعداد للرحلة، ووضع برنامجها.. وعندئذ روى أن تمتد مهمة الوفد إلى اليابان أيضا، تنفيذا لاتفاقية ثقافية سابقة بينها وبين مصر، واقتضى ذلك مد مدة الرحلة من شهر إلى شهر ونصف.. وطبقا لهذا البرنامج استبعدت فكرة اتخاذ الطريق الشمالى إلى الصين، الذى يمر بروسيا (طريق موسكو -سيبريا- بكين.. وتقرر أن يسلك الوفد الطريق الآخر الجنوبى، المار بالهند، (طريق بومباى - دلهى - كلكتا- بانجكوك - هونج كونج).

وفى منتصف ليلة ٢٠-٢١ اكتوبر الماضى، ركبنا الطائرة من القاهرة إلى بومباى.

وغبنا عن الوطن ٤٧يوما ، زرنا خلالها : بومباى، دلهى، كلكتا، بانجكوك، هونج كونج، كانتون، بكين، شنيانج (مكدن)، انشان ، هانكاو، نانكنج، شنغهاى، هاتشو، كانتون، طوكيو، أوزاكا، كيونو.. ثم عدنا من نفس الطريق إلى القاهرة، بلغناها فى فجر السادس من ديسمبر المنصرم.

من أين أبدأ

وقد سافرت وفى عزمى أن أكتب إليك رسالة من كل بلد نهبطه، وكل بقعة تطأها أقدامنا.. لكنى كنت واهما.. فلقد كان برنامجنا فى كل مدينة حللنا بها مزدحما إلى درجة مرهقة، بحيث أننى كنت أعود إلى غرفتى فى نهاية اليوم وأنا ألهث من فرط التعب والاجهاد.. سيما وقد أخذت على عاتقى أن لا أدع صغيرة

(١) كتابى - الكتاب السبعون - يناير ١٩٥٨ حلمى مراد

أو كبيرة تفلت منى، ما استطعت إلى ذلك سبيلا.. ووجدتنى كلما هممت بالكتابة إليك، فى فترة فراغ وجيزة، بين برنامج وبرنامج، أعود فأرجىء الأمر كى أشغل هذا الفراغ ببرنامج خاص منفرد، استنبطه من السؤال والاستقصاء عما قد يكون أغفله برنامج الوفد من معالم أو أماكن جديرة بالزيارة، كى أختزن لك المزيد من الذكريات، والمشاهدات، والانطباعات.

وهكذا انتهت الرحلة قبل أن أجد من الوقت فسحة لأن أكتب حرفا!

فلما تهيأت - بعد عودتى - للكتابة، ونثرت أمامى ما اتخمت به جعبتى من صور، وقصاصات.. أدركتنى حيرة مرة :

من أين أبدا؟

وماذا أتناول .. وماذا ادع؟

هل أبدا حديثى وفقا للترتيب الزمنى، فاكتب لك يوميات الرحلة يوما بيوم، وساعة بساعة؟

اخشى لو فلعت ذلك أن ينتهى الكتاب قبل أن نصل إلى حدود الصين !

أم نترك الهند حتى نرجع إليها فى طريق العودة، ونبدأ بالصين؟

لكنك قد تحتج بأنك تود أن تعرف شيئا عن اليابان !

وهذا يذكرنى بقصة العنزة والحشيش والذئب!

بومباى : بوابة الهند !

نعم .. من أين أبدا؟

.. أى بلد من البلاد الثلاثة تحب أن تزور أولا؟

وعن أية مدينة من مدن كل بلد منها تريدنى أن أحدثك؟

هل أحدثك عن (بومباى) - أو كما يطلقون عليها : «بوابة الهند» - التى «أهدتها» البرتغال فى عام ١٩٦٦١ لملك انجلترا «تشارلس الثانى» كجزء من «دوطة» عروسه «كاترين أوف براجانزا»؟.. بومباى التى تظهر إحدى الخرائط البرتغالية فى القرن السابع عشر أنها كانت تتألف فى الأصل من سبع جزر، ظلت تتسع رقعتها بتأثير رواسب البحر، ومازال!.. بومباى التى تبدو أنوارها ليلا للقادم إليها من البحر كعقد من اللؤلؤ - طالما حلى جيد الامبراطورية البريطانية! - إذ يرسم خليجها الجميل شكل نصف دائرة. بومباى التى كان شاطئها -منذ قرون- المكان المختار الذى يحوم حوله القراصنة بسفنهم الصغيرة ذات الشراع الأحمر المثلث.. والتى منها عبر البحارة الهنود المحيط الهندى إلى أفريقيا.. وإليها جاء البحارة البرتغاليون فتمكنوا من السيطرة على المحيط والشاطئ، وبذلك بدأ استغلال الغرب للهند!

نعم، هل أحدثك عن بومباى التى يفصلها عن القاهرة ٤٢٤٠كيلومترا، قطعتها بنا الطائرة فى ١١ ساعة، دون توقف؟.. بومباى التى تختلط الحضارات وتتضارب، فى مبانيها ذات الطراز الهندى ، والقوطى، والبريطانى «الفيكتورى»، والأوربى الحديث، والبوذى القديم، فى الشارع الواحد؟..

وعن معابدها التى تمارس فيها طقوس ديانة الهندوس على قارعة الطريق، فيرى المارة رجالا نصف عراة يحمل بعضهم المباخر، ويدق البعض الآخر نواقيس ضخمة تصم الآذان؟..

وعن حوانيتها وأسواقها حيث تشاهد المفارقة الصارخة بين أناقة النساء المختالات فى ردائهن القومى الجميل، (السارى»، وقد زين وجوههن، «شامة» حمراء مستديرة فى حجم الحمصة، فى وسط الجبهة!..

وبين «دهولة» ورثاثة بعض الرجال من عامة الشعب، بقمصانهم الطويلة الخارجة عن سراويلهم القصيرة، وسيقانهم السوداء العارية، ربما بسبب الفقر،

وربما بسبب القيظ الشديد والرطوبة الخانقة - حتى فى أواخر اكتوبر وهو طقس يرهق أعصاب أهل المدينة الكبيرة ، ويعطل انتاجهم!

دلهى

.. أم أحدثك عن دلهى الجديدة، عاصمة الهند، التى لا تزيد مساحتها عن مساحة ضاحية واحدة من ضواحى أية مدينة كبيرة.. دلهى التى رأيناها تتلألأ بالأنوار وتموج بالمارة والمتسكعين فى ليلة رأس السنة الهندية.. دلهى بشوارعها الفسيحة وحقائقها الشاسعة التى تجعلها أشبه ما تكون بضاحية «المعادى» فى القاهرة. ومبانيها الحكومية الأنيقة النظيفة التى ملأت نفسى حسرة، وأملا.. وفنادقها الفاخرة الشبيهة بقصور المهراجات، والتى ماتزال تخصص فيها قاعة خاصة للأمراء والنبلاء الهنود، لايدخلها سواهم، بينما تختلط جميع الجنسيات فى قاعة الرقص، فيخامر الأمريكى هندية، ويراقص الهندى انجليزية أو ألمانية..

ويخدمك فى قاعة الطعام عشرات من الخدم والسقاة - مما يقطع بكثرة الأيدى العاملة، وضآلة الأجور! - وكلهم من الهنود، فى ثيابهم التقليدية.. حتى رئيسهم الذى يرتدى السترة الأوربية السوداء - سترة «الميتر دوتيل» - هو الآخر هندى . وينتشر الجميع حولك، رهن اشارتك

ومنهم من يذهب ويجىء حاملا إليك طبق الطعام الهندى المشهور «الأرز بالكارى»، فإذا ألهب «الكارى» حلقك بناره اللاذعة - الأقسى من «الشطة»! - أسرع إليك الساقى الآخر بابريق الماء المثلج، الذى يحرصون على غليه قبل ذلك، ضمانا للوقاية من «الكوليرا» المستوطنة فى الهند!

أجرا

.. أم أحدثك عن الرحلة إلى (أجرا) بالسيارات عبر برارى الهند، بين «النسانيس» الأليفة التى تقفز على جانبى الطريق أو ترمقنا بعيونها الصغيرة

المستطلعة.. ثم المرور بمقبرة السلطان «أكبر» - مؤسس مدينة أجرا- ذات الأبواب والشرفات العليا المصنوعة كلها من الرخام المفرغ كالدانتلا، بدقة ووفرة تنمان عن بذخ وصبر عجيبين.

ومواصلة الرحلة بعد ذلك إلى مقبرة «تاج محل»، إحدى عجائب الدنيا السبع الحديثة، التى شيدها السلطان «شاه جهان» لتضم رفات زوجته المحبوبة «ممتاز محل»، التى شاركته أعباء الحكم ولازمته فى حملاته الحربية حتى أدركتها منيتها وهى تضع مولودها الرابع عشر.

فحزن عليها حزنا صار يضرب به المثل، حتى لقد اعتزل الناس وحرم على رعاياه مظاهر السرور، وعطل مهام الدولة ! ثم شيد لها هذه المقبرة الخالدة التى تعد معجزة خارقة من معجزات الهندسة المغولية تجلى فيها البذخ الجنونى، سواء فى المبنى الخارجى الشبيه بقصر من المرمر، بمآذنه وقبابه ومناراته، وحدائقه ونافوراته، أو فى الجدران الداخلية المرصعة بالأحجار الكريمة، تتوسطها المقبرة التى أحاطها بسور من الفضة وكساها بطبقة من الذهب بلغت زنتها نحو ثلاثة آلاف رطل.

وقد صممت القبة الكبرى بحيث تعكس صدى الصوت كما هى الحال فى قبة كاتدرائية «بيزا بايطاليا»، المجاورة لبرجها المائل المشهور. وقد استغرق بناء صرح «تاج محل» العظيم أحد عشر عاما- من سنة ١٦٣٠ إلى ١٦٤١.

جند له خلالها عشرون ألف عامل، تحت اشراف أشهر عباقرة فنون المعمار والزخرفة الذين جلبهم السلطان من أوربا وتركيا وبلاد الفرس والعرب، فضلا عن الاخصائيين الهنود.. وقد بلغت نفقات هذه المعجزة أكثر من أربعة ملايين من الجنيهات.

كلكتا

أم أحدثك عن (كلكتا)، أكبر مدن الهند وأضخم مركز لتجارتها مع العالم (٥مليون طن سنويا)؟.. كلكتا التى عاش فيها بناة الامبراطورية البريطانية من الانجليز فشيدوا القصور وحلبات السباق والحدائق، وأقاموا التماثيل والصروح التذكارية لملكتهم «فيكتوريا» وساستهم من غلاة المستعمرين.

ونعموا طويلا بخيرات البلاد الوفيرة التى حرموا منها أهلها، فجعلوا أحياء سكناهم ضواحى فاخرة للترف والمتعة، وتركوا أحياء الأهلين غاية فى الضيق والازدحام والقذارة!.. ثم نعرج فى جولتنا على الميناء، حيث تتزاحم السفن القادمة والذاهبة إلى محيطات الشرق والغرب، حاملة صادرات «القارة» الضخمة ووارداتها الآتية من شتى الأقطار..

ونزور بعد ذلك أشهر معابد المدينة وفى مقدمتها معبد «باريشنات» - أو «جين» - المشهور، ومعبد «بودرى دا»، وأجمل حدائقها وبحيراتها.. ثم نختم زيارتنا للمدينة بجولة بين ملاهيها الليلية التى تقدم ألوانا من فنون الرقص والباليه الهندية.

وفى مقدمة هذه الملاهى ملهى «شهر زاد» الملحق بفندق «جراند هوتيل»، الذى يقدم لك الطعام - الهندى أو الأوربى - فى قاعة رائعة مكيفة الهواء، على أنغام الموسيقى التى تعزف من مقصورة ساحرة التصميم و«الديكتور».. ثم ملهى «نيو امباير»، حيث تقدم الفنانة «روشانكار» الباليه الرائع : «الصياد والحورية».

والرقص الهندى نوع من العبادة .. عبادة الآله بحركات صامتة وأنغام تحاكى تصرفات الإنسان فى الحياة، دون ماكلام .. فرقصة «سيفا» - اله الهندوس، والراقص الأول فى اعتبار الهنود - تمثل بعض مظاهر الخليقة.. ورغم

اندساس تأثير الثقافة الغربية فى الهند، فان الباليه الهندى كما يؤديه أئمة من الفنانين والفنانات مثل «أوداى شانكار» و«رام جوبال»، ما يزال تعبيرا صادقا عن إيمان الهندوس الدينى.. بل أنه، بلغته ذات الايماءات الخفية، وبمصاحبة الطبول وأدوات الموسيقى الهندية، قد ظفر باعجاب الغرب وتقليده، فى بعض الأحيان!

والهندوس يؤمنون بوحدة الوجود كله. والآلهة جميعا فى نظرهم هم ممثلون متعددون للاله الواحد الأعلى «براهما»، الخالق. وعلى ذلك فهم يعتبرون الههم «سيفا» رمزا للموت والحياة الجديدة التى تعقبه.. ويعتبرون «فينشو»، الاله الذى يحفظهم من الهلاك .. الخ. وحياة الهندوس حافلة بالطقوس والاحتفالات والأعياد التقليدية التى تقام للآلهة.. ومن هذه الأعياد : عيد «دبيا والى»، أو عيد المصابيح، الذى تضاء فيه الشعلات فى كل بيت.. ويعد «رامليلا» الذى يحتفل فيه بحرق تمثال يرمز إلى ملك الشياطين!.. الخ.

ولأعد من هذا الاستطراد إلى الحيرة التى تملكتنى حين تهيأت للكتابة : هل أبدا بالحديث عن هذه الأربع من مدن الهند، وعن معالمها، وبعض طرائف من تاريخها، وصور من ماضيها وحاضرها.. أم أحدثك أولا عن المرحلة الثانية من مراحل الرحلة.. المرحلة التى تبدأ بهبوط الطائرة فى مطار (بانجكوك) عاصمة سيام، مدينة المعابد الأثرية الهامة وسيارات التاكسى التى تسير بسرعة مخيفة –لا تدانيها سوى سرعة وتهور سائقى التاكسى فى (طوكيو) باليابان!؟– ولم لا أعرف (بانجكوك) بأنها المدينة التى يلهبك فيها القيظ، فى منتصف الليل –فى نوفمبر وديسمبر– اضعاف ما يلهبك فى «أسوان» فتدرك لأول مرة معنى أن تكون فى خط الاستواء، ولو كنت ماتزال على بعد ١٣ درجة إلى الشمال منه!

بلاد تايلاند (سيام)

وتدين سيام -أو (تايلاند) كما يسمونها الآن- بفضل ادخال المدنية الحديثة إليها إلى ملكها «مونجكوت»، الذى تولى العرش عام ١٨٥١، والذى احتاج إلى عدة سنوات كى يتخلص من تقاليده القديمة العجيبة، التى كانت تقع فيها مسئولية إدارة «المطبخ الملكى» مثلا على عاتق سبعة من «الضباط»! وكان البلاط مزدحما بعدد كبير من الأشخاص الذين يتقاضون مرتبات كبيرة، مقابل عمل ضئيل: كان من بينهم عدد من الصائغين الاخصائيين فى صياغة الحلى، وعدد آخر من السحرة، والفلكيين، فضلا عن قسم خاص يتألف من الاخصائيين فى الحلاقة وتصفيف الشعر!

ويصل تعداد السفن التى تفرغ شحنتها وتعبأ فى ميناء بانجكوك ألف سفينة فى العام، توزع على أرصفة يبلغ طولها تسعة أميال، وعدد كبير من هذه السفن يحمل أخشاب «الساج»، أو «الدلب الهندى»، وهى أخشاب صلبة تعيش نحو ألفى عام، وتستعصى على النمل الأبيض!.. ومن أجمل المعالم فى منطقة بانجكوك برج «وات آرون» الجميل، الذى يبلغ ارتفعه ٢٤٣قدما.

وعلى بعد ٤٠ ميلا إلى الشمال من العاصمة، فى جزيرة تتوسط النهر، يقع القصر الصيفى للأسرة المالكة.. ومن أشهر أمثلة الهندسة السيامية «بافيون ايزا وانيتبات» المشيد على أعمدة فى وسط إحدى البحيرات!.

ولنتوقف عن الاسترسال عند هذا الحد، فإنى أكاد أسمعك تقول : «دعنا من سيام الآن ولنواصل رحلتنا إلى الصين واليابان!».. فتعال نستقل الطائرة من بانجكوك، كى تهبط بنا بعد نحو خمس ساعات فى مطار ضيق «محشور» بين الصخور الناتئة من كل جانب، حتى لتخال جناحى الطائرة يوشكان أن يصدما بها وهى تهبط هبوطا شبه عمودى إلى المطار!.. وهى عملية خطرة جعلت شركات الطيران تحرم الهبوط أو الصعود من ذلك المطار أثناء الليل وتقصره على ساعات النهار.

هونج كونج : جنة يسكنها شياطين !

نحن الآن فى جزيرة هونج كونج، المستعمرة العجيبة التى يسكنها صينيون ويحكمها انجليز.. ويؤمها السياح، وطلاب اللهو، وقناصوا الصفقات التجارية، من شتى أنحاء الأرض!.. انها مدينة الترف الزائد والفقر المدقع فى آن واحد - شأن كل بلد يحط عليه غراب الاستعمار - والترف بطبعه يغرى بالاغراق فى اللهو، والفقر من الجانب الآخر يلجىء إلى التحلل من كل المقاييس والقيم الخلقية فى سبيل لقمة الخبز..

ومن هنا كان نصف الصينيين الفقراء من أهل المدينة قوادين وتجار ملذات، يلاحقونك بعروضهم فى كل خطوة تخطوها! فى الشارع يتبعك سائق «الريكشو»- العربة ذات المقعد الواحد التى يجرها آدمى!- فاذا لم تركب سار بعربته بمحاذاتك مئات الأمتار، يحدثك عن فتنة نساء الصين، ويعرض عليك أن يحملك إلى حيث ترى بنفسك وتحكم، ولا حرج عليك فى أن تعود دون أن تدفع شيئا، إذا لم تعجبك البضاعة!

ويظل الرجل يلح عليك - دون خجل أو ملل!- حتى يوصلك إلى باب الفندق الذى تقطنه، وهناك يبذل محاولته الأخيرة فيكرر مميزات الصفقة على مسمعك - ومسمع المارة والشرطة ورجال الفندق - جهارا نهارا.. ولا يدركه اليأس الا حين تختفى عن ناظريه وراء باب الفندق، وعندئذ.. يستدير كى يلاحق بعروضه شخصا آخر فى الطريق!.

فإذا دخلت غرفتك فى الفندق - أى فندق فى هونج كونج! - وطلبت قدحا من الشاى أو القهوة، انتهز خادم الفندق الفرصة فسألك - فى بساطة - ان كنت ترغب فى أن يحضر إليك حسناء صينية كى تقضى الليلة معك.. فى الفندق!؟

والظاهرة الأخرى الصارخة فى ذلك الميناء العجيب الذى جعله الانجليز منطقة حرة، معفاة من الجمارك، يباح فيها تداول النقد الأجنبى من جميع الأنواع بواسطة صيارفة تزدحم بهم الحوانيت على قارعة الطريق - كما هى الحال فى (بيروت)-.

الظاهرة الأخرى الصارخة فى هونج كونج، إلى جانب الدعارة، هى التفاوت «المزعج» فى أسعار السلع بين متجر ومتجر، وحانوت وآخر .. فالمساومة الكريهة هى قانون البيع والشراء هناك! .. وبحكم الانخفاض الكبير فى أسعار كل ما يخطر بالك من السلع المستوردة من شتى أقطار العالم - نتيجة لاعفائها من الجمارك - ينتهز التجار فرصة غفلة السائحين عن درجة انخفاض الأسعار فى المدينة بالنسبة للأسعار فى بلادهم، ويغتالون نصف الفروق، اعتمادا على قناعة السائح بالنصف الآخر، بل وفرحته به..

فإذا كانت السلعة تباع فى وطنه بما يوازى مائة قرش مثلا، ووجدها فى أحد حوانيت (هونج كونج) بسبعين قرشا، فانه يختطفها فورا وهو يغبط نفسه على هذا السعر..

لكنه لا يكاد يسير خطوات حتى يلمحها معروضة فى حانوت آخر بستين قرشا.. وإذا ساوم الشارى كل بائع على حساب منافسيه، واستخدم سلاح المقارنة بأسعار غريمه التاجر الآخر، فقد يحصل على السلعة ذاتها آخر الأمر بأربعين قرشا فقط!..

وأغلب الظن أن من العوامل التى تغرى التجار هناك باعتناق سياسة المساومة والتفاوت الكبير بين الأسعار، اعتمادهم على ضيق وقت السائح العابر وتعجله، الأمر الذى لن تتيح له فى الغالب أن يدقق ويحقق ويقارن بين الأسعار!.

هذا هو الجو العجيب -الحافل بالمفارقات!- الذى يسود الحياة فى (هونج كونج) : ترف، وتسول .. بذخ، وإذلال للآدمية.. قصور شامخة يقطنها أصحاب

ملايين، انجليز وصينيون، (وبعض الأخيرين يخصص لكل زوجة من زوجاته العديدات طابقا من قصره، أو يشيد لكل منهم قصرا على حدة!).. وفى الجانب المقابل : صيادون فقراء لا مأوى لهم غير قوارب الصيد ذاتها، يقطنون فيها، يأكلون وينامون، ويولدون ويموتون!..

ولعل من سخرية الأقدار - وما ينطبق عليه المثل القائل بأن لكل سيئة حسنة!- ما حدثني به أحد أطباء هونج كونج، عن أن الاحصاءات قد دلت على كثرة عدد المعمرين بين أولئك الصيادين الفقراء.

وقد علل الطبيب هذه الحقيقة بأن حياتهم الهادئة المستقرة، الخالية من كل اعتبار للزمن أو ارتباط بمواعيد للعمل أو الخروج أو العودة، قد حماهم من الأمراض التى تنجم عن الانفعالات ودواعى الانزعاج التى تجلبها الحياة العصرية المعقدة، وفى مقدمة هذه الأمراض قرح المعدة والانهيارات العصبية..و..الخ).

وأعود إلى اكمال الصورة التى بدأتها لتلك المستعمرة العجيبة : أن كل ما ترى أو تسمع فيها يوحى بالانحلال، والابتذال، والمساومة.. مساومة فى الأعراض، ومساومة فى السلع.. لا صدق ولا شرف ولا مبادىء، وإنما نهب وسلب ودعارة، وشائعا عن عصابات تستدرج طلاب اللهو إلى أوكار بعيدة تسلب فيها نقودهم وثيابهم ثم يلقى بهم إلى عرض الطريق، عراة ، غائبين عن الوعى!.

على أن «للاسطوانة» وجهها الآخر، المشرق.. فإذا غضضنا الطرف عن الأخلاق، ألفينا للمكان طابعا آخر-جد مختلف- وصورة يغلب عليها الجمال، والجمال النادر!.. الجمال الطبيعى، والجمال المصنوع.. جمال الطقس الربيعى الساحر، والهواء المنعش الذى يهب من البحر، والروابى الخضر التى يتسلق إلى قمتها« كورنيش» دائرى ملتو ، أملس كالحرير، أشبه بثعبان طويل فضى قد

التف حول هضبة عالية خضراء، تناثرت على سفوحها وفى منعطفاتها القصور والفيللات، بل والعمارات السكنية الفاخرة، ذات الأجور «الخيالية»!..

وإذا شئت أن تختصر الطريق إلى قمة الهضبة أو الجزير - التى ذكرنى كل ما فيها بشبيهتها الايطالية جزيرة «كابرى»!- ففى وسعك بدلا من استخدام السيارة أن تستقل الترام المتسلق الذى يصعد بك إلى القمة فى دقائق، وكأنه حيوان يزحف على بطنه متسلقا الصخرة بزاوية لا تقل عن ٤٥ درجة، مستعينا على هذا التسلق الوعر بغرس مخالبه فى الأرض كلما صعد خطوة، تفاديا للسقوط!..

أما فى النزول، فانك تخاله يوشك أن ينزلق بك إلى هوة ليس لها قرار، وكأنك تمارس رياضة الانزلاق من قمة جبل من الجليد! فإذا بلغت قمة الجزيرة الصخرية الشاهقة، أشرفت على منظر رائع قل نظيره فى العالم، تتناهب ناظريك فيه عدة مرئيات ينافس بعضها بعضا فى السحر والجمال.

سفوح من الغابات والحدائق، ترصعها الدور والقصور.. وبحر يلعق أقدام الجزيرة فى خشوع، متيماً فى جمالها، وعلى مياهه الزرقاء تتهادى - ذاهبة آيبة - ناقلات أنيقة للركاب. تحملهم فى دقائق من الجزيرة إلى المدينة المكملة لها على الشاطئ الآخر القريب.. وبالعكس..

ويطلق على تلك المدينة المقابلة اسم (كاولون، وعلى الجزيرة اسم «هونج كونج)، ولكن مستعمرة هونج كونج تشمل كلاهما، بل تتمدد وراء كاولون أميالا عديدة يقطعها القطار فى نحو ساعة حتى يبلغ حدود الصين الشعبية. والواقع أن كاولون وهونج كونج تعتبران نصفين لمدينة واحدة، مثل بورسعيد وبور فؤاد.

وإذا كان المنظر من قمة الجزيرة يبدو ساحرا فى النهار، فان سحره يتضاعف فى الليل، حتى لتشعر وأنت تتأمله بمزيج من الرهبة والنشوة، تود

معهما لو توقف الزمن عن سيره فأتيح لهذا المنظر الخلاب أن يثبت أمام ناظريك.. إلى غير نهاية!.. كيف لا وأنت ترى شاطئين متقابلين يتوامضان بالأنوار، من جميع الألوان.. أنوار الشوارع، واللافتات الحمراء والخضراء للحوانيت ودور الملاهى الليلية، والاعلانات التجارية، وأنوار السفن المتلالئة، الذاهبة الآتية بين الشاطئين .. وأنوار المساكن المتناثرة على السفح والشوارع المدرجة التى تؤلف سلما هائلا من مئات الدرجات، يصل بين شارعين متوازيين يرتفع أحدهما عن الآخر عشرات الأمتار!.

وكما يحلو للناظر أن يتأمل المنظر الساحر من فوق القمة، فان شغفه به يبلغ غايته وهو يهبط منها إلى أسفل الجزيرة، سواء بالترام أو بالسيارة، فعندئذ يلوح له المنظر لحظات، ثم يختفى وراء منعطف، ثم يعود فينبسط أمامه من جديد فى سناء باهر، لا تملك عين رأته أن تنساه!.. فإذا هبط إلى الشاطئ واستقل الناقلة المائية إلى الشاطئ الآخر، ثم استدار ليواجه الجزيرة وهو يبتعد عنها، لاح له السفح المتلألىء لوحة خالدة تنطق بالجلال والابداع!.

وهونج كونج، بقسميها- سواء الجزيرة أو نصفها الآخر المسمى (كاولون)- تضارع فى شوارعها، وحوانيتها، ومبانيها، ونظافتها، أجمل مدن أوربا. وقد خيل إلى وأنا أسير فيها لأول مرة أنى أسير فى إحدى مدن شمال ايطاليا أو النمسا!.. وإذا عبرت البحر من الجزيرة نحو الشمال إلى (كاولون)،، وهى الشاطئ الجنوبى لقارة الصين المترامية الأطراف - (وتقطع الناقلة المسافة بين الشاطئين، وتبلغ نحو ميل، فى أقل من عشر دقائق)-

ثم هبطت من الناقلة لتستقل من أمام مخطتها سيارة الأتوبيس رقم ٦، فإن السيارة ستسير بك أكثر من نصف ساعة فى شارع واحد عريض مستقيم، جميل التنسيق، تحف به من الجانبين آلاف الحوانيت الفاخرة التى تعرض أرقى وأرخص منتجات العالم، وتتخلل هذه الحوانيت مئات المسارح، ودور السينما،

والملاهى الليلية - التى تقدم مزيجا من الفنون الصينية والأوربية- ومئات أخرى من الفنادق، تستقبل كل يوم فى المتوسط نحو أربعة آلاف سائح قادم بطريق البحر -من شتى أطراف المعمورة- وخمسمائة سائح بطريق الجو، إلى جانب القادمين بطريق البر من الصين الشعبية.

ولك أن تتصور ضخامة الحركة التجارية فى المدينة، إذا علمت أن البضائع التى أفرغت أو شحنت من مينائها خلال عام ١٩٥٦، سواء من الواردات أو الصادرات، بلغت ٥ر٢٥مليون طن !- قدرت الواردات منها بنحو ٢٧٠ مليون جنيه استرلينى، والصادرات بنحو ١٩٢مليون جنيه)- وأن مساحة الميناء المذكور نحو ١٧ميلا مربعا.

كما تستطيع أن تتصور ضخامة حركة المواصلات بين قسمى المدينة (أى بين كاولون والجزيرة)، إذا علمت أن متوسط عدد الركاب الذين تقلهم الناقلات المائية بين الشاطئين يبلغ نحو ٠٠٠ر٣٠٠ راكب كل يوم !..

ومتوسط عدد الطائرات التى تهبط أو تغادر المستعمرة يوميا نحو عشرين طائرة.. وعدد سيارات الأتوبيس بها ٧٤٤سيارة، تقل نحو ٠٠٠ر٨٥٠ راكب يوميا!.. وعدد عربات الترام ١٣٨ عربة، تحمل نحو ٠٠٠ر٤٣٠ راكب كل يوم!.. وعدد السيارات الخاصة نحو ٠٠٠ر٣٠ سيارة.

بقى بعدهذا أن تعرف أن عدد سكان المدينة بلغ الآن نحو ٠٠٠ر٧٥٠ر٢ نسمة (منهم نحو ٠٠٠ر١٢٠ يعيشون فى زوارقهم كما أسلفت. وقد تضاعف عدد السكان أربع مرات منذ استرد الانجليز المستعمرة من اليابانيين فى عام ١٩٤٥- (وكان هؤلاء قد احتلوها أربع سنوات أثناء الحرب العالمية الثانية).

وقد تتساءل عن سر ضخامة الحركة التجارية التى يتداولها ميناء (هونج كونج)، وهل ترجع إلى ضخامة عدد السائحين الذين يمرون بالمدينة ويستهلكون

سلعها. فحسب؟.. وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للواردات، فما سر ضخامة الصادرات التى تشحن من الميناء، بدورها؟.

والجواب أن هونج كونج هى المنفذ التجارى الجنوبى من وإلى الصين الشعبية.. فبالرغم من عدم اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بهذه الأخيرة، ومقاطعتها التجارية لها، فان بريطانيا لم تستطع المضى فى هذه المقاطعة طويلا فكان أن رضخت لحكم الأمر الواقع واستأنفت علاقاتها التجارية معها، وهى تتعامل معها الآن على نطاق واسع، فتصدر إليها ما تحتاج إليه الصين من منتجاتها، وتستورد منها ما تحتاج إليه من منتجات الصين.

على أنه إذا كانت بريطانيا تستطيع التعامل مع الصين عن طريق موانىء الصين ذاتها- مثل شنغهاى مثلا- إلى جانب ميناء هونج كونج، فان أهمية هذه الأخيرة فى التجارة مع الصين تبرز بصورة أكبر بالنسبة للدول الأخرى التى لم تعترف حتى الآن بالصين الشعبية..

فعن طريق هونج كونج يستطيع العلماء والتجار أن يبيعوا للصين جميع أنواع السلع الأمريكية - ذاتها!- سواء المعروضة فى متاجر المدينة أو التى تستورد من أمريكا باسم هونج كونج ثم تباع من الميناء مباشرة إلى الصين، وهى فى صناديقها! (ومن هنا ترى أمام فنادق (بكين) و(شنغهاى) سيارات أمريكية من آخر طراز، رغم المقاطعة الأمريكية!)(١).

ومن جهة أخرى، تصدر الصين إلى هونج كونج كل ما يفيض عن حاجتها من منتجاتها، ومن هناك يباع ويصدر إلى سائر أنحاء العالم، بما فى ذلك أمريكا بالطبع!.

وإلى جانب منتجات الصين، فان بعض صادرات هونج كونج هى من

---

(١) استأنفت العلاقات بين الصين والولايات المتحدة فى السنوات الأخيرة.

إنتاج هونج كونج ذاتها.. ذلك أن بالمدينة ٣٣١٩ مصنعا، وتبلغ نسبة الذين يعتمدون على الصناعة - سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة - نحو خمسين فى المائة من السكان، (فى حين يعتمد الباقون على صيد الأسماك، وزراعة الأرز). والصناعة الرئيسية للمستعمرة هى النسيج، ويليها تكرير السكر، وبناء السفن، ومنتجات المطاط، والتطريز، والأحذية، والبطاريات، والصمامات ، ومصابيح آلات التصوير الليلية، والمصنوعات المطلية بالميناء، ولعب الأطفال.. ونحو أربعمائة صنف من الصناعات الصغيرة الأخرى. ويبلغ المتوسط اليومى لأجر العامل الممتاز هناك بين ٤٢و٧٢ قرشا مصريا). وأجر العامل العادى بين ١٨و٣٦ قرشا. كما انتجت المدينة فى العام الماضى ٢١٥ فيلما سينمائيا، وبها محطة اذاعة ومحطة تليفزيون، تذيع كثيرا من روايات الأوبرا الصينية.

وعلى ذكر الحركة التجارية والصناعية فى هونج كونج، قد يدهشك أن تعلم أن بالمدينة ٨٠ بنكا مرخصا به (عدا مئات الصيارفة المنتشرين فى الطرقات)، ونحو ١٧٠ شركة تأمين. وإلى عهد قريب، كان بنك «هونج كونج - شنغهاى» البريطانى، الذى يمول تجارة بريطانيا مع الصين، أعلى مبنى فى الجزيرة.

وقد أقاموا عند مدخله تمثالين ضخمين للأسد البريطانى.. أما اليوم، فقد أنشأت الصين الشعبية مصرفا أكبر وأعلى منه، أطلقت عليه «بنك الصين»، وأمام مدخله أسدان على الطراز الصينى، أحدهما غاضب متحفز، والآخر ضاحك تكاد تسمعه يقهقه عاليا!

وقد يدهشك أن تعلم أن هونج كونج تعتمد اعتمادا كليا فى تزودها بالمياه على الأمطار، بحكم عدم وجود أنهار كبيرة أو موارد أخرى للماء. وأكثر أمطارها تسقط خلال أشهر الصيف، بين مايو وسبتمبر. (والمتوسط السنوى للأمطار فيها يبلغ ٧٦ر٨٤بوصة). وتخزن المياه فى خزانات عديدة تبلغ سعة أكبرها ٤١٩ر١مليون جالون.

وبسبب هذا النقص فى موارد المياه كان ماء الصنبور ينقطع عن غرف الفندق الذى نزلنا فيه أثناء عودتنا من الصين يوم ٢٢ نوفمبر الماضى ابتداء من الساعة العاشرة حتى الساعة الخامسة من بعد ظهر كل يوم.

وفى هونج كونج عدة شواطئ ممتازة للاستحمام، تزدحم بروادها خلال أشهر الصيف - لا سيما فى عطلة نهاية الأسبوع - وأشهر هذه «البلاجات» شاطئ خليج «ريبالس»، الذى سمى بهذا الاسم نسبة إلى السفينة الحربية «ريبالس» التى اشتركت فى محاربة القراصنة فى أواسط القرن الماضى ، ومن المعروف أن هونج كونج كانت يومئذ مأوى للقراصنة ومهربى الأفيون!.. وإذا كنت شهدت الفيلم الممتاز .... الذى عرض فى القاهرة منذ عامين، فلابد أنك تذكر المنظر الساحر لخليج «ريبالس باى»، الذى بدت فيه بطلة الفيلم الفنانة «جنيفر جونز»- وكانت تمثل دور طبيبة صينية - تسبح مع صديقها المراسل الحربى الأمريكى «وليم هولدن»..

ثم يخرجان من الماء إلى شرفة فيللا جميلة تشرف على البحر. وقد رأيت الدار المذكورة قائمة على شاطئ الخليج - إذ لم تكن من قبيل الديكور المؤقت الذى يقام داخل الاستديو لتصوير بعض مناظر الأفلام - وقيل لى أن صاحب تلك الدار طبيب برتغالى وأنه سمح للشركة منتجة الفيلم باستغلالها فى تصوير ذلك المنظر.

وعلى ذكر الفيلم المذكور، وقفت على تفصيلات غريبة تتصل بملابسات القصة «الواقعية» التى اقتبس عنها. فقد كتبت هذه القصة طبيبة وأديبة صينية تنحدر عن أبوين أحدهما صينى والآخر أوربى - لست أدرى على وجه التحديد- وكانت الطبيبة المذكورة تعمل فى أكبر مستشفى فى هونج كونج، حين وقعت فى حب مراسل حربى انجليزى - (لا أمريكى ، كما أظهر الفيلم) -

كانت زوجته تقطن فى سنغافورة. فلما قتل المراسل أثناء حرب (كوريا)، ونشرت الطبيبة قصة غرامهما الحقيقى، كان الأمر مفاجأة أليمة لزوجة المراسل، التى لم تكن تعلم شيئا عن غرام زوجها بأخرى! وقد دفعتها الصدمة إلى أن ترفع دعوى ضد المؤلفة تطالبها فيها بتعويض كبير عن «اساءتها لسمعة زوجها القتيل»!.. ولا تزال الدعوى منظورة أمام القضاء، لم يفصل فيها بعد.

وقبل أن تغادر (هونج كونج) بصفة مؤقتة، (حتى نمر بها مرة أخرى ونحن فى طريق عودتنا من الصين الشعبية). قد يهمك أن تعرف سر انفصال هذه المستعمرة الصغيرة عن بقية «القارة الصينية» - كما أحب أن أسميها - وسبب خضوعها للحكم البريطانى، فى حين أن أهلها صينيون أصليون، شأنهم شأن بقية شعب الصين !؟

والجواب سأحدثك عنه بالتفصيل بعد قليل حين أروى لك قصة الحضارة الصينية، والكفاح الصينى ضد الاستعمار الأوربى.. الخ.. وإنما اكتفى هنا بالإشارة إلى أنه على أثر محاولة الانجليز التسلل بنفوذهم إلى الصين، فى أواخر القرن الثامن عشر، بغية إيجاد سوق هائلة لتجارة الأفيون- الذى كانوا يحتكرون زراعته فى الهند، ويجنون من بيعه أرباحا خيالية!- أصدر امبراطور الصين قرارا بتحريم تجارة الأفيون وتدخينه، ابتداء من عام ١٨٠٠..

لكن الشركة البريطانية التى كان يعنيها الأمر -وهى المسماة شركة الهند الشرقية- أرادت أن تتحدى قرار الامبراطور، فلجأت إلى القراصنة الذين يعيثون فسادا فى المنطقة، وأعدت بمعاونتهم «أسطولا» من الزوارق المسلحة لتهريب الأفيون إلى داخل الصين، واعتمدت ميزانية ضخمة لرشوة رجال الموانىء والجمارك .. وأفلحت الشركة بالفعل فى تعميم الأفيون فى كل مدينة، وقرية من أرض الصين، أكثر من ذى قبل !.. فلما رأى الامبراطور هذه المخالفة لقراره السابق عين حاكما قويا لمنطقة (كانتون) الجنوبية، فانتقل الحاكم

إليها، وهناك وجه انذارا لجميع التجار الأجانب بوجوب تسليم كل كميات الأفيون التى فى حوزتهم قبل انقضاء موعد محدد.

لكنهم سخروا من الانذار ولم يبالوا بالرد عليه، فانقض رجاله فى لحظة واحدة على سائر أوكار هذه التجارة ومخازنها وبؤر تقطيرها، وصادروا كل ما كان فيها من الأفيون -وقد بلغت زنته يومئذ نحو عشرين ألف طن!- ثم احتفلوا بحرقها فى احتفال شعبى كبير!.

عندئذ جن جنون تجار الأفيون الانجليز، واستغاثوا بحكومتهم .. التى وجدت فى الأمر فرصتها المنشودة لبسط نفوذها على الصين، فوجهت إلى الامبراطور احتجاجا عنيفا طالبت فيه بالغاء قرار تحريم الأفيون، وتعويض التجار البريطانيين الذين صودرت بضاعتهم تعويضا سخيا، والا.. اضطرت هى إلى التدخل!.

وكان طبيعيا أن يرفض «الانذار».. فتحرك الأسطول البريطانى - كعادته!- إلى حيث صب حممه على مدينة (كانتون)، فى أحد أيام مارس سنة ١٨٤٠، بوحشية منقطعة النظير!.. لكن حاكمها الباسل أبى التسليم، وأعد عدته لمواجهة الحصار الرهيب الذى قرر الأسطول أن يضربه على المدينة، والذى استمر أكثر من عام، اضطرت الصين فى نهايته إلى التسليم بمطالب الانجليز: وكانت فى مقدمتها إباحة تداول الأفيون وتدخينه، فى جميع أنحاء البلاد، والتنازل لهم عن ميناء وجزيرة هونج كونج، لضمان تنفيذ هذه المطالب !.. ثم تعويض التجار الذين أحرقت بضاعتهم تعويضا ماديا وأدبيا سخيًا، واعفاء الانجليز منذ ذلك التاريخ من الخضوع للقوانين الصينية والمحاكم الصينية.. الخ.

وأطلق الانجليز على غنيمتهم الدسمة اسم (فيكتوريا). نسبة إلى ملكتهم التى وقع فى عهدها هذا الاحتلال، الذى باركته.. كما أطلقوا على قمة الجزيرة اسم «قمة فيكتوريا»، وهو اسم ما يزال ساريا إلى اليوم، أما الجزيرة نفسها والمستعمرة عامة فقد صارت تعرف بعد ذلك باسمها الحالى (هونج كونج) -

ومعناه «الماء العذب» أو «الماء المعطر»- وكان البرتغاليون قديما يسمونها «جزيرة اللصوص»، إذ كانت مأوى للقراصنة.

وفى عام ١٨٦٠، بعد أقل من عشرين عاما من احتلال الانجليز للجزيرة، استولوا أيضا على منطقة (كاولون)، وهى الشاطئ المواجه لها من أرض الصين.. ثم ازدادت مطامعهم بمرور الزمن، فحصلوا من الصين فى عام ١٨٩٨ على رقعة كبيرة من الأرض تلى كاولون إلى الداخل، بايجار اسمى لمدة ٩٩ عاما، وأطلقوا عليها اسم (الأراضى الجديدة). وهى التى يخترقها القطار الآن فى نحو ساعة قبل أن يصل إلى الحدود الفاصلة بينها وبين الصين الشعبية.. وهكذا بلغت مساحة مستعمرة هونج كونج كلها نحو ٣٩٤ ميلا مربعا، أما الجزيرة وحدها فلا تزيد مساحتها عن ٣١ ميلا مربعا، ويبلغ طولها من الشرق إلى الغرب ١١ ميلا، أما عرضها فيتراوح حسب اختلاف كل جزء بين ميلين وخمسة أميال، وترتفع قمتها المشهورة التى حدثتك عنها حوالى ١٨٠٩ أقدام فوق سطح البحر.

روكفلر الشرق الأقصى !

ومن أشهر الأماكن التى يحدثك عنها أهل هونج كونج إذا سألتهم عن أهم معالمها، حديقة «بلسم النمر» - أو «مرهم النمر» (تايجر بالم)- ولهذه الحديقة قصة واقعية تقرب من خرافات ألف ليلة وليلة، فقد أنشأها فى عام ١٩٢٥ ثرى صينى يدعى «أو بون هاو»، أنفق عليها من جيبه الخاص مليون جنيه استرلينى بالضبط.

كما أنشأ حديقة أخرى من نفس الطراز فى جزيرة سنغافورة، انفق عليها أربعة ملايين منر الجنيهات!.. أما فكرة انشاء الحديقتين، وسر ثراء المليونير المذكور، فتتلخص فى أنه كان قد تمكن من تركيب «مرهم» خاص لا يحتوى على أى دهن حيوانى، أطلق عليه «مرهم النمر».

وقد ظهرت فائدته الأكيدة الفعالة -على حد قول الصينيين- فى علاج أمراض: السعال، والبرد، والصداع، والروماتيزم، واللمباجو، والربو، وألم الأسنان، والنقرس، وعرق النسا، والآلام العصبية، وبحة الصوت، ولسعة العقرب والحشرات، والجروح، والتواء العضلات، وجميع آلام الصدر!..

وطريقة العلاج أن يدلك به مكان الألم أو الاصابة ثلاث مرات فى اليوم ثم يربط بقطعة من «الفانلة» أو القماش الدافىء .. كما نص فى النشرة الخاصة بهذا الدواء «الساحر» أنه يحسن الاحتفاظ بزجاجة منه فى البيت وأثناء السفر لمنع الاصابة بالأمراض المعدية!.. وإلى جانب الدواء المذكور توصل «المخترع» إلى تركيب مسحوق أطلق عليه «مسحوق شفاء الصداع»، ودواءين آخرين أطلق عليهما اسمين صينيين لم أهتد إلى ترجمة مدلولهما، وهما : «بالاشين ساى» ومزيج «شنكاويت وينك»، فلم تلبث العقاقير المذكورة أن انتشرت وذاع استعمالها فى أنحاء الصين وفى أقطار أخرى خارجية، لما ثبت من نفعها العاجل فى شفاء هذه الأمراض، (وما تزال محتفظة بشهرتها وانتشارها حتى اليوم!).

وعلى أثر ذلك أقام الرجل عددا كبيرا من المعامل لانتاج هذه العقاقير فى كل من بلاد: الملايو، واندونيسيا، وهونج كونج، وكوونجتونج، وفوكين، وشنغهاى، والفيلبين، وفيتنام، وتايلاند.. الخ.. فلما أثرى صاحبنا من ذيوع صيت عقاقيره أخذ يساهم بثروته فى الكثير من أعمال البر والمشروعات العامة النافعة، فمنح هبات سخية للمدارس الأهلية، والمستشفيات، ودور كفالة العجزة، وملاجىء الأيتام والمسنين، وضحايا الفيضانات والأوبئة، سواء فى الصين أو فى سواها من البلاد!.. وبالاختصار فقد خصص ٦٠ فى المائة من أرباحه السنوية لأعمال البر، حتى جاوز ما وهبه لهذا الغرض سبعة ملايين من الجنيهات!..

وفى عام ١٩٣٨ خلع عليه ملك انجلترا الراحل «جورج السادس» وساما رفيعا، تقديرا لمساهمته فى مشروعات الترفيه الاجتماعى ببلاد الملايو.

وبالإضافة إلى أعماله الخيرية، اضطلع بكثير من المشروعات الاقتصادية والثقافية، فأنشأ مصرفاً ماليا فى سنغافورة، وأسس ١٢ صحيفة ، بعضها فى مدن الصين وبعضها فى هونج كونج وبلاد الملايو.

أما الحديقة المذكورة فقد شيدها فى عام ١٩٣٥ على قطعة من الأرض مساحتها ثمانية أفدنة، وملأها بالتماثيل وبمناظر مجسمة لحيوانات وأشخاص، يمثل كل منظر منها قصة من قصص الأدب الشعبى الصينى والفولكلور البوذى التى يؤمن بها الصينيون ويعلمونها لأولادهم فى كتب الأطفال، وهى قصص تحض الناس على فعل الخير، وحب الوطن، والرفق بالوالدين، والاخلاص للأصدقاء.. كما تنفر الناس من فعل الشر. كالتمرد، والقتل، والسرقة، والخداع..

وقد هدف الثرى الصينى من وراء اختيار التماثيل والمناظر المجسمة التى أقامها فى حديقته أن تساعد على نشر الفضائل وتحقيق الغايات الأخلاقية النبيلة التى يستفاد مغزاها من تلك الأساطير والقصص، إلى جانب امتاع زائرى الحديقة بطرافة المشاهد التى تحتويها.. أو على حد قوله ذات مرة : «لقد جمعت ثروتى من الشعب، ومن ثم ينبغى أن أنفقها من أجل اسعاد الشعب».

ومما يذكره أهل الشرق الأقصى بالخير للمحسن المشار إليه، أنه لم يقصر بره واحسانه على مواطنيه وحدهم، وإنما تعداهم إلى جميع شعوب جنوب آسيا، دون أية تفرقة تتصل بالدين أو الجنس، فانعم بهباته على بوذيين ، وكاثوليك، وبروتستنت.. الخ.. لكنه لم يكن يمنح عطاياه جزافا، دون تدقيق - رغم أن موارده كانت تمكنه من ذلك، وكان هذا خليقا بأن يجنبه كثيرا من العناء والمتاعب - بل كان يبدى عناية فائقة في دراسة المشروعات التى تنشد عونه، ولا يعطى الا من يقتنع بأنهم يستحقون المساعدة، وفى مقدمتهم الأطفال - ولا سيما الأيتام - والمسنين والعجزة.. ونتيجة لهذا السخاء فى العطاء، وهذه الحياة الحافلة بالحسنات، كان حزن الأسيويين عليه شديدا حين فاجأته منيته يوم ٥

سبتمبر عام ١٩٥٤، فى مستشفى الملكة بمدينة (هونولولو)، على أثر اصابته بنوبة قلبية مفاجئة، وكان يومئذ فى الثانية والسبعين. وقد أحرقت جثته بعد الوفاة حسب تقاليد عشيرته.

واليوم، تعتبر حديقته مزارا للصغار والكبار، من السائحين وأهل الجزيرة، بل أن زوجته الأخيرة - التى ما تزال فى شرخ الشباب - تقيم حتى الآن فى قصرها الرائع الذى يقع فى ركن من الحديقة، والذى لا يفصله عن روادها سور ولا حجاب، حتى لتقع عين الزائر وهو مار أمامه على محتويات ردهته من أثاث ورياش..

ولعلك مشوق بعد هذا إلى أن أصف لك تلك الحديقة العجيبة التى أنفق على أنشائها مليون جنيه.. ولكنى اعترف بعجزى عن وصفها وصفا كاملا يصورها لك على حقيقتها، بل أن الزائر لها لا يملك أن يعى ببصره كل دقائقها وجزئياتها- حتى وهو فيها- ما لم ينفق فيها نهارا كاملا على الأقل، يتأمل خلاله كل شبر منها، أمامه، وعن يمينه، ويساره، وفوق مستوى نظره، من كل جهة.. فكلما رفع بصره درجة إلى أعلى رأى شيئا جديدا، أو سلما جميلا من الصخور الصناعية يقود إلى طابق أعلى.

فالحديقة مكونة من ٤ أو ٥ طوابق، وبين كل طابق والآخر عدة اتجاهات، وتفرعات، وسلالم أخرى، تؤدى إلى كهوف مختبئة، و«جبلايات» ، وأروقة، وشرفات، وسراديب، تدخل من أحدها فلا تعرف كيف تعود إلى حيث كنت!..

والخلاصة أنك كى تحيط بهندسة الحديقة أو تختزن فى وعيك مسالكها لابد من أن «تدرسها» دراسة متفرغ مقيم، وتقف كل حين لتسأل نفسك من أى طريق جئت. وأى اتجاه يقودك إلى الجزء الذى لم تره!..

وفى كل خطوة تخطوها يباغت عينك شىء غريب، صارخ، يستوقف

انتباهك حتما مهما كنت شارد البال: فهذا نمر ضخم تفاجأ بأنيابه على قيد شبر من ذراعك، فتخاله أول الأمر وحشا حيا يوشك أن يزمجر.. وهذه سمكة كبيرة فى حجم التمساح، لها رأس امرأة!.. وذاك طاووس جميل تكاد تمر بيدك على ريشه الجميل.. وهنا منظر مجسم لمجموعة من المخلوقات اختلطت فيها سمات البشر والوحوش.. وهذه تماثيل لكائنات خرافية عجيبة الهيئة، كالتى تقرأ عنها فى الأساطير.. وهناك جماعة من النسوة العرايا فى الحمام.. إلى عشرات بل مئات من هذه الغرائب ذات الأشكال والألوان الصارخة التى امتلأ بها المكان..

وفى ركن مرتفع من الحديقة برج صينى (باجودا) من سبعة طوابق، يرى عن بعد من أجزاء كثيرة من الجزيرة، ومن طريف أمر هذا البرج أن السلطات حرمت على الزائرين الصعود إليه، بعد أن كثرت حوادث الانتحار من فوق قمته، إذ ثبت أن الشعور الذى يراود من يطل من ذلك الارتفاع الشاهق كثيرا ما يوحى بفلسفة الزهد فى الحياة، ويغرى بالتخلص من متاعبها!.[1]

وقد يكون من الطريف أن أروى لك إحدى قصص الأساطير التى أقيمت لها رموز مجسمة فى الحديقة.. ومن هذه الأساطير قصة الحسناء «يانج كواى فى» : إذ يحكى أنه فى عصر أسرة «تونج» التى كانت تحكم الصين حوالى عام ١٧٨ قبل الميلاد، كانت تعيش فتاة تدعى «يانج كواى فى»، اعتبرت يومئذ واحدة من أربع أجمل حسان فى الصين..

ومن هنا وقع اختيار الملك عليها كملكة «ثانية» – إلى جانب زوجته الملكة الشرعية – وأغدق الرتب والألقاب على أفراد أسرتها، فرفعهم إلى مرتبة النبلاء، وعين ابن عمها «كووك شونج» فى منصب الوزير، دون أن تؤهله لذلك موهبة أو

---

(١) الشيطان يوسوس بالانتحار لمن يصعد إلى مكان مرتفع.

دراية، فساءت أمور الدولة على يديه، حتى اضطر الملك إلى عزله وتنصيب حاكم إحدى الولايات فى مكانه..

فلم يلبث الحاكم الجديد -وكان يدعى «أون لوك شان»- أن بذل من المجهود فى الاصلاح ما استحق من أجله أن يرضى عنه الملك، وتقع الحسناء «يانج كوى فى» فى هواه!.. وإذ ذاك نهشت الغيرة قلب ابن عمها المعزول «كووك شونج»، فدس خلفه عند الملك متهما اياه بالتآمر على العرش! وحين أبدى الملك ترددا فى القبض على الحاكم، انتهز هذه الفرصة فلاذ بالفرار إلى ولايته القديمة، خشية أن تنجح الوشاية فيصدر الملك -فى لحظة ضعف- أمرا بقتله!.. ومن هناك أعد الهارب جيشا لمهاجمة المملكة وقتل غريمه المعزول ثم اختطاف محبوبته الحسناء..

وإذ ذاك اضطر الملك إلى الخروج على رأس جيشه لملاقاته والدفاع عن عرشه.. لكن الجيش تمرد فى الطريق، وأعلن الناطقون بلسان الجنود أن سبب كل هذه الكوارث شخصان اثنان، هما الحسناء «كواى فى» وابن عمها «شونج»، وانهم لن يقاتلوا المهاجمين مالم يأمر الملك بقتل رأسى البلاء أولا!.. وإزاء ذلك لم ير الملك بدا من الرضوخ لمطلبهم، فأعدم ابن العم، بفصل رأسه عن جسده. أما الحسناء «كواى فى» فقد سمح لها بالانتحار، بيدها لا بيد عمرو!.

وتضيف الأسطورة، أن «كواى فى» كانت تكثر من الاستحمام بالمياه المعطرة، كى تظهر مفاتنها للملك، فأقام من أجلها حوضا كبيرا للاستحمام، فى الحديقة، تحيط به شتى أنواع الزهور.. فكانت كلما شرعت فى أخذ حمامها، طوت الأزهار جميعا أكمامها، من فرط إدراكها أن العطر والجمال اللذين يشعان من «كواى فى» كانا يسموان كثيرا على عطرها هى وجمالها!.

هذه هى الأسطورة، أما النموذج أو الرمز الذى أقيم فى حديقة «بلسم النمر» لتذكير الناس بها، فيمثل الحسناء وقد جلست على حافة حوض الاستحمام، ومدت ساقها لإحدى وصيفاتها كى تغسلها لها.. بينما انهمكت وصيفة أخرى فى تدليك ظهرها!.

عند هذا الحد تعال نغادر متاهات هذه الحديقة العجيبة، كى نواصل جولتنا بين روابى هونج كونج.. فإذا ألقينا نظرة على ما يلوح لنا من معالم الجزيرة، بدت لنا فى بطن السهل مساحة كبيرة مستوية، زاهية الخضرة، يحيط بها سور منخفض من الخشب الأبيض.. انها حلبة سباق الخيل، وهى حلبة فسيحة شاسعة، وان كانت لا تصل فى اتساعها إلى مثيلتها فى (كلكتا)- التى تعتبر ثانى حلبة للسباق فى العالم من حيث مساحتها، بعد حلبة (سيدنى) المشهورة فى استراليا -

وهل يطيب للانجليز مقام فى بلد بغير أن يحيطوا أنفسهم بأسباب الترف التى ألفوها فى مستعمراتهم، وأنواع رياضاتهم التقليدية؟.. وهكذا أقاموا لابنائهم فى هونج كونج - دون أهل الجزيرة من الصينيين - شتى النوادى والمؤسسات الرياضية:

هذا لسباق الخيل، وذاك لكرة القدم، وثالث للجولف، ورابع للرجبى، وخامس للكريكت، وسادس لسباق السيارات، وسابع لتنس الطاولة، عدا الأندية المتعددة التى أقاموها للعبة التنس وحمامات السباحة فى كل من هونج كونج وكاولون.

وتنحدر بنا السيارة فى الكورنيش الجبلى الثعبانى، مارة بمستشفى «كوين مارى» الحكومى، المقام فوق ربوة عالية، وهنا عجبت كل العجب حين رأيته يطل على منظر هو أبعد مناظر العالم صلاحية لأن يقام فى مواجهته

مستشفى! أتعلم ماهو ذلك المنظر ؟ انه مقابر الجزيرة! (ويإله من اختيار موفق لتقوية الروح المعنوية فى نفوس المرضى!)..

وتذكرت أننى لم أر هذه المفارقة الدالة على ذوق سقيم ضمن مناظر المكان كما صورت فى فيلم «جنيفر جونز» الذى أشرت إليه من قبل.. فسألت الدليل الذى يرافقنى عن جلية الأمر، فقال لى أن المبنى الذى صور فيه الفيلم على أنه المستشفى، لم يكن سوى مبنى نادى المراسلين الأجانب بالجزيرة!.

ووصلنا فى هبوطنا بالسيارة إلى حديقة رائعة مترامية، توقفت عندها ثم طفت بأرجائها، فإذا هى آية فى جمال التنسيق، أقيمت فى جنباتها الشرفات الفسيحة الشبيهة بالمقاصير، تصعد إليها بضع درجات فإذا أنت تشرف على الحديقة بأسرها.. فإذا فرغت من نزهتك فى أرجائها وجدت باب الخروج يقودك إلى سلم سحيق النهاية تهبط عليه عشرات الدرجات فإذا أنت فى طابق أسفل من طوابق الجزيرة، أو «كورنيش» آخر من طرقاتها.. وترفع بصرك إلى باب الحديقة الذى خرجت منه، فترى مكتوبا عليه هذا العنوان «حديقة النباتات».. ثم تمر سيارة أتوبيس تهبط بك فى خلال دقيقتين إلى المحطة النهائية للترام الجبلى فى سفح الجزيرة، ومنها بعد دقيقتين آخريين إلى أقرب مشرب للشاى تستطيع أن تتناول فيه قدحا ينعشك بعد هذه الجولة الشاقة.

رحلة المساء التقليدية فى (هونج كونج)

والآن، هل جمعت شمل قواك المبعثرة، وأرحت ساقيك ؟.. إذن تعال نشترك فى إحدى الرحلات المسائية التى تنظمها شركات السياحة، ولتكن وجهتنا فى هذه المرة قرية (ابردين. و(ابردين) هى قرية الصيادين الذين يعيشون فى قواربهم، ويعتبرون أقدم سكان فى الجزيرة، إذ كانوا النواة الأولى لها قبل أن يدركها العمران وتتطور إلى ماهى عليه اليوم. وللقرية سحرها الخاص الذى يجعلها من أحب معالم الجزيرة إلى السياح!.

.. فإذا بلغتها ألفيت سطح الماء عندها- على الشاطىء الجنوبى من شواطىء الجزيرة - «مغطى» بعدد لا يدركه الحصر من القوارب التى يأوى إليها أصحابها وعائلاتهم، ويقضون فيها حياتهم كلها.. وفى كل قارب منها «تجويف» تنام فيه العائلة، ومنضدة يأكلون عليها، ومكان يطهون فيه طعامهم، وهكذا .. ويحمل إليهم الماء الصالح للشرب كل يوم بواسطة قوارب متجولة مخصصة لذلك. وبين تلك الآلات من القوارب أقيمت بضع عوامات كبيرة فاخرة تستخدم كمطاعم عائمة للسائحين.. ولعلك رأيت فى الفيلم السينمائى الذى حدثتك عنه منذ حين منظرا لبطليه وهما يتناولان العشاء فى أحد هذه المطاعم.. فإذا نزلت من السيارة فى قرية (أبردين) أحاطت بك مجموعة من الفتيات يرتدين القبعة القش العريضة والبنطلون، وراحت كل واحدة منهن تدعوك لتستقل زورقها دون سواه، كى تحملك إلى المطعم العائم الذى تعمل لحسابه. ويطلقون على تلك الزوارق هناك بالانجليزية كلمة (سامبان)، وعلى أولئك الفتيات (Sampan Girls) وهن يتقاضين أجرا لنقل الراكب لا يزيد على قرشين أو ثلاثة (بالعملة المصرية).

وقد يأخذك الزورق فى نزهة حول الخليج إذا أردت، مقابل أجر اضافى. وتقتصر مهنة النقل بتلك الزوارق على الفتيات اللواتى دون سن العشرين، واللواتى يساهمن بايرادهن الضئيل من هذا العمل فى اعالة عائلاتهن الكبيرة العدد. ويدهشك أن ترى الفتاة النحيلة منهن - (والصينيات على وجه العموم نحيلات الأجسام)- تقود زورقها البالغ من الطول نحو سبعة أمتار، وتحرك مجدافها الذى لا يقل طوله عن خمسة أمتار، فى حركة دائرية شبه آلية، بقوة ونشاط ملحوظين!

.. فإذا بلغت المطعم العائم، الفيته يتألف من طابقين، وقد انتثرت فى جنباته قطع الأثاث والرياش ذات الطابع الغربى، واضاءته مصابيح «الفلورسنت».. وهناك تنتقى بنفسك السمكة التى تحب أن تطهى لك، من سلال

معلقة خارج جدار المطعم ومدلاة إلى نصفها فى الماء. وبعد أن تلتقط السمكة التى يقع عليها اختيارك، أو الجمبرى، أو سرطان البحر.. الخ ، تستطيع أن تقف إلى جوار الطاهى كى تتابع عن كثب عملية الطهو، بالطريقة الصينية..

وفيما أنت تتناول طعامك على مائدة نظيفة كما لو كنت فى أفخر مطعم، تدير بصرك فيما حولك، داخل العائمة وخارجها، فإذا أنت تعيش فى جو اختلطت فيه أحدث وسائل الراحة، بأقدم سبل العيش وأكثرها بدائية!

وتسأل عن حياة أهل القرية، ومواردهم من صيد الأسماك، فتعلم أن منهم من أثرى من هذه المهنة حتى بات يستخدم عددا من الصيادين لحسابه الخاص.. ومنهم من أقام بماله مطاعم عائمة من هذا الطراز لاستقبال السائحين. وتعلم أن أسطول صيد السمك فى هونج كونج يتألف من نحو ستة آلاف سفينة وزورق، من جميع الأحجام، ينطلق أكثرها حائما حول مياه الجزيرة سعيا وراء صيد من الأسماك والأحياء البحرية يكفى سواه للاستهلاك المحلى أو للتصدير إلى الخاج .. ويشير لك محدثك إلى أنوار السفن والزوارق التى هامت على وجهها، على مرمى البصر، تبحث عن الزورق الحلال فى أعماق البحار..

ثم تدير بصرك إلى ظلال الأضواء الخافتة التى تتراقص حولك على صفحة الماء، منعكسة من آلاف القوارب التى أخلد سكانها للنعاس، أو أوشكوا..

فإذا فرغت من تناول عشائك فى هذا الجو الحالم، فتعال نناد إحدى فتيات (السامبان) كى تقلنا إلى الشاطئ حيث نركب السيارة عائدين إلى السفح الشمالى للجزيرة، المواجه لتوأمها (اكولون)، فنبلغه بعد نحو عشرين دقيقة، عبر طريق ثعبانية ملساء تتلوى بنا بين الغابات والروابى والقصور الهاجعة فى أحضان حدائقها الغناء.

خلية النحل .. ونماذج من الأسعار!

فإذا بلغنا المدينة الراقدة عند السفح، ألفيناها تموج بالحركة الصاخبة، والأنوار.. هل تود أن تقوم بجولة على الأقدام فى شوارعها الرئيسية، ومتاجرها؟ لا بأس، فالساعة الآن لم تجاوز الثامنة والنصف، ومتاجر هونج كونج لا تغلق أبوابها قبل التاسعة، والتاسعة والنصف..

ها نحن فى الشارع الأكثر ازدحاما بالمارة، وبالحوانيت، والمطاعم، والملاهى. انه يدعى «كوينز رود»، أى «طريق الملكة»، وهو أشبه بخلية نحل دائمة الطنين.. رصيفاه يعجان بالمارة، من أهل الجزيرة والسائحين، من جميع الأقطار: الصينى، والأمريكى والهندية وبنت السويد!..

الكل يتكالبون على البضاعة الرخيصة، ويخرجون من متجر ليدخلوا المتجر الذى يجاوره.. والمتاجر نفسها متعددة الجنسيات: هذا متجر «هوايتواى» الانجليزى، الذى يبيع لك أحذية لندن بجنيهين وثلاثة، وقميص «أرو» المشهور بمائة وعشرين قرشا!.. وهذا متجر «موهان» الهندى، الذى ينافسه فيعطيك «البولوفر» الانجليزى المصنوع من وبر الجمل بجنيهين ونصف، وإذا ابتعت منه بنحو سبعة جنيهات أو ثمانية أعطاك حقيبة كبيرة من «الفيبر»، عليها من الداخل اسم المحل، كتذكار!..

وذاك متجر ثالث لأجهزة الراديو وما شابهها، يبيعك جهاز التسجيل الألمانى المشهور «جروندج»- بثمانين جنيها، وهو يباع فى ألمانيا ذاتها بمائة وثلاثين!.. ومحل رابع يعرض قلم الحبر الأمريكى ماركة «شفيرز» بأربعة جنيهات، وهو فى نيويورك نفسها يساوى ثمانية!.. والساعات السويسرية تباع بأسعار زهيدة.. والثلاجات الأمريكية بنصف ثمنها فى أى بلد آخر!.. والسيارة «المرسيدس» الفاخرة بثمانمائة جنيه!..

والمتر من أغلى الأصواف الانجليزية بثلاثة جنيهات أو أربعة على الأكثر، ويأخذ «ترزى» المحل مقاسك فورا ليرد إليك القماش بعد ٢٤ ساعة سترة كاملة مفصلة أحسن تفصيل، يبز حياكة أشهر ترزى عالمى.

و«ترزية» هونج كونج يصعدون إلى سطح البواخر العابرة المقدر لها أن تبقى فى الميناء يوما أو يومين، فيعرضون على الراكب عينة القماش ويأخذون مقاسه ثم يسلمون «البذلة» إليه فى اليوم التالى قبل أن تقلع به الباخرة!.

والتحف الصينية الثمينة، والحرير الصينى، والمفارش واشغال الأبرة، تباع بأرخص من سعرها فى الصين.. واسطوانات بيتهوفن وباخ وتشايكوفسكى -الطويلة المدى- تباع بمائة وعشرين قرشا للاسطوانة .. وآلة التصوير «الرولى فليكس»، بأربعين جنيها.. وخلاط الفواكة الكهربائى بعشرة جنيهات!.. إلى أمثلة أخرى لا حصر لها لأسعار السلع الخيالية فى هذا الميناء الحر الذى لا شبيه له فى العالم.

والآن، وقد أغلقت المتاجر أبوابها، يخلى طلاب الشراء المنهومون مكانهم من أرصفة الشارع الكبير لفئة أخرى، تتزايد بالتدريج، هى فئة طلاب السهرات والملاهى.. ترى ما هى برامج الملاهى الليلية؟ فى هذه المستعمرة العجيبة؟ وأين تحب أن تقضى السهرة؟

فى الأوبرا؟ .. كلا، فما دمنا فى طريقنا إلى بكين ومدن الصين الكبرى فخير لنا أن نرجىء سهرتنا فى الأوبرا إلى المناسبات القادمة، كى نرى فن الأوبرا الصينى فى موطنه الأصيل، فان فرق الأوبرا فى هونج كونج لا تقاس فى عراقة فنها إلى زميلاتها من الفرق «المتعددة» التابعة لأوبرا بكين، سواء منها الفرق المقيمة التى تمثل رواياتها على مسارح العاصمة الصينية ذاتها، أو الفرق المتنقلة التى تقدم برامجها على مسارح الأوبرا فى (شنغهاى) و(نانكنج) و(كانتون) وغيرها من مدن الصين.

وإذن فلكى نتزود بفكرة «صادقة» عن سهرات هونج كونج التقليدية، تعال نقم بجولة بين أشهر ملاهيها الليلية، فنقضى فى كل منها فترة قصيرة نلم فيها بألوان الفن التى تعرض فيها، وأعنى بذلك: الفن الصينى المحلى، لا الفن الأوروبى الذى نستطيع أن نراه فى أى بلد آخر.

شارع الملاهى

وقبل أن نبدأ سهرتنا، ما أحوجنا إلى شراب منبه يعيننا على مغالبة التعب، وينشط أذهاننا. هل لك فى قدح من القهوة المصرية - أو التركية كما يطلقون عليها - فى هذا المطعم الباريسى الأنيق ؟ أنه يسمى «باريزيان جريل» ويختصرونها إلى (P.G.) - وقد اكتشفته حين دعانى صديق هندى للغداء فيه، قائلا أنه أشهر مطاعم المدينة وأجودها طعاما، وأرقاها روادا.. وعجبت لقوله حين وجدته يقودنى إلى طريق جانبى ضيق متفرع من الشارع الكبير..

لكنى لم أكد أدفع الباب الزجاجى وأدخل فى أثر صاحبى حتى خيل إلى أننى حقا فى أحد مطاعم باريس التقليدية : السقف المنخفض، والجدران الحمراء الداكنة، وفى مواجهة الباب لوحة من نوع لوحات «لتولوز لوتريك» فى (الطاحونة الحمراء)!.. والسقاة برشاقتهم الفرنسية، والمناضد بتنسيقها الجميل وورودها..

وقد امتلأ المكان بوجوه توحى بأن صاحباتها وأصحابها هن وهم بالفعل صفوة أهل المجتمع الراقى فى المدينة.. وفوق البار كتب على الحائط المثل الفرنسى المأثور : «وجبة بغير خمر، أشبه بيوم لم تشرق له شمس!».

وبعد أن أخذنا مكاننا إلى إحدى المناضد، اقترح على صديقى أن أجرب الطبق الروسى الذى اشتهر المطعم بتقديمه : وهو نوع من الدجاج المخلى من العظام، محشو بالبطاطس والجبن والخضروات!.. وقد وجدته بالفعل طبقا شهيا

للغاية، بعيدا كل البعد عن الأطعمة رالأوربية أو الشرقية المألوفة. وحين فرغنا من الطعام قال لى صديقى الهندى أنه سيفاجئنى مفاجأة سارة لا تخطر ببالى!..

ثم نادى الساقى وطلب إليه أن يجيئنى بقدح من القهوة التركية ! وأيقنت أن الرجل سيقدم لى شيئا لا طعم له ولا رائحة، زاعما أنه القهوة التركية !

لكن دهشتى تضاعفت حين جاءنى بقدح أمتع وألذ من أى قدح نشربه فى مقاهى القاهرة، وكان السخاء باديا للعيان فى حجم الفنجان وكثافة الزبد الذى يطفو على سطحه! وكم تظن كان سعر القدح الضخم ؟.. ستة قروش فقط!..

أما طبق الدجاج «الروسى» فكان ثمنه نحو خمسين قرشا، وهو مبلغ لا يقاس عليه إذا أريد معرفة نفقات المعيشة فئ الجزيرة، ففى مواجهة ذلك المطعم مطعم آخر اسمه A.B.C يقدم وجبة العشاء الكاملة بما فى ذلك الحساء والسمك بأربعة وعشرين قرشا فقط.

مطعم للمعدة .. و مطعم للذهن !

وفى هونج كونج عدد لا حصر له من المطاعم، من جميع الدرجات والأنواع، بعضها أوربى الجو، مكيف الهواء، وبعضها صينى الطابع، أو هندى السمات.. ومنا ما يقدم الأطعمة الأوربية وحدها، وما يقدم الأطعمة الأوربية والصينية معا، حسب الطلب، ومنها ما يقدم الأطعمة الصينية وحدها. وقد تكون مشوقا إلى معرفة ألوان هذه الأخيرة -وطريقة تناولها بالعصى الخشبية !- غير أنى أوثر ارجاء هذا الحديث حتى يجيء أوانه الطبيعى عند وصولنا إلى (كانتون) و(بكين)، حيث نتناول الطعام الصينى الأصيل!.

هل فرغت من تذوق قدح القهوة التركية، واستمرأت نكهته، وانتعشت للسهرة؟ إذن هيا بنا نغادر المطعم الباريسى لنبدأ جولتنا فى شارع الملاهى..

ولكن مهلا، ما هذا ؟ «فرش» ضخم للكتب والمجلات العالمية من جميع الأنواع، أقيم على رفوف خشبية بجوار الباب الخارجى للمطعم. يالها من تشكيلة ضخمة، أشهى منظرا من الطعام الذى فى الداخل!.. حتى لتغرينى بالتوقف أمامها أكثر من نصف ساعة، اتصفح وأقلب، ثم أنتقى مجموعة شائقة من الكتب وأمضى.

والآن، بأى ملهى تود أن نبدأ جولتنا؟.. هذه لافتة مضاءة تعلن عن برنامج صينى، والملهى فى الطابق السادس، فلنستقل المصعد، وندخل إلى قاعة مكيفة الهواء، خافتة الضوء، فى صدرها لوحة كبرى لامرأة عارية، داخل اطار زجاجى، وتحتها جوقة موسيقية، وفنانة صينية تغنى ، بالانجليزية، أغانى دافئة. انه إذن برنامج «أنجلو – صينى!» ..

ونجلس على أريكة فى مقصورة جانبية، وتقبل فتاة صينية رقيقة المحيا، قد تدلت على كتفيها ضفيرتا شعر، وحملت منه ما يروقك، على ضوء بطارية رشيقة فى يدها. ويقبل فى أثرها كبير السقاة يعرض عليك أن يرسل إليك فتاة تجالسك؟ .. وتعتذر إليه بأنك لن تطيل البقاء فى المكان.. وترى على قيد خطوات منك شابا وفتاة يتبادلان القبلات على مرأى من الجميع، دون أدنى حرج.. أهذا هو البرنامج الصينى المزعوم ؟

فلنخرج من هذا الملهى إلى سواه، سيما وأن اقوم هناك لا يتقاضون تذكرة عند الدخول – كما هو الحال فى سائر البلاد – فضلا عن أنهم والحق يقال معتدلون للغاية فى أسعار الطلبات.. ونمضى إلى ملهى آخر يجاوره.. ثم ثالث.. ثم رابع.. فخامس .. الخ .. فنقضى فى كل منها ربع ساعة، ريثما نسمع أغنية أو نشاهد رقصة، ونحن نلقى نظرات فاحصة على جو المكان: على الديكور، والزخرفة، والاضاءة، وطريقة الخدمة، والسحن المتفاوتة للحاضرين -من شتى الجنسيات والأقطار- ثم نخرج من هذه الجولة بين عشرات الملاهى، وفى كل من الجزيرة وكاولون بدل العشرات مئات!.

نخرج بفكرة واضحة محددة : ان هونج كونج شيء، والصين شيء آخر! هنا فنون سطحية، اختلطت فيها السمات الصينية بالأوربية فضاعت هذه فى غمار تلك!.. فنون تصنع صناعة ، بغية جلب السياح وامتاع غالبيتهم العابرة التى تنشد مجرد التسلية. ومن أجل هذا نثروا فى كل ملهى عشرات من الحسان ذوات السحنة الصينية والأثواب الأنيقة المشقوقة، لكل طالب صيد على طريقة البحارة الذين يحبون أن يتزودوا من كل ميناء بمغامرة، وذكريات!..

ومن فاض عن حاجة هذه الملاهى من الحسان خرج إلى الطريق يعترض طريقك أمام أبواب الفنادق والحوانيت، ليدعوك إلى غرفته أو غرفتك.. ولو أتيح لى أن أكتب إليك يومئذ رسالة من هونج كونج ذاتها، لكنت أطلق عليها (باريس الشرق الأقصى، فقد كانت المفارقة شاسعة - فى ميدان اللهو- بينها وبين مدن الهند، أو حتى بينها وبين القاهرة - (وسوف ترى أن المفارقة ستكون أشد وأبعد مدى بينها وبين مدن الصين الشعبية، بلا استثناء) - لكنى أعود الآن فأجرد هونج كونج من هذا اللقب الذى يشبهها بباريس، بل أنى أخلع عن باريس ذاتها - دون تردد - هذا الثوب الذى اشتهرت به، ثوب التحرر من كل قيد فى باب العلاقات بين الجنسين.. فان باريس خليقة بأى تعتبر فى نظر طلاب اللهو «معبدا»، وهونج كونج «سجنا»، بالقياس إلى طوكيو!

الفصل الثاني :

اليـابـــان

أعلم أنها مفاجأة بالنسبة لك، لكنها كانت مفاجأة أشد وقعا بالنسبة لى.. فأنت حين تزور طوكيو من – بعد عودتنا من الصين باذن الله – سوف تكون مهيأ لهذه المفاجأة بعض الشىء، بعد أن آثرت أن أمهد ذهنك لها الآن بهذه السطور، تخفيفا لحدتها، أو – بلغة الأطباء – تحصينا لك منها بجرعة مخففة، تكون بمثابة المصل الواقى!..

أما بالنسبة لى ، فقد أدهشتنى المفاجأة – التى لم تكن لها مقدمات – إلى حد جعلنى أتخذها موضوعا للدراسة، أسأل فيه وأناقش كل من توسمت فيه القدرة على تفسير هذه الظاهرة التى حيرتنى، وهى : كيف استطاع شعب اليابان أن يجمع، فى آن واحد، بين هذا الاغراق الهائل فى اللهو والمتعة، إلى حد التحرر من كل قيد.. وبين ذاك الاغراق -الهائل أيضا- فى الجد والعمل والانتاج؟!

لقد بدا لى الأمر لغزا جديرا بالدراسة كما قدمت – (رغم أنى لست من المتزمتين بحال، بل أنى أعد نفسى من دعاة التحرر من كثير من التقاليد، والتمرد على كثير من الأوضاع !) – ولكن ما رأيته فى طوكيو فاق نزعتى التحررية بمراحل، وسبقها بأميال، بل لم لا أقول أنه صدمها وحيرها، فذهبت أسأل، وأبحث، وأنقب، عن تفسير لهذا اللغز : كيف استطاع شعب اليابان أن يلهو دون وعى ودون حدود حتى الصباح.. ثم يعمل وينتج ويجد، دون وعى ودون حدود أيضا، من الصباح حتى المساء؟!

كيف استطاع هذا الشعب العجيب أن يطفر -فى ميادين العلم والصناعة، بل والحرب!- هذه الطفرات الجبارة التى أذهلت العالم، دون أن يحرم نفسه من

سبب من أسباب المتعة؟ .. بل كيف استطاع ، وهو على هذه الحال من التحرر المطلق، أن يسبق شعوب العالم قاطبة فى ميدان الطب الجراحى، كما أكد لى طبيب من (بورتو ريكو) بأمريكا الوسطى -هو الدكتور «بنارو باربراس»- وكان قادما لتوه من حضور مؤتمر عالمى للجراحة عقد فى هونولولو فى أواخر نوفمبر الماضى؟! (وقد شهدت مصداق قوله فى قاعة العمليات بمستشفى كلية الطب فى طوكيو، حين حضرت فيها جراحة خطيرة أجريت فى القلب!).

لقد وجهت هذه الأسئلة إلى كثيرين من اليابانيين الذين التقيت بهم فى طوكيو.. وجهتها إلى الأديب «ايشيروكابينا» الذى كتب أول دراسة جدية مزودة بالأسانيد التاريخية والاستقراءات الاجتماعية لنظام فتيات «الجيشا» فى اليابان، اللاتى يلتحقن بمدارس خاصة لمدة خمس سنوات، تمهيدا لاحترافهن مهنة الترفيه عن الرجال، بالغناء والرقص والعزف على القيثارة اليابانية التى يطلقون عليها SAMISEN .

ووجهت الأسئلة ذاتها إلى الصحفى والكاتب «ربوسوكى هوندا» مدير وكالة JAPAN PRESS، وإلى الفنانة ممثلة المسرح اليابانية الكبيرة «تيروكو كيشى»، حين تعرفت بهما فى الندوة التى أعقبت الاحتفال الكبير الذى دعتنا إليه الجمعية اليابانية للتضامن الآسيوى فى دارها بطوكيو مساء ٢٧ اكتوبر الماضى.

ووجهت نفس الأسئلة إلى المالى الكبير صاحب مصانع النسيج «ج. و . امبلر»، الذى التقيت به فى الطائرة أثناء عودتى من طوكيو، فتحدثنا فى هذا الموضوع طويلا.

لقد رأيت فى طوكيو – وعلى الأخص فى حى (جنزا) المشهور بمتاجره العالمية الضخمة وملاهيه التى لا تقع تحت حصر- «عشرات» الشوارع الكبرى التى تسير فيها السيارة نحو نصف ساعة دون أن تنحرف، بين صفين من

الأبنية المضاءة بأنوار الفلورسنت والنيون المتراقصة بلا انقطاع.. وفى كل شارع منها، وكل بقعة من كل شارع، تجد بين كل ملهى وملهى، ملهى ثالث!..

هذا تصعد إليه بسلم ضيق طويل، وبجواره آخر تهبط إليه من الشارع بسلم ضيق طويل!.. وثالث تدخله خلال باب واسع عريض، شأن الملاهى العصرية.. ورابع تحسبه مطعما فإذا دخلت الفيته ملهى!.. وخامس تظنه حانوتا فإذا دخلت وجدته ملهى!.. وسادس تخاله بيتا فإذا دخلت ظهر أنه بدوره .. ملهى!..

وقد أحصيت مرة عدد الملاهى فى مسافة من الطريق لا تزيد عن المائة متر، فبلغ خمسة وأربعين ملهى!.. ولا تعجب، فان أبواب الكثير من الملاهى اليابانية القديمة لا يزيد عرضها عن متر واحد، بحيث لا يتسع لمرور شخصين فى وقت واحد.. وقد خرجت من هذا الاحصاء بأن فى طوكيو وحدها لا أقل من عشرة آلاف ملهى، ان لم تزد.

فأنت تسير فى هذه الشوارع أميالا، وتنفق من الوقت ساعات، دون أن تنقطع لافتات الملاهى وعلب الليل من كل لون يخطر على البال: هذا على الطراز اليابانى تستقبلك فيه حسان يرتدين ثيابهن التقليدية ويجلسن على حشيات ناعمة على الأرض.. وذاك أشبه بالبار المضاء بأنوار خافتة، وقد جلست فيه النساء اليابانيات فى ثياب أوربية، ولكن عاريات الصدور تماما! (وأكثر راقصات كازينوات اليابان يرقصن هكذا؟)..

وهذا كباريه عصرى ضخم أشبه بقصر من البللور الأزرق والأحمر والأسود، تجتاز بابه فإذا أنت أمام معجزة من معجزات التصميم والزخرفة لم أر لها مثيلا فى أية عاصمة أوربية زرتها.. فقد جلست جوقة الموسيقى على منصة مستديرة معلقة فى منتصف المسافة بين الطابق الأرضى وسقف الطابق

الخامس للملهى، كأنها «نجفة» مدلاة من السقف، وحولها خمسة طوابق من الشرفات الدائرية التى جلس فيها رواد الملهى.

وإلى جانب الملاهى التى من نوع الكباريهات وعلب الليل، توجد فى طوكيو مئات المسارح ودور الأوبرا وصالات الاستعراض والميوزيكهول (التى يفوق بعضها استعراضات «الفولى برجير» بباريس!)، ثم قاعات الموسيقى الكلاسيكية ومسارح الفن اليابانى القديم المسمى «كابوكى».. والمطاعم والحانات الخاصة التابعة لكبريات الشركات والمؤسسات اليابانية، التى تقوم فيها فتيات (الجيشا) بخدمة روادها والترفيه عنهم بالرقص والغناء والعزف على القيثار.

وهناك الحمامات اليابانية الفريدة فى نوعها (وعددها فى طوكيو وحدها ١٨ حماما كبيرا، يتألف كل منها من مبنى يشبه العمارة الضخمة ، يضم المئات من غرف الحمام الصغيرة، ويطلقون على هذه الحمامات اسم «أونسن»). وفى هذه الحمامات تجد الفتيات اللواتى يرتدين زيا أشبه بلباس البحر «البكينى» المؤلف من قطعتين، يقمن باعطائك حمام البخار التمهيدى، ثم يغسلن لك جسمك بالماء والصابون، وبعدئذ تأتى مرحلة تدليك الجسم، ظهرا لبطن، بطريقتهن الخاصة التى يدرسنها فى معاهد خصصت لذلك.

بل أن التدليك بمعرفة فتيات محترفات لهذه المهنة لا يقتصر فى اليابان على الحمامات، وإنما هو نظام شائع فى الفنادق، حيث تستطيع فى أى وقت تشعر فيه بشىء من التعب أو البرد، أن تدق الجرس لتطلب من خادمة الفندق أن ترسل إليك فى غرفتك فتاة من المخصصات للتدليك، ويطلقون عليهن: Massage Girls،

فلا تمضى دقائق حتى تدخل عليك فتاة لا تزيد سنها عن ثمانية عشر عاما، مرتدية زيا أنيقا سماوى اللون، وحذاء من المطاط ناصع البياض، تحمل فى يدها علبة «بودرة» صغيرة، فتأخذ فى تدليك جسمك - وأنت مرتد ثيابك

الداخلية فى هذه المرة – مبتدئة من الكتفين، إلى الذراعين، والظهر، فالساقين. ويتقاضى الفندق عن عملية التدليك هذه ٣٥٠ «ين» بعملة اليابان، أى خمسة وثلاثين قرشا مصريا.

ومن أغرب ملاهى طوكيو أيضا ملهى «سفينة الاستعراض»، ويتألف من ثلاثة طوابق، انتشرت فيها نحو ثلاثمائة فتاة يرتدين ما يشبه مايوه الاستحمام، ولا تكاد تدخل من الباب حتى يتزاحم عليك عدد منهن، كل تبغى أن تجالسك أو تراقصك وتقضى السهرة معك. وفى ملاهى طوكيو نظام شائع هو نظام «المضيفة»، الذى يتيح لك أن كنت وحيدا أن تنتقى من تروقك من بين عشرات الحسان الفاتنات الأنيقات المخصصات لذلك، كى تجالسك وتؤنس وحدتك طيلة السهرة، مقابل مبلغ ألف «ين» – أى جنيه مصرى – دون أن تفرض عليك مشروبا غالى الثمن كما تفعل «الأرتيست» فى سائر بلاد العالم الأخرى.

فإذا خرجت إلى أى شارع من شوارع اللهو فى طوكيو، أو وقفت لحظات أمام أى ملهى، أو فندق، فلابد أن يتقدم منك شاب حسن المظهر، يعرض عليك – بغير مقدمات أو مواربة – أن يقودك إلى بيت من بيوت الدعارة، أو إلى حيث تتفرج على «مشهد خاص» من مشاهد الشذوذ الجنسى، أو المشاهد الجنسية الطبيعية، أو الأفلام الجنسية المثيرة !.. الخ.

إلى هذا الحد تمارس الإباحة الجنسية فى اليابان، بلا قيود، ولا حدود، من أى نوع كانت !.. فلا منع ولا تحريم لأى لون من ألوان المتع التى تدخل فى هذا الباب .. والفنادق مفتوحة على مصراعيها لأى رجل وامرأة، دون أدنى تدخل أو تعرض لحقيقة العلاقة بينهما أو مداها..

ونساء الطريق منتشرات فى كل خطوة، وأما كل فندق وملهى، يعرضن أنفسهن على كل عابر، قبل أن يلقى اليهن نظرة أو تحية.. وبيوت البغاء فى حى (يوشيوارا) متراصة على جانبى الشوارع، تشرف عليها الدولة من الناحية

الصحية، وتصرح بها- (ولعل هذه أهون الظواهر التى تشهدها فى اليابان، فى هذا الباب، إذ تشاركها فيها الكثير من دول العالم وعواصمه، وفى مقدمتها (روما) عاصمة الفاتيكان - والقوادون إلى بيوت الدعارة والشذوذ ينتشرون فى الشوارع الكبرى بشكل غريب ملحوظ، بحيث لا تسير مائة خطوة الا ويستوقفك واحد منهم.. الأمر الذى لا يحدث فى (باريس) نفسها إلا فى النادر - فلقد قضيت فى باريس عشرة أيام، لم يعترضنى خلالها من تجار الشذوذ غير شخص واحد، فى ميدان (بيجال).. أما فى طوكيو، فخلال الأيام الثمانية التى قضيتها فيها، اعترض سبيلى نحو ثلاثين أو أربعين من هؤلاء!..

بل لقد وقع لى ما هو أعجب من ذلك، حين كنت أعبر الميدان المواجه لفندق (نيكاتسو)، وهو من أكبر فنادق المدينة، وكان ذلك فى الساعة السابعة مساء - وليس فى الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل مثلا!- إذ اعترضنى شاب يبغى التحدث إلى ، فأدركت أنه سيعيد على سمعى نفس «الاسطوانة» التى سمعتها مرارا من سواه.

فلم أعبأ به وهممت بمواصلة المسير، وإذ ذاك بادر يوضح لى أننى أخطأت ولم أفهم قصده الحقيقى، فانه ليس قوادا- لا سمح الله !- كما تبادر إلى ذهنى ولا شك، وإنما هو «فتى مخنث»، أو على حد تعبيره بالنص GAY BOY، يمارس الشذوذ ولا يرشد إليه ! (ويرحم الله مخنثى (نابولى المشهورينوقواديها!).

ومرة أخرى أتساءل، وأدعو علماء النفس وعلماء الاجتماع إلى الإدلاء برأيهم فى هذا اللغز العجيب :كيف استطاع اليابانيون أن يجمعوا بين المغالاة فى اللهو، وبين التفوق الهائل فى العمل، فى وقت واح؟!.. هل يرجع ذلك إلى استعداد خاص فيهم، وعبقرية جبارة، غير عادية؟

وكيف كان يكون انتاجهم فى العمل، لو عاشوا فى ظل حكم يفرض عليهم التقشف الكامل والحرمان من كل أسباب اللهو الرخيص، كما هى الحال فى الصين الشعبية مثلا؟

هل كان نهوضهم يكون أقوى وأعظم، أم لعله - ومن يدرى !- كان عندئذ يتناقص؟.. وهل يختلف تأثير اللهو على العمل، بين شعب وشعب - طردا وعكسا- أم أن للأمر قاعدة وقانونا ثابتين، يقضيان بأن الاغراق فى اللهو يؤدى إلى النقص فى الانتاج، وإلى الانحلال الخلقى.. والعكس بالعكس؟ .

الواقع أن المشكلة ليست بالسهولة التى تتبادر إلى الذهن لأول وهلة، فالثابت أن هناك شعوبا -كالشعب الفرنسى مثلا- أدى بها اللهو إلى الانحلال.. والقاعدة ذاتها تسرى على الصين، التى نهضت فى ظل التقشف الحالى نهضة جبارة .

فهل شعب فرنسا وشعب الصين من طينة، وشعب اليابان من طينة أخرى، بمعنى أن لكل شعب طبيعته الخاصة، وظروفه، وبيئته، وميوله، التى تفرض عليه اتجاها معينا، قد لا يصلح لغيره، أو قد يؤدى بهذا الغير إلى عكس النتيجة التى أدى بهو هو إليها؟..

ان صح هذا فأنا أدعو علماء النفس والاجتماع فى كل دولة إلى أن يدرسوا طبيعة شعبها، ليقرروا مدى الحرية التى ينبغى أن يمنحها، ونوع النظام الاجتماعى الذى يصلح له، وينهض به.

أسمعك توشك أن تقاطعنى بقولك أن اباحة هذا الاغراق فى اللهو قد تكون شيئا جديدا على اليابان، أدخلته عليها السيطرة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، ربما لتبذر فيها بذور الانحلال، وتستريح من منافستها لها فى التجارة، ومنازاتها لها فى الحرب!.. ويتفرع عن ذلك أن هذا الاتجاه الجديد قد

يكون عاق عجلة التقدم فى اليابان، وعرقل نهوضها الذى أذهل العالم قبل الحرب الأخيرة!

لكنى أبادر فأنفى هذا الظن، وأبعد هذه الفكرة عن نطاق البحث، بعد أن خطر ببالى هذا الاحتمال وتبينت عدم صحته .. للأسباب الآتية :

أولا: أن الشوارع الرئيسية، التى تتزاحم فيها أبواب دور اللهو بالمناكب، لم تشق وتنشأ حديثا، وأنما هى شوارع أنشئت منذ عهد بعيد، و٩٠ فى المائة من ملاهيها قديمة البناء والطراز -من الخارج- وقد أقيمت منذ عشرات السنين، قبل الاحتلال الأمريكى.

ثانيا: ان هذا الاغراق فى اللهو لا يمكن أن يكون من صنع أمريكا أو من وحيها، لأن أقوى جيش احتلال فى العالم لا يستطيع، مهما بلغت سطوته، أن يفرض على شعب من الشعوب مسلكا اجتماعيا معينا، أو اتجاها ليس من طبعه![1].. فضلا عن أن اباحة اللهو على هذه الصورة ليست معروفة فى أمريكا ذاتها، أو فى أية دولة أخرى من دول الغرب.. أو الشرق!

ثالثا: ان هذا العدد الضخم من دور الملاهى لا «يعيش» على رواد أمريكيين، بل أن نسبة هؤلاء بين رواده ضئيلة لا تذكر، وإنما غالبية الذين يترددون على كباريهات طوكيو يابانيون، أو سائحون من دول أخرى غير أمريكا.. وبهذه المناسبة فانك لا تلحظ فى طوكيو أثرا للأمريكيين، سواء العسكريين أو المدنيين، لا فى الشوارع ولا فى الملاهى ولا فى المجتمعات..

ولا تكاد عينك تقع على نفر منهم الا فى الفنادق ليلة الأحد، حين يخرجون من ثكناتهم البعيدة ليقضون يوم عطلتهم الأسبوعية. وقد عدت من طوكيو مقتنعا

---

(١) هذا الكلام فيه نظر ، لأن الاحتلال يعمل على إفساد الشعوب خاصة الشباب كما حدث من الاحتلال الانجليزى لمصر وغيرها إذ شجع اللغة الانجليزية على حساب اللغة العربية وألغى قوانين الشريعة وأباح الدعارة والشذوذ الجنسى وغير ذلك من المخازى .

بأن الاحتلال الأمريكى لم يستطع أن يتغلغل إلى ما وراء نطاقه السياسى، فلم يترك فى القومية اليابانية أو المجتمع اليابانى - بتقاليده الموروثة - أى أثر ملحوظ.

رابعا: أن هذه الصور من الاباحة، فيما بدا لى، متأصلة فى صميم الطبع اليابانى الموروث، فهى جزء من تقاليدهم وتراثهم، لا يرون فيه أى غضاضة أو وجه للاستغراب، بل أكاد أشعر أنهم يعتزون بحريتهم الشخصية فى هذا المضمار، ويفخرون بها.. سيما وأنها لا تؤثر فى كيان الأسرة أو تصيبه بأى تصدع أو انحلال، بالمعنى المفهوم، فالأسرة عندهم -فيما سمعت- بخير، لها احترامها وحصانتها، والزوجة مخلصة لزوجها، تحبه وتطيعه.

والزوج يحب زوجته وأولاده، ويوفر لهم كل مطالبهم، المادية والمعنوية.. إلا أن تضطره متاعب الحياة إلى أن ينشد لنفسه السلوى، أو ينشد لأعصابه الراحة، فى رفقة فنانة من فتيات (الجيشا) تغنى له بصوتها العذب وهى تعزف على القيثار، أو ترقص له رقصة كلاسيكية رفيع، لها أصول و«مدارس» .. أو ترفه عنه بقصة أو طرفة ترويها، أو تقدم له الطعام والشراب بيد حانية تفهم متاعب الرجال..

أما هذا كله فشىء آخر، يدعم الأسرة فى نظرهم ولا يهدمها، لأنه يجدد نشاط الرجل ومعنويته، وجلده على العمل والكفاح.. وللقوم فى هذا فلسفة يطول شرحها.

خامسا: وأما فى طوكيو وحدها من نساء الهوى المحترفات قرابة ثلاثة أرباع المليون - (من بين تسعة ملايين نسمة تقطن المدينة التى انتزعت منذ شهر مايو الماضى أولوية التعداد من نيويورك ولندن!) - فذلك أمر قد يكون الغرض منه تشجيع السياحة، والترفيه عن الأجانب - الذين يدرون على خزينة

الدولة دخلا هائلا!- كما قد يكون الغرض منه الترفيه عن اليابانيين أنفسهم.. أو الأمرين معا، لست أدرى..

لكن الذى أستطيع أن أجزم به على أى حال - وهذا يعود بنا إلى اللغز العجيب، أو الحلقة المفرغة!- هو أن الشعب اليابانى رغم هذه السياسة «الترفيهية»، أبعد ما يكون عن الانحلال.. وأنه إذا كان قد استطاع أن يذهل العالم بنهضته السريعة قبل الحرب الأخيرة، فانه اليوم أقوى وأشد نهوضا، وانتاجا، منه فى أى وقت مضى!

لقد زرت فى طوكيو المعاهد والجامعات، والمتاحف - على اختلافها- والمعابد، والمستشفيات، والمطابع، ودور النشر.. وذابت نفسى حسرات وأنا أتنقل بين أقسام أضخم مكتبة فى آسيا، وهى مكتبة (ماروزين) التى لم يخطر ببالك من أنواع الكتب و بشتى اللغات..

وتضاعفت حسرتى وأنا أدخل دار صحيفة (مينيتشى) اليومية، التى تطبع حوالى ثمانية ملايين نسخة يوميا، لا سيما حين وقفت من المشرفين عليها على الحقيقة المزعجة- لنا- التى تقرر أن الوعى «القرائى» والاقبال على شراء الصحف فى اليابان قد بلغ الحد الذى يباع فيه من الصحف اليومية كل يوم نحو ٣٥ مليون نسخة، أى بمعدل نسخة لكل شخصين ونصف شخص من السكان.

.. وزرت فى العاصمة القديمة - (كيوتو)- آثارها، وحدائقها، ومراكز بعض الفنون التطبيقية فيها، كالحفر على الخشب، والرسم على الحرير، كما زرت فيها أقدم مدرسة لتخريج راقصات الجيشا - (ومدة الدراسة فيها خمس سنوات!)- حيث خلعت حذائى على الباب قبل أن يسمح لى بالدخول إلى حرم المعهد العريق الذى انقضت عليه ٣٠٠سنة !..

ثم زرت مشربا للشاى، على الطراز اليابانى، فجلست على الأرض وحضرت «العملية» التقليدية لاعداد الشاى المر وتقديمه مع الحلوى، بعد الانحناء له فى خشوع!.. وفى نهاية اليوم نمت فى حانة يابانية، على فراشهم التقليدى الذى يتألف من خشبة على الأرض ووسادة ملفوفة، محشوة بالقش!.

وفى (أوزاكا) – المركز الصناعى الضخم – زرت مصنعين، أحدهما للنسيج والآخر للمواد الكيميائية، وشهدت مظاهر التقدم الصناعى الجبار، وكانت الطائرة اليابانية السريعة التى أقلتنى بين أوزاكا وطوكيو، مصداقا آخر لهذا التقدم. وفى تلك الطائرة، قرأت فى الصفحة الأولى من صحيفة ذات الصباح، الثانى من ديسمبر، نبأ وشك اقار الحكومة لبرنامج العشر سنوات الخاص بتحسين الطرق والسكك الحديدية والموانىء، وهو برنامج سوف يكلف الدولة ١٧٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ (ألفا وسبعمائة مليون) جنيه مصرى.

والخلاصة ، أننى رأيت وسمعت من مظاهر نهوض الشعب اليابانى، فى ميادين الصناعة.. والتجارة.. والطب.. والعلوم .. والفنون.. والآداب، ما يكذب كل مظنة انحلال، أو تدهور، أو حتى توقف أو تمهل فى النهوض إلى مستوى لا أستطيع التكهن به.

ويبقى اللغز العجيب الذى شرحته لك .. بغير حل!

ومرة أخرى .. أدعو علماء النفس والاجتماع إلى ابداء رأيهم فى هذا الموضوع!

وإلى أن يبدى العلماء رأيهم فى هذا الصدد، أضع أمام اعتبارهم الحقائق الآتية، التى خرجت بها من ملاحظاتى الخاصة ومن مناقشاتى مع من تحدثت إليهم فى هذا الموضوع من قادة الرأى والفكر فى اليابان :

١- أن جرائم الشباب وانحرافاتهم تكاد تكون منعدمة فى اليابان!.. واندر

منها تداول الصور والكتب الجنسية المثيرة التى تكثر عادة حيث يوجد الكبت والحرمان والقيود فى مجال الأمور الجنسية.

٢- اننى لم أر شابا يابانيا «يعاكس» فتاة أو امرأة من المحصنات، فى شارع أو ترام، أو يعمد إلى نظرة، أو حركة، أو تصرف، أو إشارة، فيها بذاءة تخدش الحياء!

٣- ان نسبة من يقبلن على التعليم الجامعى من الفتيات ضئيلة إلى حد ملحوظ، فهى أقل منها فى مصر بكثير، إذ لاتتجاوز هذه النسبة خمسة فى المائة من مجموع عدد طلبة الجامعات.. ومعنى هذا أن المرأة اليابانية أشد رجعية ومحافظة من المرأة المصرية مثلا فى هذا المجال، وأكثر منها تمسكا برسالتها كربة بيت وزوجة تكرس حياتها وطاقتها كلها للعناية ببيتها وزوجها وأطفالها، وتربية جيل سليم الجسم من الأمراض، سليم النفس من العقد والمركبات.

٤- ان اخلاد المرأة لحياة البيت والعائلة، دليل على عدم احتياج البلد لها كيد عاملة اضافية تساهم فى الانتاج، إلى جانب الرجل .. وبالتالى أن طاقة الرجل الانتاجية فى اليابان تفوق طاقة الرجل فى الدول الأخرى المساوية لها فى مستوى الانتاج - وهذا التفوق «يتضاعف» بالمقارنة إلى الدول المتخلفة فى الميدان الانتاجى بطبيعة الحال.

٥- ان هذا التفوق الهائل فى الانتاج، دليل حاسم على ارتفاع المستوى الصحى، والنفسى، والذهنى، للرجل اليابانى.. وبالتالى على حسن تبصر الزوجة اليابانية، والأم اليابانية، ومبلغ تفانيهما فى رعاية الزوج أو الابن، وتهيئة الجو البيتى والعائلى الذى يساعده على زيادة الانتاج.

٦- ودليل آخر على سلامة كيان الأسرة اليابانية، انخفاض نسبة الطلاق بين الأزواج إلى درجة غير عادية.

٧- وحقيقة أخرى تدل على ارتفاع المستوى الصحى والنفسى للشباب اليابانى - علاوة على وفرة الإنتاج- هى ارتفاع نسبة النجاح فى الامتحانات، كما يستفاد هذا الارتفاع من المقارنة بين عدد طلبة الجامعات وعدد خريجيها فى كل عام .

ان كلامى عن اليابان حتى الآن لم يكن سوى استطراد عارض ساقنى إليه الحديث عن اللهو المقترن بالانحلال فى (هونج كونج)، والمقارنة بينه وبين اللهو المقترن بالانتاج فى (طوكيو) .. فهل نخرج من هذه المقارنة بأن اباحة اللهو على مصراعيه ، دون قيود، ليست فى ذاتها عاملا من عوامل الانحلال، وإنما العامل الأولى والأكبر للانحلال فى هونج كونج هو الاستعمار.. كما كان العامل الأول والأكبر للانحلال فى الصين «القديمة» هو الاستعمار أيضا، وفساد الحكم؟

مرة أخرى لا أحب أن اتفرد بالرأى وباصدار «الأحكام» القاطعة فى هذا الموضوع، فلست أزعم اننى خبير أو «اخصائى» اجتماعى أو نفسانى .. وانما أنا كاتب وأديب، عاهد نفسه أن يكتب ما رآه وسمعه على حقيقته ، ويسجل شتى الانطباعات التى تتركها فى نفسه مشاهداته فى كل بلد يزوره، دون زيف، ولا نفاق، ولا مجاملة، ولا مواربة، تاركا للاخصائيين فى كل باب من أبواب البحث أن يخطئوا الاستنتاج الذى يرونه خاطئا، ويؤيدوا الاستقراء الذى يرونه صائبا، حسبما تنتهى إليه أبحاثهم..

فرائدى وفرائدهم واحدا، هو خدمة الوطن العربى: أخدمه أنا بما أنشره عليه من حقائق رأيتها بعينى وسمعتها بأذنى، ويخدمونه هم بالاستعانة بهذه «المادة الخام» التى أقدمها لهم على استكمال أبحاثهم والانتهاء منها إلى اصدار الأحكام وتقرير النتائج!..

والمشكلة فى رأيى من الخطورة والأهمية للشرق العربى، المتحفز إلى النهوض السريع واللحاق بركب التقدم العالمى، أقول أنها من الأهمية والخطورة بحيث تستدعى أن ينشأ لها فى مصر – وفى كل بلد شرقى متخلف – «مجلس أعلى للتوجيه الاجتماعى» ، يضع سياسة مدروسة متعمقة لمدى الحرية الفردية التى تلائم كل شعب وتكفل النهوض به.. بحيث تعطى لهذا المجلس سلطة إعادة النظر فى جميع الأوضاع السارية والقيود المفروضة فى هذا المجال منذ القرن الماضى، وفى عهود الاستعمار – سواء بالتخفيف أو الزيادة، أو التطوير – وفقا لما تنتهى إليه دراساته، وبحوثه واستقراءاته، على ضوء العلم والنظريات الحديثة من جهة.

ومن الجهة الأخرى على ضوء تجارب الحاضر والماضى ، القريب والبعيد – بل وأمثلة التاريخ، القديم والحديث – وبما يتفق وطبيعة الشعب، وظروفه، وبيئته، ونفسيته.. وما يحقق له مستقبلا أفضل، يقوم عى الاستقرار الاجتماعى ، والرخاء الاقتصادى ، والنهوض الصناعى .. الخ.

أخشى أن يكون الاستطراد قد طال، أكثر مما قدرت، فتعال نعود من تحليقتنا المؤقتة فوق اليابان، إلى حيث كنا على وشك عبور الحدود من هونج كونج إلى الصين الشعبية.. لكن ذكر التحليق فوق اليابان يذكرنى بخاطرين آخرين – وكأن الانطباعات تأبى ألا أن تلاحقنا فى كل خطوة !–

فقد حدث أثناء عودتى من طوكيو إلى القاهرة، فى نهاية الرحلة، إن كان بين ركاب الطائرة رجل يابانى، فى نحو الأربعين، لم ألق إليه بالا فى أول الأمر، حتى أفقت من نومى فى ساعة متأخرة من الليل، على صوت خافت، غير عادى.

فإذا صاحبنا قد نهض من مقعده، ثملا، مخمورا، فسار فى ممر الطائرة خطوات، يتعثر، ويتخبط، ويأتى بحركات لا تصدر الا من شخص فاقد

الإدراك!.. ثم يسقط فوق أحد الركاب، وأخيرا يرتطم بالأرض، بلا حراك!- ويبدو أنه كان قد افرط فى الشراب، من زجاجة كان يحتفظ بها فى جيب معطفه.

ودب فى تلك «الكابينة» من الطائرة شيء من الهرج المكتوم، والهمسات، والنظرات المتبادلة بين من استيقظوا من الركاب، دون ازعاج لمن ظلوا نائمين.. وأقبلت مضيفتا الطائرة، على حذر، فراحت كلاهما تحاول ايقاظ المخمور، بالرفق، والحسنى،

ولكن دون جدوى، فاستنجدتا برجل من هيئة الطائرة، تعاون معهما على جر صاحبنا إلى دورة المياه، لعلهم يفلحون فى رده إلى وعيه بسكب بعض الماء على وجهه.. لكنه لم يلبث أن «تكوم» وراء باب التواليت من الداخل، فحال بجسمه بينهم وبين الدخول.. وحين تمكنوا من اقتحام الباب بعد لأى، وجدوه ملقى على أرض الحمام، فى نصف ثيابه، وقد استغرق فى غيبوبته، ناعم البال!.. ولم يجدوا مفرا من تركه هكذا، حتى تهدأ خواطر بعض الركاب الذين كانوا قد تركوا مقاعدهم إلى أماكن أخرى بعيدة، خشية أن يصيبهم منه سوء!..

وفى الصباح، واصلت هيئة الطائرة مهمتها الثقيلة حتى أفاق الرجل وارتدى بقية ثيابه، ثم عاد إلى مقعده مطاطئ الرأس - خجلا- منكس العينين!.. وكم كانت دهشتى حين تطوع أحد الركاب بالكشف عن شخصية صاحبنا، فإذا به من أشهر مهندسى اليابان، وواضع تصميم مطار طوكيو العالمى الرائع!.

وحانت منى - دون قصد- نظرة إلى ظهر المقعد الذى أمامى، وكانت تطل منه نشرة شركة الطيران الهندية الدولية «اير انديا» التى كنا نستقل إحدى

طائراتها الضخمة، فتذكرت للحال مفارقة صارخة : تحريم تناول الخمر فى مدينة (بومباى) بالهند!.. وكان الانتقال مفاجأة عنيفة!

وثمة انتقال آخر، ومفارقة أخرى صارخة، شعرت بها فى نفس الطائرة، بعد أن استرحنا فى مطار هونج كونج ساعة ثم واصلنا السفر فى طريقنا إلى بانجكوك وبومباى ثم القاهرة: ففى هونج كونج غيرت الشركة طاقم مضيفات الطائرة، فاستبدلت اليابانيات اللواتى خدمن الركاب خلال المسافة من طوكيو إلى هونج كونج، بمضيفات أخريات، (هنديات) ..

فلما ركبنا الطائرة بعد فترة الاستراحة القصيرة، شعرت كأننى انتقلت من اليابان إلى الهند فى لحظة!.. وكان انتقالا آخر سريعا، مفاجئا ، عنيفا!.. فرغم أن الطائرة كانت هى نفس اطائرة، والركاب هم نفس الركاب، فقد تغير الجو كله، بتغير المضيفات!.. ذهب المرح، والخفة، والضحكات المنطلقة من قلب خلى.. وجاء الوقار الهادىء الرزين، الصارم، الذى لا يبتسم إلا نصف ابتسامة، وبحساب.

ذهبت العيون الضيقة، المشقوقة، الضاحكة .. وجاءت العيون السوداء، العميقة،الساحرة.

ذهبت المضيفة التى تمازح «طوب الأرض» وتغمز لجدران الطائرة، وتسأل الركاب ان كانوا قد استمتعوا باقامتهم فى طويكو!.. وجاءت المضيفة الجادة، الوقورة، الى يستأذنها أحد الركاب فى أن يلتقط لها صورة وهى تقدم له الطعام، فتقول له : ممنوع!

وكان انتقالا مفاجئا كما ذكرت، ومفارقة صارخة، بين بلدين.. وشعبين.. وعقليتين.. وتاريخين.. وبيئتين.. ونوعين من التقاليد، والعادات، والسمات، التى تكونت ورسخت خلال القرون والسنين

الفصل الثالث:

تعال معى .. إلى الصين الشعبية !

نحن الآن فى هونج كونج، نتأهب لمغادرتها إلى الصين الشعبية، بعد أن قضينا فى المستعمرة العجيبة يوما وبعض يوم، ألممنا خلاله بما قدمت لك من معالمها وأحوال شعبها.

فإذا كان اليوم التالى - ٢٦ اكتوبر- وقد انقضت على قيامنا من القاهرة خمسة أيام حافلة بالتنقل المستمر، بين بومباى، ودلهى، وأجرا، وكلكتا، وبانكجوك، وهونج كونج.. (ثم ساقنا الاستطراد إلى المقارنة بين الأخيرة وبين طوكيو من الناحية الاجتماعية والأخلاقية).. فلتعال نغادر الجزيرة بالناقلة المائية إلى (اكرلون)، فلا نكاد نهبط إلى البر حتى نجد فى مواجهتنا محطة سكة حديد (كاولون - كانتون) التى تربط بين المستعمرة وبين الصين.

الساعة الآن الثانية بعد الظهر، وقد أخذنا أماكننا فى القطار الذى يوشك أن يتحرك. انه قطار ليس فيه ما يلفت النظر، (وقد قيل لنا أن القطار الفاخرة هو الذى يغادر المدينة فى الصباح الباكر).. لا بأس، فسوف يتاح لنا أن نقارن بين الاثنين عند عودتنا من الصين بإذن الله.

وينطلق القطار بين مناظر رائعة على الجانبين، تذكرنى بمناظر ايطاليا والنمسا إلى حد كبير.. تذكرنى بها من حيث الطبيعة وجمالها، أما من حيث مستوى المعيشة ونظافة الشعب، فالبون شاسع، فنحن نرى هنا - كلما مر القطار بقرية من القرى - صورا تنطق بالفقر، والعرى، والحفاء، وشتى مآثر الاستعمار على المستعمرة!..

فنحن نعبر الآن الأراضى الجديدة التى تمتد بين كاولون وحدود الصين الشعبية. ويقف القطار بعد قليل فى محطة (يومانتى)، فتقع العين على مفارقة

ظاهرة: عجوز حيزبون فى أرذل العمر، تمد يدها عبر نافذة القاطر باناء صغير، تستجدى فيه احسانا.. ووراء ظهرها، خلف رصيف المحطة، عمارات حديثة فاخرة، وسيارات اتوبيس ذات طابقين، وشوارع فسيحة جميلة..

ثم يتحرك القطار، وينطلق، ولا يلبث أن يظلم الكون كله فجأة، كأنما قد سقطت خلف نوافذ القطار ستائر سوداء! لقد دخل القطار فى قلب الجبل، فى نفق طويل لا تبدو له نهاية.. ونتطلع إلى ساعاتنا، ونحصى الثوانى.. فالدقائق.. حتى تنقضى ثلاث دقائق كاملة قبل أن يمرق الثعبان المجنون إلى النور مرة أخرى، وإلى الشمس الساطعة.

حقا، ما أقسى الظلام!.. ليت كل من يبخل بماله على مكفوفى البصر، فى أسبوع النور والأمل، يعيش تلك الدقائق الثلاث، ويجرب العمى المؤقت، ليرحم!.

ويقف القطار مرة ثانية بمحطة (شاتين)، حيث تحف بالرصيف سوق كبيرة، وحوانيت، وسيارات، وحركة، وضجيج.. ثم ينطلق القطار إلى الخلاء، مارا ببحيرات خلابة، وجبال، وخضرة ساحرة.. ثم وقفة قصيرة فى محطة (تايبو)، فمحطة (فانلنج)، وفى نهاية الواحد والعشرين ميلا التى اقتطعتها بريطانيا من الصين عنوة واقتدارا- تحت اسم الايجار الاسمى - يصل القطار إلى غايته، فتهبط منه لنعبر خط الحدود الفاصل بين الدولتين، والنظامين، والذى يخفره نفر من الجنود الانجليز، ومرؤوسون لهم من جنود الحدود الصينيين يرتدون زى الانجليز.. وعلى جانبى خط الحدود المذكور محطتان متقابلتان، احداهما محطة (لوو)، والأخرى محطة (شن تشون)، هذه ينتهى عندها القطار البريطانى، وتلك يبدأ منها القطار الصينى. وبين المحطتين نقطة جمرك الحدود، حيث يفتش شرطة المستعمرة أهاليها العائدين من زيارة ذويهم القاطنين فى الجانب الآخر.

ولا تكاد تعبر الحدود ، فى دقائق، حتى نجد فى انتظارنا وفدا من مندوبى حكومة الصين الشعبية، وفى رفقته فتاة ترتدى بنطلونا بسيطا لا أناقة فيه، كبنطلونات الرجال، تعلوه سترة من التريكو، وعلى عينيها نظارة، وقد خلا وجهها من أى أثر لزينة أو مساحيق!.. وترحب بنا «مس تشين» فى انجليزية سليمة، نيابة عن بقية الوفد الصينى الذى تقوم هى فيه بمهمة المترجمة..

ثم تقودنا ومرافقوها إلى استراحة المحطة، التى انتشرت فيها المقاعد والمناضد ذات الطابع الصينى العريق، فهى مصنوعة من خشب الابنوس الأسود الجميل، المصقول كالمرايا، وفى وسط كل مقعد ومنضدة دائرة من الرخام الأبيض المموج، ويقدم لنا الشاى الأخضر الفاتح – حتى ليكاد يكون لا لون له !–

وعند أول رشفة منه أحس بالنفور وخيبة الأمل ، انه ماء ساخن لا طعم له، بغير سكر!.. ومنذ تلك اللحظة حتى ساعة مغادرتنا لأرض الصين بعد نحو شهر كامل، لم تذق طعم الماء القراح!

كنا حين نطلب ماء باردا يؤتى لنا بزجاجة من المياه الغازية المصنوعة من عصير الليمون أو البرتقال.. وحين نطلب شرابا ساخنا يؤتى لنا بالشاى الأحمر، المحلى بالسكر، الذى يعدونه خصيصا للأجانب.. أما أهل الصين فلا يشربون ماء باردا ولا شايا أحمر، وإنما يشربون فى العالين شايهم الأخضر المفضل.. يشربونه فى كل مكان وكل مناسبة: فى البيت والمكتب والمصنع والقطار.. فى الصباح والظهر والعصر والمساء والليل، وكلما أدركهم الظمأ!–

وقد تكون تأصلت فيهم هذه العادة منذ كانت انهارهم موطنا للأوبئة، من كوليرا وحمى صفراء!– فأينما ذهبت فى الصين، تجد «صينية» عليها أقداح الشاى ذات الغطاء، (فهى قدح وابريق فى الوقت ذاته، يوضع فيها ورق الشاى

الأخضر ثم يصب فوقه الماء المغلى ويغطى القدح بغطائه الخاص بضع دقائق، حتى يرسب أكثر الورق فى القاع، وعندئذ ترفع الغطاء وترشف)..

أقول، أينما ذهبت فى الصين تجد اقداح الشاى المغطاة، وبجوارها قراطيس الشاى المغلقة، و«زمزمية» ضخمة مكسوة بالقش، بها ماء مغلى لا ينضب معينه، يظل دائما معدا فى انتظار أى قادم..

ترى هذا المنظر فى القطار ، وفى المدرسة، وفى مكتب الوزير، وفى دور الصحف، وفى معهد التمثيل، وفى حجرة مدير السجن، أو المصنع، وفى غرفتك بالفندق..الخ

ولنعد إلى حيث كنا فى استراحة المحطة على أثر تخطينا الحدود من هونج كونج.. ولأعترف لك، فى صراحة، أن المفارقة كانت شديدة بين المنطقتين!.. حتى ثياب جنود الحدود كان البون فيها شاسعا بين الترف الذى تنطق به سترة جنود المستعمرة، والبساطة التامة التى هى طابع سترة جنود الجمهورية الشعبية.

وإذا كنت قد أخذت بهذا الفارق لأول وهلة، فى الذهاب، ثم لم ألبث أن ألفته بمضى الوقت، فقد عاودتنى المفارقة بصورة أوضح، وأكثر طرافة، فى الاياب، وكان للمصادفة دخل كبير فيها : ذلك أننا لم نكد نهبط من القطار الصينى لنستقل القطار البريطانى، فى عودتنا، حتى وجدنا أنفسنا فى عربة فاخرة تكاد تكون خارجة لتوها من المصنع ، تلمع على جدرانها طبقة من الفورمايكا الجميلة، وتزينها المقابض الألومنيوم أو المعدنية المطلية بالكروم .

وسوف ترى بعد حين أن فى الصين الشعبية قطارات أفخر من هذه، وعربات نوم لم أر لها مثيلا فى قطارات زيورخ وفينا، كعربات القطار الذى أقلنا من بكين إلى مناطق الصناعات الثقيلة بالشمال الشرقى، وبالعكس، لكنى أردت

أن أصف لك صورة صادقة للمفارقة كما تتابعت مظاهرها، بمحض المصادفة!.. ولم أكد أنقل بصرى من تأمل فخامة عربة القطار، حتى أقبل فى ممر العربة «جرسون» يصرخ بأعلى صوت : «كوكاكولا، ويسكى، تشيكليتس»!.

ورغم أنى فى الصين خمورا أقوى من الويسكى، وتقرب من الفودكا الروسية التى تلهب الحلق، كما أن فيها نبيذا وبيرة، وسواها، فاننا كنا قد غادرنا منذ لحظات قطارا يقدم فيه الشاى الأخضر، ويرن فى عرباته بدلا من صوت الساقى الهمام بائع الويسكى، صوت مغنية أوبرا صينية رقيقة تذاع اسطوانة لها من ميكروفون معلق فى جميع العربات.

.. وعنصر آخر من عناصر المفارقة، لعبت المصادفة فيه دورها:كان إلى جوارى فى مقصورة القطار تاجر هندى من تجار هونج كونج، عائد من (كانتون)حكيث ابتاع لمتجره كمية من منتجات الترف الصينية التى يصدر أكثرها للاستهلاك فى خارج الصين، ومنها الحرير الصينى الفاخر ، والتحف الثمينة المصنوعة من العاج وأحجار «اليشب» النفيسة والخزف المطعم بالنحاس.. الخ.

وكان مع التاجر أطفاله وبناته الصغار، الذين غالى فى «زركشتهم»- على طريقة أغنياء الحرب - بالثياب الفاخرة الملونة المطرزة!- وتذكرت فى الحال بساطة ثياب الملايين من أطفال الصين الباسمين، ذوى الوجوه السمحة، والقلوب السمحة!.

.. ولنعد إلى حيث كنا نرشف الشاى الأخضر فى استراحة محطة الحدود، فى صحبة وفد الاستقبال الصينى والمترجمة التى ترافقه.. ولنمض معهم إلى القطار الذى سوف يقلنا إلى أول مدن الصين التى جئنا لنزورها : (كانتون) العريقة، ذات التاريخ المجيد والماضى المشرف فى محاربة الاستعمار.. كانتون

التى هدمتها مدافع الأسطول البريطانى فى عام ١٨٤١، كى تنشر فى أنحاء الصين سموم الأفيون!

كانتون التى تتكىء على ضفة «نهر اللؤلؤ» المشهور ، أطول أنهار الجنوب، بسكانها البالغ عددهم مليونا وسبعمائة ألف نسمة!

كانتون، منفذ الصين الجنوبى للتجارة الخارجية والصلات الثقافية منذ أقدم العصور، منذ كانت صلة الوصل بين الصين وبين العرب والفرس، فى القرنين السابع والثامن!

كانتون التى هاجر إليها المسلمون منذ فجر الإسلام، وبنوا فيها مسجد «هواى شنج» الذى يعتبر من أقدم المساجد الإسلامية، إذ يرجع تاريخ انشائه إلى ما قبل ١٣٣٠ عاما!

كانتون أكبر مدن الصين الجنوبية، والقلب النابض لها - سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا- طوال أكثر من ألفى عام.

كانتون التى عاش فيها زعماء الصين الحديثة - صن يات صن، وماوتسى تونج،و وشو اين لاى - فترات حاسمة من حياتهم، ومن تاريخ الصين.

كانتون مركز المؤسسات العلمية والثقافية الكبرى، وفى مقدمتها جامعة الدكتور «صن يات صن» المقامة على مساحة قدرها أربعمائة فدان!.. ومركز فنون الخزف، والحفر على العاج، وغيرها من الصناعات اليدوية الصينية ذات الشهرة العريقة

كانتون التى انشىء فيها خلال التسعة أعوام الماضية من المبانى الجديدة ما يوازى سبع مساحتها الإجمالية، وأقيم فيها من المصانع ما يجعلها اليوم من أكبر مدن الصين الصناعية والانتاجية.. وما يزال يبنى فيها كل يوم مزيد من المدارس، والمصانع، والمستشفيات، وأحياء السكنى، والطرق، والحدائق، والمراكز

الرياضية والترفيهية العامة، ومنها الملعب الرياضى المدرج الذى يتسع لخمسين ألف متفرج.

كانتون التى بلغ الوعى الفنى بأهلها حدا جعلهم ينشئون فيها أربعة عشر مسرحا للفن الكلاسيكى، تزدحم كل ليلة بالنظارة، إلى جانب مسرح عصرى واحد!

وقبل أن ندخل أولى مدن الصين، ونطوف بمعالمها، هى وسواها من المدن، أحسبك متشوقا إلى معرفة الجواب عن كثير من الأسئلة العامة التى تشغل فكرك، وتتسابق من ذهنك إلى لسانك، منذ بدأت تصحبنى فى الرحلة على متن هذا الكتاب.. انك تود أن تسألنى:

كيف وجدت الصين الشعبية؟

ما الذى أعجبك فيها، وما الذى لم يعجبك؟

وما مدى رقيها.. أو تأخرها؟

وماذا رأيت فى مدنها وقراها؟

وكيف يعيش أهلها؟

ماذا يلبسون، ويأكلون، ويشربون؟

وما تأثير الشيوعية عليهم: ما أحوالهم الاجتماعية، وحرياتهم الشخصية، ومستواهم الاقتصادى .. والثقافى .. والفنى.. والعلمى؟

وهل عندهم حقا نهضة صناعية.. وإلى أى حد؟ ماذا ينتجون وماذا يستوردون؟

وكيف وجدت أخلاقهم، وعاداتهم، وديانتهم، وحياتهم العائلية، ومعاملاتهم الماليةوالتجارية..؟

و.. و.. ومائة سؤال وسؤال!

وقبل أن أحاول إجابتك على كل هذه الأسئلة، بقدر الطاقة، أحب أن أوضح لك هنا حقيقة هامة : هى أننى حين أتعرض لكل هذه الموضوعات، لا أتعرض لها من وجهة نظر سياسية، تناصر هذا المبدأ أو ذاك، أو تتحيز لنظام ضد نظام، فأنا رجل لا أشتغل بالسياسة، وإنما أشتغل بالأدب، والفن، والثقافة، والكتابة.. وعلى ضوء هذا الاعتبار- وأكرر مرة أخرى - عاهدت نفسى أن أنقل إليك ما أرى وأسمع فى كل بلد أزوره، دون زيف، ولا التواء، ولا مجاملة، أو تحامل !.. حسبى أن أسجل لك الحقائق كما شاهدتها بعينى، وسمعتها بأذنى ، ولك أن تفسرها كيفما شئت .

والتزاما بهذا المبدأ، وعملا بمقتضاه، سأذكر لك هنا - بصراحة كاملة - ما أعجبنى فى الصين الشعبية، وما لم يعجبنى.

ما لها.. وما عليها!

وفى سبيل النهوض برسالتى نحوك، وتأدية الأمانة التى فى ذمتى لك.. ليس يعنينى أن يغضب هذا الفريق أو ذاك!

أول ما أعجبنى فى الصين الشعبية .. شعبها!

الشعب الطيب إلى درجة السذاجة.. المسالم إلى درجة الخرافة.. الأمين إلى درجة القداسة.. النظيف إلى درجة «الوسوسة».. المؤدب إلى درجة تضرب بها فى قواميس اللغة الأمثال.. الباسم أبدا وفى كل الظروف، إلى درجة تكاد تثير الأعصاب!

لم أر فى الصين طوال الشهر الذى قضيته فيها، مشاجرة واحدة.. ولا حتى مشادة كلامية، أو مساجلة حامية،.. وقيل لى أنه حيثما اختلف اثنان من الصينين، فانهما يظلان يتجادلان ويتعاتبان فى هدوء، حتى يقنع أحدهما الآخر،

أو يوسط لحل النزاع شخصا محايدا يثق فيه الطرفان!.. أما الضرب والبذاءة، والإسراع إلى قسم البوليس، والتهديد والوعيد، والاتهام والدفاع، فتلك خصال لا وجود لها عند أهل الصين!.

وأما الأمانة، فقصتها أعجب : حدثنى المصور الفنان «حلمى الجلاد» - الملحق بسفارة مصر فى بكين - أنه يقطن فى مسكن لا قفل لبابه ولا مفتاح، يدخله كل من يدفع بابه إذا شاء! وقد انقضى عليه عام كامل على هذا المنوال، توجس فى بدايته خوفا من النتائج، حتى قيل له أن الكثير من مساكن بكين من هذا الطراز، فهدأت مخاوفه بعض الشىء، وأسلم أمره إلى الله.. ورغم أن له جيرانا كثيرين، يقفون على مواعيد دخوله وخروجه، هو والسيدة زوجته، فان «قشة» من متاعهما أو مالهما لم تسرق أو تمس!.

وقصة أخرى أغرب وأكثر طرافة، رواها لى رجل هندى من رجال الأعمال فى هونج كونج هو السيد «رامشاندانى»، وتتلخص فى أن جماعة من أصدقائه الهنود كانوا يستقلون قطارا فى إحدى مناطق الصين، فشربوا محتويات عدد من زجاجات البيرة، وعند مغادرتهم القطار فى المحطة التى يقصدونها، تركوا الزجاجات الفارغة فى العربة ومضوا.. فلما مر ملاحظ القطار بعد حين، هاله أن ينسى الركاب زجاجاتهم الفارغة، فراح يسأل ويستقصى حتى استطاع الاهتداء إلى عنوانهم فى البلدة التى نزلوا فيها، وأرسل إليهم «الأمانة» فى عقر دارهم!

ويعلل الراوى هذه الأمانة الخارقة للمألوف بأنها قد تغلغلت فى دمهم بمضى الزمن، نتيجة لسياسة معينة كان الحكام القدامى يتبعونها مع اللصوص:كان يضبط لص وهو يسرق تفاحة مثلا، فيوبخه القاضى وينذره بالعقاب إذا عاد إلى السرقة مرة أخرى.. فاذا فعل، أمعن القاضى فى زجره وتهديده، وأكد له أنه لن يصفح عنه بعد هذه المرة، وإنما سينزل به العقوبة

المحتومة!.. فإذا ركب اللص رأسه وارتكب سرقة ثالثة، حكم عليه القاضى بالاعدام ونفذت فيه العقوبة علنا فى أحد الميادين العامة، ليكون عبرة لغيره!.

وخصلة أخرى أعجبتنى فى أهل الصين، تتصل بالأمانة، أو النزاهة، بأكثر من سبب ونسب.. خصلة يكادون ينفردون بها دون شعوب العالم أجمع، وترفعهم فوق مصاف جميع الشعوب!.. خصلة هى فى نظرى حجر الزاوية أو أو الأساس لتقدم أى بلد أو تأخره، ونهوضه أو انحلاله .. خصلة قد تبدو للوهلة الأولى ثانوية، تافهة، لكنك لو تدبرت نتائجها، خطوة فخطوة، لقادتك إلى أخطر النتائج والمضاعفات، التى تنخر كيان الدولة كالسوس!

أنها الخصلة التى نفتقدها نحن فى مصر، بصورة بشعة تدعو إلى الأسى، والتى لا تستطيع حكومة فى العالم أن تخلقها أو تزرعها فى نفوس أفراد شعب من الشعوب، مالم يتعاون الشعب كله على المناداة بها، وفرض احترامها و«قدسيتها» على الجميع، كما أشار الرئيس جمال عبد الناصر، بحق، فى إحدى خطبه الأخيرة.

هل عرفتها؟

إنها قيام كل فرد فى الدولة بواجبه، على الوجه الأكمل ، دون انتظار لرشوة، أيا كانت صورتها أو قناعها التنكرى، (سواء سميتها رشوة، أو «بقشيشا»، أو «اكرامية»، أو مكافأة مشروطة، صريحة أو مستترة.. إلى آخر أقنعة الرشوة التى لا تقع تحت حصر!).

نعم، هذه فى نظرى هى الخصلة الأولى التى ينتزع بها شعب الصين احترام كل زائر لبلاده، أو متعامل مع أحد أفراده!.. وأستطيع أن أجزم بملء قلمى ولسانى ، وأنا مطمئن كل الاطمئنان إلى أنى لست مخطئا أو مغاليا فى حكمى، أن الستة مائة مليون صينى الذين تجولت فى بلادهم – متنكرا فى

بعض الأحيان - لا يوجد بينهم فرد واحد يقبل جزاء غير مشروع على واجب يدخل فى اختصاصه!.. ولقد كان هذا الموضوع موضع «رهان» بيننا فى كثير من المناسبات، فكنا نحتال بكافة الطرق كى نقنع صينيا واحدا، من أية طبقة، وتحت ستار أى مبرر أو حجة، بأن يقبل من أحدنا « بقشيشا»، أيا كان مقداره!..

لكن محاولاتنا - بل ومؤامراتنا! - باءت جميعها بالفشل : فشلت مع خادم الفندق الفقير، ومع سائق السيارة، ونوتى الزورق، وطاهى المطبخ، وساعى المطار، وفراش القطار، و.. الخ..

كما أكد لنا رجال السفارة المصرية وغيرهم ممن قضوا فى الصين سنوات وسنوات، أن التجربة ذاتها تكررت معهم وتمخضت عن النتيجة عينها، فى كل الظروف والملابسات ، بلا استثناء!..

بل أضافوا أن ما لمسناه من أفراد تلك الطبقات يسرى على سواهم ممن ينتمون إلى طبقات أخرى، أهم وأخطر.. يسرى على الموظفين جميعا، صغارا وكبارا، فى كل مدينة وكل قرية ، فى طول البلاد وعرضها.

وذابت نفسى حسرة وخجلا، وأنا أتذكر «المأساة» التى حدثت لنا مع الوفد الصينى - بالذات !- الذى حضر إلى مصر منذ عامين، (وهى مأساة لا أجد حرجا فى نشرها، لأنى لا أومن بسياسة النعام، سياسة اخفاء الرأس فى الرمال!) : فقد حدث قبيل سفر ذلك الوفد الصينى، وكان عدد أفراده خمسا وسبعين، أن اجتمع أعضاؤه البارزون وقرروا توزيع بقاشيش على خدم الفندق الذى كانوا ينزلون فيه -وهو من أكبر فنادق القاهرة!-

فرصدا لهذا الغرض نحو مائتى جنيه، وجلس واحد منهم يصرف جزئيات المبلغ لطابور الخدم والطهاة و«السفرجية» والفراشين.. وطالت العملية، والطابور

لا تبدو له نهاية.. حتى نفذ المبلغ المرصود، فاعتذر الرجل - وهو يذوب خجلا- بنفاذالنقود!

فهل تعلم كيف حدث ذلك العجز؟.. وما تفسير لغز ذلك الطابور؟.. تبين أن الكثيرين من خدم الفندق المذكور كانوا يقبضون نصيبهم من المبلغ ويخرجون من الباب، ثم يعودون من باب خلفى فينضمون مرة ثانية إلى ذيل الطابور، كى يقبضوا نصيبهم من جديد، بالغش والخداع والاحتيال الدنىء !.

وقد أدرك الضيوف الصيونيون يومئذ «المقلب» القذر الذى «شربوه»، بحسن نيتهم، لكنهم لم يفاتحوا أحدا فى الموضوع، بشكل علنى، وإنما اكتفوا بأن أبدى أحد البارزين منهم - فيما بعد - ملحوظة عابرة لأحد أصدقائه من المصريين. وكان قد رافقه طيلة فترة إقامة الوفد فى مصر، إذ اقترح عليه«أن تشدد مصلحة السياحة رقابتها على الأجانب الذين يريدون فنادقكم الكبرى، لأنهم فى الواقع أعداء لبلادكم، يسيئون إلى سمعتها بتصرفاتهم، وقد يكونون فى ذلك .. عامدين!».

وعلى ذكر هذه الواقعة المخزية ، تحضرنى واقعة أخرى حدثت لذلك الوفد الصينى بعينه فى زيارته تلك لبلادنا، ورواها لى أحد كبار المصريين الذين رافقوه فى تنقلاته: فقد كان بين أعضاء الوفد عدد من كواكب أوبرا بكين وبعض فنانات أقليم (سنكيانج) المسلمات اللواتى حضرن لعرض ألوان من فنونهن على مسرح دار الأوبرا بالقاهرة..

فلما جاء موعد البدء فى تجارب الفرقة طلبن إلى إدارة فندق «الكونتننتال» الذى كن يقمن فيه أن تحضر لهن سيارة أوتوبيس خاصة تحملهن ومعداتهن إلى دار الأوبرا، الواقعة فى مواجهة الفندق .. وحضرت السيارة وتولت نقلهن ، وتكررت هذه العملية ثلاثة أيام متوالية، فهل تعلم كم دفعت الفرقة مقابل انتقالها مسافة مائة متر، عبر الميدان؟ لن تصدق : ٧٥جنيها مصري ، كامل!.. بواقع

خمسة وعشرين جنيها عن المرة الواحدة!.. (وأنا أهدى هذه الواقعة إلى السادة المشرفين على مصلحة السياحة، كى يعجلوا بوضع حد لهذا الاستغلال البشع للسائحين -أيا كانوا- من جانب كل من له صلة بتنفيذ مثل هذه البرامج، من هيئات أو شركات أو أفراد، صونا لسمعة البلاد من جهة، وتشجيعا للحركة السياحية من جهة أخرى .. وكلا الاعتبارين خطر!).

ولنعد إلى ما أعجبنى - وما لم يعجبنى - فى الصين الشعبية :

قلت: أول ما أعجبنى فيها هو شعبها.. أعجبتنى فيه دماثته وتهذيبه.. وأعجبتنى فيه أمانته ونزاهته..

ثم أعجبتنى فيه نظافته.. حتى المزارع الفقير فى الحقل، أو العامل فى المصنع، الذى يرتدى سترة وبنطلونا من التيل الأزرق الرخيص، نراه يغسلهما كلما اتسخا، ويحتفظ بهما دائما فى درجة من النظافة يحسده عليها الشخص الذى فى مستواه فى أية دولة أخرى، غربية أو شرقية..

وقد تعمدت أن أختبر نظافة القوم فى كل مناسبة، فكنت حين أركب القطار التمس أى سبب كى أذرع عربات الطبقة الفقيرة حتى آخرها، ذاهبا آيبا. وقد اذهلنى ما رأيته فى تلك العربات :

مئات من المسافرين الفقراء، من الرجال والنساء والأطفال، من شتى الحرف والبيئات، ليس بينهم واحد تأنف من أن تجلس إلى جواره، أو تلمس ثيابه ثيابك، أو تشاركه طعامه!.. كل ما يمت إليهم نظيف : ملابسهم البسيطة الزرقاء أو السوداء.. وأحذيتهم .. وأمتعتهم.. ووجوه أطفالهم وأرض العربة التى يجلسون فيها.. الخ..

فيما عدا شيئا واحدا : المجلات الصغيرة التى فى حجم كف اليد، التى لابد أن تتسخ من كثرة الأيدى التى تتداولها. وهى مجلات تتألف كلها من

رسوم وقصص مسلسلة كقصص الأطفال، كتبت تحت كل رسم منها عبارة أو عبارتان. ويبلغ من شغف الصينيين بهذه المجلات أنك إذا دخلت عربة القطار الفيت نصف الركاب تقريبا ممسكا بنسخ منها يطالعها والابتسامة على شفتيه.

ومظهر آخر من مظاهر نظافة القوم، وتهذيبهم.. مظهر قد يكون فى ذاته تافها، لكنه فى نظرى كبير الدلالة : هو مظهر «فراش» القطار المتواضع الذى يمر فى العربات كى يصب الماء المغلى فى القدح الموضوع أمام كل راكب، وأنه يحرص حين يرفع غطاء القدح، أن يضعه على المسند «مقلوبا» - كى لا تتسخ حافته التى ستنطبق على حافة القدح -

ثم يتناول «القرطاس» المغلف الذى يحتوى على جرعة الشاى الأخضر المعدة لكل قدح، فيفضه ويفرغ محتوياته، ثم يرفع سدادة «الزمزمية» التى بها الماء المغلى ، فيضعها جانبا بنفس الطريقة، «مقلوبة».. حتى يفرغ من العملية ويمضى ليكررها مع الراكب التالى، وهكذا..

لاحظت هذه الحركات تتكرر بطريقة آلية من جميع الخدم والسقاة فى كل مكان، فى جنوب الصين وشمالها، فى القطارات والمكاتب والمنازل والمطارات و... و .. الخ.. الأمر الذى يدل على تغلغل روح النظافة وانتشار التهذيب فى نفوس أفراد الطبقة الدنيا من الشعب بصورة تدعو إلى الاعجاب والاحترام.

وإذا كان هذا يحدث فى القطارات العادية التى ليست بها عربات مخصصة للطعام، من أشخاص هم أقرب إلى طبقة «الفراشين» منهم إلى طبقة السقاة المحترفين، فليس عجيبا إذن أن نرى فى عربات الطعام بالقطارات بدلا من الساقى ساقية، ترتدى مرولة بيضاء ناصعة و«كاسكت» للرأس لا مزيد على نظافته..

كما لن يدهشك بعد هذا أن ترى النظافة تراعى على أكمل وجه فى كل

صغيرة وكبيرة، فى شتى مرافق البلاد، وفى مئات الأمثلة التى لا داعى لذكرها.. بل أن ترى أفراد الشعب فى مسلكهم الشخصى يلتزمون مقاييس للنظافة لم نرها أو نسمع بها فى أية دولة أخرى. من ذلك أنهم إذا أصيب أحدهم ببرد أو زكام، أو كان يعمل فى مطبخ أو معمل للألبان، أو فى منجم أو طريق زراعى كثير الأتربة، فانه يضع على فمه وأنفه «كمامة» واقية، يثبت طرفيها خلف أذنيه.

وهذه الكمامات تباع فى الحوانيت وفى كل مكان، والغرض منها أن تقى الناس من جراثيم زكامه أو مرضه، أو تقيه هو من الغبار والأتربة .. الخ.

ويتفرع عن هذا الباب موضع آخر للإعجاب لمسته فى الصين، هو العناية الموفورة بمعالجة المرضى وتوفير المستشفيات والمصحات لهم فى كل مكان، بل وتزويدها بأسباب الترف التى لم أسمع بها من قبل، ففى أكثر من مصحة ومستشفى – ومنها على سبيل المثال مصحة الناقهين فى (هاتشو)– رأيت قاعة فسيحة للسينما والمسرح، أعدت وفقا لأحدث طراز، وزودت بمئات المقاعد.

والمصحة الأخيرة أقيم بناؤها الفاخر فوق ربوة عالية باحدى ضواحى المدينة، وخصصت للمرضى بالأمراض العصبية بصفة خاصة، الذين يدفع المريض منهم ما يوازى ستة قروش مصرية فى اليوم، وفى مقابل هذا المبلغ الزهيد يعالج، ويزود بالدواء، والطعام، والفراش، والكتب والمجلات، والراديو، والسينما!..

بل لقد رأيت فى المصحة المذكورة جناحا لمعالجة المرضى الذين يشكون الأرق، وهو مزود بأجهزة للتنويم بالكهرباء من أحدث طراز فى الطب الحديث. ورغم أن المصحة المذكورة قد فتحت للمرضى منذ عامين أو أكثر قليلا، فان نظافة كل شبر من جدرانها وأرضها وأبوابها وأدواتها، توحى إليك كأنك أنت الذى تفتتحها بزيارتك.

وعند زيارتى لسجن مدينة (شنغهاى)، طلبت أن أرى مستشفى السجن، الذى يحتل بناء مستقبلا من أبنيته المتعددة التى يضمها سور واحد.. فكان أهم ما لفت نظرى فى المستشفى المذكور المخصص «للمجرمين»، نظافة الملاءات التى تغطى أجسام المرضى، إلى درجة لا تراعى فى مصر أحيانا مع مرضى الدرجة الأولى، (وفى المستشفيات الخاصة، لا المستشفيات الحكومية بطبيعة الحال!).. ثم خرجت من عنابر المرضى لأرى غرفة العمليات. فإذا هى آية فى النظافة، مزودة بأحدث الأجهزة، يلمع كل ما فيها براقا زاهيا، وكأنها فى مستشفى قصر ، لا مستشفى سجن.

وقد كنت أحب، لمناسبة أشارتى إلى نظافة مستشفى سجن (شنغهاى)، أن أحدثك هنا بالتفصيل عن مشاهداتى فى السجن المذكور، وعن أنظمته، وحياة نزلائه، وعن سجن النساء الملحق به. وبرامج الاصلاح والتهذيب والتثقيف التى تعد للمسجونين، والصناعات المختلفة التى يتولاها الرجال منهم والنساء .. الخ.. أولا أن الحديث فى ذلك كله سيطول، ومن ثم أوثر أن أرجئه إلى حينه، عند زيارتنا لشنغهاى.

ومادمنا بصدد الحديث عن تلك المصحة التى أقاموها فى (هاتشو)، فلأكمل لك وصفها، فانها شىء جدير بالإعجاب حقا. لقد شيدوها على مساحة من الأرض تبلغ ٦٨٠٠متر مربع، وهى محاطة من جميع نواحيها بالشرفات الفسيحة التى تشرف على مناظر طبيعية رائعة الجمال، وروابى خضراء، وعند اقدام التل -الذى يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ١٤٠ مترا- ينساب نهر «تشانتاو».

وقد روعى فى اختيار مكان المصحة أن تحميها الجبال من العواصف الباردة فى الشتاء، ويهب عليها النسيم العليل فى الصيف، ومن ثم نجد جوها أدفأ من المدينة بأربع درجات فى الشتاء، وألطف منها بست درجات فى الصيف.

وبلغ من حرص القوم على راحة المرضى وحمايتهم من الضوضاء أن روعى فى بناء طوابق المبنى أن يكون السقف مزودجا، من طبقتين : طبقة من الأسمنت، وطبقة من مواد أخرى عازلة للصوت. والمدة المقررة لاقامة كل ناقه هى شهران، لكن للطبيب أن يقرر اختصارها أو زيادتها وفقا لحالة المريض.

وإلى جانب المرضى بالأمراض العصبية، نجد فى المصحة مرضى بالروماتيزم، وضغط الدم، وغيرهما من الأمراض غير المعدية. وبها عدة أجنحة للعلاج بالكهرباء والأشعة والمستحدثات المعروفة، أجنحة أخرى للعلاج؛ بالتدليك، والشمس، والمياه المعدنية، والشمع!

(ولست أدرى إن كان العلاج بالشمع معروفا فى البلاد الأخرى أم أنه من أساليب العلاج الصينية القديمة، شأنه شأن الوخز بالابر، وهى طريقة تقليدية هناك يقولون أنها تأتى بنتائج عجيبة فى علاج الكثير من الأمراض المستعصية.

حتى لقد حدثنى السيد حسن رجب سفير مصر فى الصين أنه يفكر فى أن يرسل ابنه بعد تخرجه من كلية الطب المصرية كى يدرس هذه الأساليب الصينية فى موطنها!).

بقى أعجب ما فى المصحة المذكورة، وهو عدد المرضات المخصصات للعناية بالمرضى.. فان هذا العدد لايزيد عن ست عشرة ممرضة، مقابل مائتين وخمسين سريرا للمرضى! وهى نسبة ضئيلة جدا، لا سيما إذا أدخلنا فى الاعتبار ما بدا لنا من العناية الزائدة براحة المرضي، وبكل صغيرة وكبيرة تتصل بهم، ولعل أطرف تعليق علق به أحد الحاضرين على ضآلة هذه النسبة ، أن دماثة خلق الصينيين ووداعتهم - حتى فى حالة المرض - لا تحوجهم إلى أكثر من هذا العدد من المرضات!

وقبل أن ننتقل من الحديث عن الناحية الصحية، تعال نسأل مرافقينا

الرسميين عن بعض الاحصاءات والأرقام المتصلة بهذا الموضوع، على سبيل المثال، ونسمع جوابهم عنها: انهم يقولون أن مشروع الخمس سنوات الأول، (من ١٩٥٢-١٩٥٧)، قد أسفر عن التقدم التالى فى ناحية الصحة العامة للشعب :

زيد عدد الأسرة (جمع سرير) فى المستشفيات بنسبة ٧٧ فى المائة.. وفى المصحات بنسبة ٢٣٧ فى المائة.

هبطت نسبة الوفيات إلى النصف، وانخفضت وفيات الأطفال من ١١٧ فى الألف إلى ٣٥ فى الألف.

انخفضت وفيات النساء أثناء الولادة، فى العاصمة، عشر مرات.

اختفت أوبئة الجدرى والكوليرا والطاعون من الصين .

اختفى الذباب من الصين، نتيجة للإجراءات والحملات المشددة المستمرة بمختلف الطرق الكيمياوية والطبية، وحرق الفضلات سواء فى القرى والمدن..الخ. (وأنا أشهد على صحة ذلك، إذ لم أر خلال الشهر الذى قضيته فى الصين سوى ذبابة واحدة، صادفتنى فى أحد القطارات!).

ارتفع متوسط عمر الفرد فى الصين من ٢٥ سنة، إلى سن لم يستقر عليها الاحصاء بعد، وان زادت عن ذلك بكثير.

زيد عدد الأطباء فى الصين زيادة ضخمة، والأطباء فى الصين فئات ثلاث: أطباء يتخرجون بعد التعليم العالى ، وأطباء يتخرجون بعد التعليم المتوسط، ومأمورون صحيون يتخرجون بعد التعليم الابتدائى (ويتخرج من هؤلاء الأخيرين نحو نصف مليون كل عام!).

وأكثر الأدوية التى تتداول فى الصين تصنع فيها محليا، (والجزء الضئيل الباقى يستورد من الخارج)، وقد زيد انتاج البنسلين مثلا فى مشروع الخمس

سنوات من ١٥٣ ألف أنبوبة فى السنة إلى ٢٩ مليون أنبوبة، أى بنسبة ١٩ ألفا فى المائة.. والقاعدتان الرئيسيتان للصحة عندهم هما : أن الوقاية خير من العلاج، وأن الطب ينبغى أن يجمع بين الأساليب الحديثة والأساليب التقليدية القديمة فى وقت واحد! .

وبهذه المناسبة، أذكر أن الرئيس «شو اين لاى»، رئيس وزراء الصين، عنى حين قابلناه فى بكين يوم ٤ نوفمبر الماضى بأن يستفسر من الدكتور السعيد بوصفه مديرا لجامعة الاسكندرية التى تضم كلية للصيدلة، عن مدى عناية كليات الصيدلة المصرية بدراسة موضوع الاكثار من زراعة الأعشاب الطبية التى تستخدم فى تركيب الأدوية والمستحضرات المختلفة! وأسهب الرئيس الصينى فى هذا الحديث إلى درجة استرعت عجبنا واعجابنا حقا بسعة أفقه، واحاطته بالكثير من الجزئيات والأبحاث «غير السياسية».

وأعجبنى فى الصين الشعبية، الاختلاط بين الجنسين(١) فى جميع مراحل التعليم: من مرحلة «الروضة» إلى مرحلة الجامعة.. ففى شتى المدارس والمعاهد التى زرناها- سواء فى بكين أو شنغهاى أو بانكنج أو سنيانج.. الخ- رأينا البنين والبنات جنبا إلى جنب فى حجرة الدراسة الواحدة، والمقعد الواحد، والفناء الواحد، وقاعة الطعام الواحدة.. الخ .. وأعجبنا بروح الزمالة والأخوة بين أفراد الجنسين، والبساطة المهذبة التى تضفى طابعها الجميل على الجميع..

وكم تبيح الصين الاختلاط بين الجنسين فى معاهد التعليم، فقد أعجبنى فيها بالتالى أنها تبيح الاختلاط بين الجنسين خارج معاهد التعليم!.. والأمر هنا يحتاج إلى ايضاح، كى لا يلتبس الأمر عليك : فقد أشرت من قبل إلى التقشف الذى يسود الصين فى ناحية اللهو، وإلى تحريمهم الصارم لجميع أنواع الملاهى

---

(١) هذا لا يناسب المسلمين ويتعارض مع الشريعة الإسلامية .

الليلية ودور البغاء، بل والمطاعم أو المقاهى التى لا ترى لها أثرا فى أية مدينة من مدن الصين - وهو أمر لا تعجبنى مغالاتهم فيه إلى هذا الحد الذى يجعل مدنهم تبدو منذ لحظة اغلاق الحوانيت فى الثامنة مساء أشبه بالمدن المهجورة التى لا حياة فيها ولا بهجة!

على أن القوم فرقوا - وحسنا فعلوا - بين منع «الكباريهات» والبغاء، أى تحريم منع الاحتراف التى تباع وتشترى، وبين منع اختلاط الجنسين فى نطاق الحب والعواطف، أى تحريم منع الهوى الخالص الذى لا يباع ولا يشترى ، فأباحوا المتع الثانية على أوسع نطاق : فى الحدائق، والمتنزهات، والغابات، وعلى شواطئ البحار والأنهار.. فإذا تجولت فى حدائق بكين، أو على كورنيش شنغهاى، أو ضفة بحيرة هاتشو، رأيت العشاق أزواجا فوق المقاعد، أو الحشائش، أو فى الزوارق التى تتأرجح على سطح الماء.. لا يزعجهم «بوليس آداب»، أو يتطفل عليهم مشاكس دخيل!.. فليتنا نتعلم منهم الكف عن مطاردة الشباب وتضييق الخناق عليهم فى كل مكان!

وأعجبنى فى الصين الشعبية تقديرها للفنون على اختلاف ألوانها، وتشجيعها للقائمين عليها والمشتغلين بها.. فالدولة هناك تسخو على فنون المسرح، والسينما، والأوبرا، والباليه، سخاء لا مزيد عليه.. لا تبخل فيه بمال، ولا دار، ولا تشجيع أيا كان.. يكفى أن تعلم أن عدد مسارح الصين بلغ فى نهاية عام ١٩٥٧ : ٢٠٧٨ مسرحا، وعدد دور السينما : ٨٩٦ دارا، وعدد أجهزة العرض التى تعرض أفلاما فى العراء، فى القرى والميادين : ٥٢٧٩ جهازا..

ولعلك أدركت مما ذكرته لك عن مسارح كانتون الأربعة عشر المخصصة للفنون الكلاسيكية، ومسرحها الوحيد اليتيم المخصص للفن العصرى، لعلك أدركت من ذلك مبلغ تعلق الشعب بالفنون العريقة، مثل فن الدراما، وفن الأوبرا.

بل أنك قد تدهش إذا علمت أنه فى مقابل دار الأوبرا الوحيدة التى عندنا فى مصر، توجد فى مدينة (بكين) وحدها «عشرات» من دور الأوبرا، عدا الدور العديدة الموجودة فى كل مدينة من المدن الكبرى الأخرى.

وفى كل من هذه المدن نجد دارا واحدة على الأقل تخفض أسعار تذاكرها إلى درجة تتيح للطبقات الفقيرة أن تتردد عليها. فإذا دخلت تلك الدار ألفيتها مزدحمة عن آخرها للفقراء، الذين جاءوا ومعهم عائلاتهم وأطفالهم!..

ورغم وجود الأطفال فانك تلحظ من مظاهر تهذيب القوم وحسن مسلكهم أنهم يلتزمون الصمت التام والسكون المطلق أثناء تمثيل الأوبرا، بحيث إذا خطر لك أن ترمى إبرة على أرض المكان، سمعت صوتها فورا!.

والصينيون متقدمون فى فن الأوبرا إلى مستوى عالمى رفيع، وعندهم عدة «مدارس» للأوبرا ذات مذاهب واتجاهات مختلفة، لكل منها ميزتها وجاذبيتها الخاصة. وأشهر هذه المدارس هى المعروفة اسم «زوبرا بكين». ولها عدة فرق مستقلة احداها عن الأخرى بممثلاتها وممثليها، بعضها يعمل على مسارح الأوبرا فى العاصمة ذاتها، وبعضها الآخر ينتقل بين مسارح مدن الصين الأخرى.

والأوبرا الصينية، على وجه العموم، تتميز بالبذخ الهائل فى الثياب والمناظر ذات الألوان الصارخة، التى تعيد ذكرى الترف المقدم فى بلاط الأباطرة والاقطاعيين، مما يؤلف مفارقة كبرى مع الزى الحالى البسيط.. وتصاحب موسيقاها الصينية التقليدية أصوات صاخبة كأصوات الصاجات أو الموسيقى النحاسية ذات الدوى الذى يصم الآذان.

أما فن الاخراج فيبلغ الذروة أحيانا من حيث تتابع المناظر وتنوعها، فنرى مثلا حريقا فى غابة، يعقبه تلاطم أمواج فى المحيط، ثم ركض جياد، وظهور أشباح، ومبارزات بين فرسان من التبت أو المغول... إلخ..

وترى رجالا يذكرونك فى لحظات بحضارة الصين العريقة عبر آلاف السنين، رجالا لهم شوارب طولها أمتار، وضفائر من الشعر تهبط من وسط الرأس إلى مستوى الركبة.

.. وفى الوقت الذى يعود بك فيه فن الأوبرا الصينية القهقرى آلاف السنين، يطفر بك فن السينما الصينية إلى المستقبل طفرات واسعة، رأيت ملامحها فى اثنين من استديوهات شنغهاى، أحدهما للرسوم المتحركة الملونة والدمى المجسمة - من طراز أفلام « والت ديزى» - .

وسأحدثك بالتفصيل عن زيارتى لهذا الاستديو الضخم فى حينها .. والآخر استديو للتمثيل السينمائى العادى، شهدت فيه تصوير مناظر أحد الأفلام الجديدة، وكانت بطلة الفيلم شابة ريفية يصارحها زوجها برغبته فى الطلاق، بعد أن زار المدينة ففتنته نساؤها! ..

ونبهنى الزى الشبيه بـ«البيجاما»، -ذات السترة والبنطلون- الذى كانت ترتديه البطلة الريفية، إلى حقيقة كانت غائبة عنى واستنتجتها فجاة، وهى أن الزى الحالى الذى ترتديه نساء الصين - زى السترة والبنطلون - إنما ينبع من صميم تقاليد الشعب الصينى وملامحه الريفية الأصيلة! وكنت قد طالما سألت نفسى ، منذ وقع بصرى على هذا الزى، عن سر اختياره وتعميمه..

ذلك أنه لم يعجبنى البتة، فهو - من جهة - يفقد المرأة أنوثتها وسحرها، سيما إذا أضفنا إليه ما تقرنه به الصينية اليوم من اغفال تام لكل زينة أو مساحيق!.. ومن الجهة الأخرى، فان هذا الزى لا يلائم القامة القصيرة للمرأة الصينية بالذات، وهى قامة دون المتوسط بكثير.

وأعجبنى فى الصين تقليد طريف، هو التمرينات الرياضية التى يمارسها كل أفراد الشعب لمدة ربع ساعة، مرتين كل يوم، فى سعة محددة، بارشاد مذيع

فى الراديو.. ففى نحو الساعة العاشرة صباحا والرابعة بعد الظهر، ترى كل شخص قد ترك عمله وبدأ يمارس تمريناته. يفعل ذلك الكبير والصغير، الموظف والتلميذ وصاحب العمل، التاجر والصانع.. فى المكتب، والحديقة، والمصنع، والمدرسة، والشارع .. الخ

ويتفرع عن هذا شغف هائل بالرياضة بجميع أنواعها، ففى كل مكان ترى الملاعب، والأندية الرياضية، والمباريات، وفى هذا المجال أيضا ينشرح قلبك إذ ترى الاختلاط بين الجنسين فى ملاعب كرة السلة والتنس كاملا بهيجا، مفعما بالنشاط والمرح.. بل إنك إذا دخلت أحد متاجرهم الكبيرة وجدت قسما ضخما مخصصا لبيع الأدوات الرياضية لجميع الألعاب، على نطاق واسع.

وعلى ذكر المحلات التجارية، فقد أعجبتنى فيها أشياء، ولم تعجبنى فيها أشياء أخرى : أعجبنى فيها تحديد الأسعار للسلعة الواحدة فى جميع متاجر المدينة بلا استثناء - بل وأكاد أقول فى متاجر مدن الصين جميعا!- الأمر الذى يريح المستهلك من (عذاب) المساومة، والجدل، والتحايل، واضاعة الوقت فى المقارنة بين أسعار عدة حوانيت.. الخ.. كما أعجبنى فى المتاجر الكبرى احتواؤها على كل سلعة تخطر بالبال، حتى المأكولات، ومواد البقالة، والحلوى، والكعك، والخبز، والمشروبات - ولك أن تتصور احتواء محل شيكوريل أو صيدناوى مثلا بالقاهرة على مثل هذه الأصناف!

ولكن لم يعجبنى فى المتاجر المذكورة أن بضائعها فى العادة متشابهة فى مختلف المحلات لا تترك للشارى مجالا كبيرا للاختيار وتغليب الذوق الشخصى، بحكم، كونها كلها تقريبا من الانتاج المحلى للصين، وإذا وجدت سلع نادرة مستوردة من الخارج فانها تباع بأسعار باهظة غير معقولة، تبلغ أضعاف ثمنها..

من أمثلة ذلك اننى اشتريت الفيلم الواحد الألمانى ماركة (اجفا) لآلة التصوير التى كنت التقط لك بها مناظر هذه الرحلة بمبلغ يساوى بالعملة المصرية خمسين قرشا فى حين أننى اشتريته من (هونج كونج) بعشرة قروش!..

أما آلة التصوير ذاتها، وهى ألمانية الصناعة، وكنت قد اشتريتها فى القاهرة منذ عامين بحوالى أربعين جنيها، فقد وجدتها معروضة فى بكين بـ .. بكم تظن ؟ بمائتى جنيه، ولك أن تصدق أو لا تصدق !ومن أجل هذا كنت دائم الانزعاج عليها كلما نسيتها أو تركتها مضطرا فى مكان. ولولا أمانة الصينيين الغريبة لسرقت منى حتما فى أية مناسبة .

والعجيب فى الأمر أن مزايا متاجر الصين، وعيوبها على السواء تنجم كلها عن سبب واحد مشترك، هو أنها جميعا مملوكة للدولة.. والمتاجر التى كانت مملوكة لأفراد، عين أصحابها مديرين لها، مقابل مرتب محدد وحصة من ثمن المبيعات.

وأعجبتنى فى برامج التعليم فى الصين الأهداف الخمسة للحب التى يلقنونها للنشىء منذ نعومة أظفارهم، وفى كل مناسبة، وقد أطلقوا عليها : - وهم يسردونها حسب الترتيب التالى : حب الوطن، وحب الشعب، وحب العمل، وحب العلم، وحب الممتلكات العامة.. وما أحوجنا إلى تلقين هذه المبادئ للنشىء عندنا، ولاسيما المبدأ الخامس منها، كى يمتنع كل زائر لمنطقة آثار مثلا عن حفر اسمه على أحجار المعابد وجدران الأماكن الأثرية.

وكى نقضى على روح الهدم والتدمير التى توحى لكل مار فى الطريق أن يشوه معالم كل ما يصادفه، بأى سلاح فى يده، أو مطواة، أو طباشير، أو قلم ملون!.. أو.. إلى آلاف من أمثلة هذه النزعة الشريرة التواقة إلى اتلاف كل ما هو مملوك للدولة، أو الحكومة، أو الميرى !.

وأعجبنى فى الصينيين، بلا استثناء، ترحيبهم الحار الساذج بضيوفهم من شتى البلاد، ولا سيما من البلاد التى تربطهم وإياها علاقات مودة وأخاء، أو تفاهم وصداقة، أو ميل وإعجاب.. وهم لا يصدرون فى ذلك عن مصلحة أو أغراض ذاتية، وإنما نراهم يعبرون عن ترحيبهم باندفاع عاطفى شرقى كريم مضياف..

والدليل على ذلك أن المساعدات المنوعة التى أمدت الصين بلادنا بها أثناء العدوان الثلاثى، ومنذ ذلك التاريخ حتى اليوم، كانت خليقة بأن تجعلنا نتفوق على الصينين فى العرفان بالجميل والإعراب عن الصداقة والود.

لكن ما حدث هو العكس تماما، وأنى لأعترف - بعد ما لقيناه منهم من ترحيب حماسى مشكور - بأننا مازلنا عاجزين عن استقبال وفودهم التى تفد إلى بلادنا بمثل الحفاوة التى يستقبلون هم بها وفودنا، أو حتى بعض هذه الحفاوة!..

والمسألة فى رأيى مسألة طبيعة، لا تكلف، فقد تكون قلوبنا حارة فى الترحيب بضيفنا، لكن مركبا من الخجل- أو الكبرياء، لا أدرى- يأبى الا أن يدس الفتور فى اليد التى تصافح، أو اللسان الذى ينطق..

أما هم، فكان الواحد منهم حين يصافحنا، أو الصبية منهم حين تقدم باقة الورد إلينا، تظل تهز يدنا بكلتا يديها عدة دقائق، ولسانها يكرر كلمة الاستقبال أو الوداع الصينية المألوفة، مرات لا حصر لها، فى فرحة عصبية عجيبة لا يمكن إلا أن تكون منبعثة من القلب مباشرة.. فرحة كانت تشعرنا بالخجل من أنفسنا، ومن .. برودنا (وأنا أترك للعالم النفسانى الدكتور عبد العزيز القوصى أن يحلل، ويعلل، هذه الخلجات).

وكما أعجبنى تقدير الصينيين للفن وأهله، أعجبنى تقديرهم للأدب والأدباء،

وللقراءة والاطلاع. وحسبك أن تزور معى - عند وصولنا إلى بكين بإذن الله - دور النشر المتعددة ، التى تنشر بعض المجلات مترجمة إلى أربع عشرة لغة، ودار صحيفة الشعب الكبرى، وجمعيات الأدباء وأنديتهم، ومعهد اللغات الشرقية بجامعة بكين.

حيث نلتقى بثلاثة أساتذة وأربعين تلميذة وتلميذ يتكلمون العربية بطلاقة، ودار الكتب العامة، التى يضل الزائر وهو يتنقل بين طوابقها المتعددة ويتفقد مئات الآلاف من الكتب، من جميع اللغات، التى أنشئت لها رفوف خاصة على أحدث طراز يكفل للكنوز الثمينة التى تحملها ما تحتاج إليه من تهوية خاصة.

أقول، حسبك أن تزور معى هذه المعالم الأدبية، وغيرها، كى تغبط معى نصيب الأدب من رعاية القوم والتفاتهم.. أما نصيب الأدباء فهو أحق بالغبطة، وأبلغ مثل على ذلك ما فعلوه تخليدا لذكرى أديبهم الأكبر (لو شون)، ١٨٨١-١٩٣٦، الذى أقاموا له فى بكين وشنغهاى دارين تذكاريتين، تتألف كل منهما من عشرات القاعات والأروقة التى تضم - على جدرانها، وفى فترينات زجاجية مقامة على مناضد فى وسطها- أكبر عدد من التذكارات يستطيع شعب أن يتسقطه ويجمعه كى يخلد به ذكرى إنسان!..

أذكر من هذه التذكارات، على سبيل المثال : صورة فى جميع مراحل حياته.. وصور أبيه وأمه وأفراد أسرته.. وزوجته وابنه .. وصور المنازل التى عاش فيها منذ ولد حتى مات، فى مختلف المدن والقرى الصينية واليابانية.. ونماذج من خطه فى شتى مراحل حياته، وخط أساتذته وناظر مدرسته، وصورهم .. وصفحات من الكتب التى درسها فى طفولته .. وصور حجرات الدراسة فى مدرسته الابتدائية والثانوية.. وصور مدرسيه وزملائه فى مدارس اليابان.. والأدباء العالميين الذين شغف بهم، ونماذج من كتبهم.. وأوراق محنطة من النباتات التى كان يحبها.. ونماذج من التحف والتماثيل التى كان يعجب بها

ويقتنيها في منزله.. ونماذج من كتبه، ورسوم أبطال قصصه.. وعينات من ملابسه، (من فانلاته، وقمصانه، وصدار له) ..

وصور السرير الذى كان ينام عليه، والمقاعد التى كان يجلس عليها.. وأدوات الرسم التى كان يرسم بها غلافات كتبه.. ونسخ من مؤلفاته، وترجماتها إلى اللغات الأخرى .. وذكريات اشتغاله بالتدريس فى جامعة بكين ومدرسة المعلمين. وصور عميد الجامعة وعميد المدرسة .. ونموذج مجسم لمنزله ..

وتمثال له، تعلوه عبارة تقدير له قالها الرئيس «ماوتسى تونج».. وصور زيتية مختلفة له.. ونماذج من خطاباته، وأختامه.. وصور له مع مدام «سن يات سن»، ومع برنارد شو..

وملابسات مرضه عام ١٩٣٦، ثم وفاته، وتشييع جنازته، وحزن الشعب عليه.. و«نوتة» الألحان التى وضعت فى ذكراه.. والمقالات التى كتبت عنه، وصور الخطباء الذين أبّنوه، والاحتفال بذكراه العشرين عام ١٩٥٦ وصورة قبره فى شنغهاى حيث مات.. والحدائق، والمسارح، والكليات، والمدارس التى سميت باسمه فى مختلف مدن الصين.. ومناظر من الأفلام التى اقتبست من قصصه.....الخ.

وعلى بعد خطوات من هذه الدار التذكارية التى أقيمت له فى بكين – والتى أقيمت أخرى أكبر منها فى شنغهاى – يقوم البيت المتواضع الذى عاش فيه (لو شون) أثناء عمله فى العاصمة، ويتألف من جناحين من طابق واحد، تفصل بينهما حديقة صغيرة. ويضم البيت غرفة نومه، وغرفة مكتبه، وعدة غرف لكتبه، وغرفة أمه.. وتقوم على رعاية البيت خادم مسنة كانت تخدم المؤلف فى حياته.

فهل رأيت مثل هذا التخليد لأديب، فى دولة أخرى؟

وأعجبتنى فى الصين الروح الجامعية الصحيحة التى تسود الجو الجامعى.. فان كل فرد فى الجامعة - من الأستاذ إلى الطالب إلى العميد..الخ- يساهم بساعات محددة من وقته كل أسبوع، فى رصف طرقات المدينة الجامعية أو تنسيق حدائقها أو تجميل مبانيها، أو أى عمل يدوى آخر يعود على الجامعة بالنفع ويزيد من رابطة التعاون بين الأسرة الجامعية كلها!.. ومن أفيد النظم المتبعة هناك أن يبيت الأساتذة جميعا فى مساكن مخصصة لهم داخل المدينة الجامعية، وكذلك يبيت أكثر الطلبة فى مساكنهم الجماعية بنفس المدينة -التى تقع فى الضواحى البعيدة عن المناطق المزدحمة من البلدة- وهكذا يعيش الطلبة والأساتذة ويتلقون العلم فى جو واحد منعزل عن كل ازعاج، وفى رابطة وتقارب جميلين يساعدان على التفرغ للبحث والتحصيل وييسران على الطلبة الاسترشاد بآراء مدرسيهم.

وأعجبتنى فى الصين نهضتها الصناعية والانتاجية الضخمة، الجبارة!.. أن الصين تنتج اليوم فى كل باب من أبواب الانتاج، كل ما يخطر على البال من منتجات، وصناعات .. وقد طفت بأرجاء المعرض الدائم للانتاج الصينى، الذى شيدوا له قصرا فاخرا ضخما فى (كانتون) يعتبر من أجمل قصور المعارض العالمية، فرأيت فيه نماذج لمنتجات ومصنوعات لا حصر لها.

ولم أكن أتصور أنها تصنع محليا فى الصين!.. فالصين تصنع اليوم الطائرات النفاثة، كما تصنع عدسات التصوير.. تصنع القاطرات وسيارات النقل، إلى جانب عدادات الكهرباء.. تصنع الثلاجات الكهربائية، وأجهزة الأشعة والأدوات الطبية.. آلات السينما، وأجهزة المراصد الفلكية.. ماكينات الحياكة، والساعات وأقلام الحبر.. الدراجات، وآلات النسيج والموازين..

أجهزة سنترالات التليفون، وأدوات الموسيقى، والبيانو.. آلات الطباعة، وأدوات المائدة و«الصينى»..الجلود ومنتجاتها، والمأكولات على اختلاف أصنافها.. إلى ألف سلعة وسلعة أخرى لا سبيل إلى حصرها!

وفى صدر إحدى القاعات الكبرى للمعرض خريطة هائلة تحتل جدارا كاملا وتبلغ مساحتها عشرات الأمتار، توضح سيل منتجات الصين وكيفية توزيعها فى أنحاء العالم. انها خريطة لا تملك الا أن تحس وأنت تتأملها أنك أمام وثبة جبارة .. لقارة بأكملها!..

وفى الطابق الأرضى من المعرض جناح كامل لنوع آخر من منتجات الصين. انها منتجاتها الأصيلة التى اشتهرت بها منذ آلاف السنين .. منتجاتها فى فنون الخزف المطعم، والعاج، واليشب، والأبنوس، واللوحات البارزة أو المحفورة على الخشب أو «اللاكار» الأسود، والمطعمة بالصدف ومختلف الأحجار الصغيرة.. وأوانى الزهر الرائعة المصنوعة من آل «كلوازنيه» الفاخر.

وهى تحف غالية الثمن تزين قصور ملوك العالم وأثريائه منذ مئات السنين.. ثم أنواع «البارفان» أو الستار الخشبى الفاصل بين الحجرات، المزين بمناظر محفورة وبارزة ومطعمة يعجز القلم عن وصف جمالها، ودقتها، ومدى ما تتطلبه من صبر وجهد!- وسوف أحدثك عن أماكن صناعة هذه التحف عند زيارتنا للعاصمة بكين، وهى أماكن تقليدية قديمة ضيقة، أشبه بحى «خان الخليلى» فى القاهرة.

وإلى جانب الأنواع السابق ذكرها من التحف، يضم المعرض جناحا خصص لتحف أخرى لا تقل عنها جمالا ولا دقة، هى أشغال الأبرة والتطريز على الحرير والتيل والصوف، ويربو عدد الأنواع أو الفنون التى تدخل فى هذا الباب على العشرين أو الثلاثين نوعا مختلفة، ينافس بعضها بعضا فى الروعة والابداع!

.. وجناح ثالث لفن آخر من فنون الصين العريقة، هو «فن» صناعة السجاد. والسجاد الصينى من أغلى وأثمن أنواع السجاد فى العالم، وله طابع خاص يختلف تماما عن طابع السجاد العجمى مثلا، إذ يتميز فى أكثر الأحيان

بالمساحات الكبيرة «السادة» التى تزينها فى أحد أركانها وردة كبيرة زاهية الألوان، أو نقش كبير رائع الجمال، على العكس من السجاد الفارسى المزدحم بالنقوش الرفيعة الدقيقة المتداخلة.

فإذا انتهت جولتنا فى هذا المعرض الضخم، فتعال نصعد إلى الطابق المخصص منه لاستقبال التجار القادمين من شتى بقاع العالم للاتفاق على تصدير ما يبغون من منتجات الصين المختلفة.. والطابق المذكور يتألف من ردهة طويلة لا يبلغ البصر مداها.

امتلأت بالمناضد التى يجلس إليها التجار ليتصفحوا شتى النشرات المصورة للمنتجات والصناعات المنوعة، ويبحثوا - بين دخان الشاى والسجاير- أضخم صفقات التصدير إلى بلادهم!..

وعلى جانبى هذه الردهة الطويلة عشرات من الحجرات الصغيرة التى خصصت كل منها لفرع من فروع الانتاج أو نوع من أنواع السلع، وقد جلس فيها الاخصائيون فى السلعة المذكورة، مزودين بكافة البيانات والنشرات الخاصة التى يتطلبها التجار.

وهكذا يستطيع التاجر الأجنبى الذى يخطف رجله من هونج كونج إلى كانتون، أن يلم بكافة منتجات الصين، من كل نوع، ويتعاقد على ما يشاء منها، خلال زيارة واحدة لمعرض كانتون الدائم الذى حدثتك عنه، دون أن يضطر لتحمل مشقة ونفقات السفر الطويل إلى بكين أو شنغهاى أو سواهما من مدن الصين البعيدة. وليتنا نقتبس فى بلادنا هذا المثل من أمثلة تيسير الأمور أمام كل زائر أجنبى أو تاجر يفكر فى التعامل معنا، فى أى باب من أبواب التعامل.

والآن ، تعال أعطيك بضعة أمثلة ، مزودة بالاحصاءات، عن انتاج الصين الحالى فى مجال التصنيع على وجه الخصوص :

انتجت الصين خلال عام ١٩٥٧ مائتى قاطرة سكة حديد بخلاف عدد العربات الذى يفوق هذا الرقم بمراحل. وكان انتاجها من القاطرات فى عام ١٩٥٢ عشرين قاطرة فقط.

وزاد انتاجها من سيارات النقل فى العام المنصرم على ثلاثين ألف سيارة (لورى)، مقابل أربعة آلاف سيارة فى عام ١٩٥٢ وهم يقدرون أن يصل هذا الرقم فى خلال خمسة أعوام إلى تسعين ألفا.

وبلغ انتاجها السنوى من المحاريث ٦٨٩ ألف محراث مقابل خمسة آلاف فى عام ١٩٥٢.

وانتاجها من الفحم ١١٢٫٩٨٥٫٠٠٠ طن، مقابل ٦٣٫٥٢٨٫٠٠٠ طن فى بداية مشروع الخمس سنوات.

ومن البترول ٢٫٠١٢٫٠٠٠ طن، مقابل ٤٣٦٫٠٠٠ طن.

ومن القوى الكهربائية ١٥٫٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو وات مقابل ٧٫٢٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو وات.

ومن الحديد ٤٫٦٧٤٫٠٠٠ طن، مقابل ١٫٩٠٠٫٠٠٠ طن.

ومن الصلب ٤٫١٢٠٫٠٠٠ طن، مقابل ١٫٣٥٠٫٠٠٠ طن

ومن المنسوجات القطنية ما قيمته ٥٫٥٨٣٫١٠١٫٠٠٠ «يوان» - بالعملة الصينية - وتستطيع أن تقسم هذا الرقم على سبعة لتعرف الرقم بالجنيهات المصرية، وذلك مقابل ٣٫٨٢٨٫٩٠٧٫٠٠٠ يوان فى عام ١٩٥٢.

ومن المنتجات اليدوية التحف والسجاد وما شابه ذلك ما قيمته ١١٫٧٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠ يوان، مقابل ٧٫٣١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ يوان فى عام ١٩٥٢. وقد زاد عدد عمال الانتاج اليدوى خلال الخمس سنوات من ٢١٨٫٠٠٠ إلى ٢٫١٠٠٫٠٠٠ عامل.

وأكتفى من الاحصاءات فى هذه المناسبة بهذا القدر.

وقد تسألنى بعد أن سردت لك كل هذه النواحى التى أعجبتنى فى الصين الشعبية : وما الذى لم يعجبك فيها إذن، بالإضافة إلى بضعة الأمور التى أشرت إليها فى سياق هذا الحديث ؟

والجواب ، بمنتهى الصراحة والضمير الخالص : لم يعجبنى فيها أن حياة الفرد فيها ماتزال حتى الآن شاقة قاسية، لأكثر من سبب :

لأن مستوى الأجور منخفض إلى حد كبير.. إلى حد أقل منه فى دولة فقيرة مثل مصر، فأجر عامل الطباعة مثلا فى جريدة الشعب، وهى أكبر صحف الصين ، هو ٣٠ يوان، أى حوالى أربعة جنيهات وربع جنيه فى الشهر.. ومرتب المحرر فيها يتراوح بين ٥٠و١٠٠ يوان، ومرتب مدير المطبعة ١٢٠ يوان، ومرتب رئيس التحرير ٣٠٠ يوان. ومرتب الموظف المتوسط فى مصانع الحديد والصلب ٧٥ يوان فى الشهر، ومرتب المشرف الفنى فيها ٩٥ يوان.. وحين تسأل عن مستوى المعيشة الطيبة للشخص العادى يقولون لك أنه يتراوح بين ٢٠٠و٢٥٠ يوان فى الشهر.

وقد يكون عذر القوم أن الدولة تبنى نفسها، بعد أن تسلمت زمام الأمور فى أعقاب حكم فاسد أتلف كل مقدسات الشعوب، وأنها لكى تحقق آمال الشعب فى الرخاء لابد أن تفرض عليه سنوات من المعيشة الشاقة والحرمان من شتى ضروب الكماليات.. والحرمان من الكثير من مظاهر البهجة..

بل انهم يقولون لك أن الحالة الآن أحسن بكثير مما كانت عليه فى العام الماضى، والعام الأسبق، وهكذا.. وأن كل عام جديد يأتى يحمل معه شيئا من التحسين فى مستوى الأجور ومستوى المعيشة..

ولعل هذا ما يجعل الفرد هناك يتقبل كل ما يفرض عليه من تقشف ومن قيود، قبولا حسنا، بصدر رحب.. وابتسامة دائمة جديرة بالاعجاب.

ولم يعجبنى فى الصين الشعبة اختفاء كل أنواع المقاهى والمطاعم والمشارب ومحال الحلوى .. الخ.. وأنا لست من أنصار المقاهى أو ممن يهضمون فكرة الجلوس فيها ساعات كاملة فى خمول، لكنك حين تبحث فى عاصمة دولة أو فى مدينة كبرى من مدنها عن مكان تستريح فيه أثناء سيرك لتتناول قدحا من القهوة أو من عصير البرتقال، أو شيئا من الساندويتش أو الحلوى..

ولست واثقا من أنهم يسمحون للمار فى الطريق أن يدخل فندقا ليطلب شيئا من هذا القبيل .. أقول انك حين تصادف مثل هذا العناء، فى أمر كهذا فسوف تقرنى ولا شك حين أقول أن الحياة فى تلك الدولة الكبرى الناهضة ما تزال حتى الآن، شاقة قاسية، برغم كل الخطوات الجبارة التى حققتها الدولة للشعب الذى عاش طويلا ضحية للاستغلال البشع، والأوبئة، والمجاعات، والفياضانات، وفساد الحكم.. والأفيون..

وفى مقدمة هذه الخطوات التى حققتها الدولة للشعب الغاء الجوع، والعرى، والحفاء، والأمية، والتسول.. وكل ما أسلفت الإشارة إليه من نواح جديرة بالإعجاب.

ولم يعجبنى فى الصين الشعبية، الزى الموحد للشعب، الذى يجعل ستمائة مليون نسمة يتشابهون فى المظهر، فلا يبدو لكل منهم ذوق شخصى أو شخصية واضحة المعالم لأول وهلة. ورغم أنى لست ممن يهتمون بالمظاهر، فان توحيد الزى على هذه الصورة يفقد كل شخص الخصائص المميزة لعمله أو مهنته، ويوقع الكثيرين فى ارتباكات، إليك أحد أمثلتها : عند حلولنا فى أحد فنادق مدينة (هانشو) أقبل خدم الفندق بعد حين يحملون حقائبنا ثم يضعونها فى الردهة العليا، كى «يفرز» كل منا حقائبه ويطلب نقلها إلى غرفته.. فلما قيل لى أن الحقائب وصلت، خرجت من غرفتى لأرشد الخادم إلى ما يخصنى منها.

وإذ وجدت فى الردهة رجلا واقفا بجوار الحقائب، حسبته أحد الخدم فأشرت له إلى حقائبى كى يحملها.. وعندئذ نادى الرجل شخصا آخر وكلفه بتنفيذ المهمة.. وأدركت من فورى أننى أخطأت فى ظنى، لكن خجلى من نفسى بلغ غايته حين تبينت أنه ليس إلا .. مدير الفندق.

وهكذا تجد الجميع هناك يرتدون نفس الزى، المغلق عند الرقبة: الكبير والصغير.. الرئيس والمرؤوس .. الوزير وساعى مكتبه.. فيما عدا فارق فى نوع القماش الذى يصنع منه ذلك الزى، وفى الطبقات الأخرى من الثياب التى تستتر تحت هذا الزى..

ولست أنكر أن لهذا التوحيد فى السترة الخارجية بعض الفوائد من حيث اعفاء الفقير من نفقات القميص ورباط الرقبة، إذا استطاع اقتناءهما والاحتفاظ بهما على الدوام سليمين نظيفين، أو اعفائه من مذلة الظهور بهما ممزقين، إذا لم يستطع غير ذلك.. أقول، لست أنكر فائدة الزى الموحد من هذه الناحية، لكنى أعتقد أن لهذا الزى – فى مقابل هذه الفائدة – أكثر من نتيجة عكسية، تخلق البلبلة والارتباك!

وبهذه المناسبة، يهمنى أن أوضح هنا حقيقة قد تكون التبست عليك : فليس الزى الموحد فى الصين «اجباريا» بمعنى هذه الكلمة، أى بقوة القانون – بدليل أننى رأيت أشخاصا يرتدون الزى العادى، وإن كانت نسبة هؤلاء لا تزيد على واحد فى الألف، أو أقل– وإنما أغلب ظنى أنه اجبارى بقوة العرف، وأن الكبار ارتدوه ليشجعوا الصغار على ارتدائه، ويكونوا قدوة لهم.. والصغار ارتدوه تيسيرا على أنفسهم فى النفقات.. وما انتشار هذا الزى فى نظرى سوى دليل على ما أشرت إليه منذ قليل، من انخفاض مستوى المعيشة ومستوى الدخل بين أفراد الشعب.

ولم يعجبني في الصين الشعبية ندرة سيارات الأجرة في الطرقات، وعدم استطاعة الفرد استخدام السيارة منها إذا صادفها في الطريق، وإنما يتعين عليه إذا أراد سيارة تقله إلى مكان أن يطلبها بالتليفون من الجهة المختصة، ويحدد المسافة التي ينوي أن يقطعها بها..

وأجر هذه السيارات باهظ للغاية، إذ يبلغ نحو خمسة وعشرين قرشا مصريا عن الكيلو الأول.. أما السيارات الخاصة فهي تكاد تكون منعدمة، فيما عدا السيارات الحكومية والسيارات المملوكة للفنادق - المملوكة بدورها للدولة -

وهي مخصصة في الغالب للوفود المختلفة التي تزور الصين.. وسبب ندرة السيارات الخاصة ارتفاع أسعار الوقود، الناتج عن تخصيصه للصناعات، ارتفاعا يجعل من العسير على أي شخص أن يستخدم سيارة خاصة.

ويتفرع عن هذا أن أكثر اعتماد الشعب في مواصلاته بالاضافة إلى عربات الترام والأتوبيس بالطبع - على وسيلتين شائعتين : الدراجات، وهي منتشرة هناك انتشارا كبيرا بين جميع الطبقات، بحيث تزدحم بها الطرقات (حتى ليخصص لها جانب خاص مستقل من الشوارع الكبرى الرئيسية في العاصمة).. والوسيلة الثانية هي عربات «الريكشو» التي يجرها رجل يقود دراجة، وليس «دابة آدمية» تجري على قدميها كما هو الحال في مستعمرة هونج كونج.

بقي سؤال أحس أنك في شوق إلى معرفة الجواب عليه : إلى أي حد تطبق مبادىء اشيوعية في الصين؟ وهل صحيح أنها تختلف في التطبيق عن الشيوعية في الاتحاد السفياتي؟

وأكتفي الآن بالإشارة إلى حقيقة واحدة في معرض الإجابة عن هذين السؤالين، وهي : أن الشيوعية الصينية تسمح للشخص بامتلاك عقار واحد فقط، هو منزله الخاص الذي يقطنه.

أما بقية ما يتصل بهذا الموضوع من تفصيلات، فانى أوثر ارجاءها إلى حين، حتى أمهد للحديث عن نظام الحكم الحالى فى الصين، والظروف والملابسات والدوافع التى أدت إليه، أمهد لذلك بسرد قصة نظم الحكم السابقة فى تلك البلاد، منذ فجر الحضارة الصينية إلى اليوم.. وهى عجالة تاريخية شائقة لابد منها لكى تتابع ما سأحدثك عنه من معالم تلك الحضارة حين نزور مدن الصين الكبرى.

فتعال نقلب صفحات التاريخ، لنعود إلى الوراء آلاف السنين .. إلى بداية قصة حضارة هذا الشعب العريق .. وسنقسم هذه القصة إلى مراحل، تبدأ المرحلة الأولى منها من عام ٢٣٥٦ قبل الميلاد وتنتهى فى عام ٣٨٤ بعد الميلاد.

ففى ذلك التاريخ الأول البعيد، بينما كانت الحضارة تتقدم وتتبلور فى مصر، والهند، والعراق، كانت تتقدم وتتبلور أيضا فى رقعة أخرى ضخمة من العالم، هى الصين، حيث كان الفكر الفلسفى والصوفى يحلق فى مستوى شاهق.

على أن حضارة الصين كانت ذات طابع خاص متميز عن الحضارات الثلاث الأخرى، إذ كان شعبها منعزلا عن شعوب بقية البلاد، يتطور بمفرده دون أن تكون له صلة بما يجرى فى البقاع الأخرى من العالم.

فهناك ، فى وادى «النهر الأصفر» الذى يبلغ طوله ٢٦٠٠ ميل، وفى وادى نهر «يانجنسى» الذى يبلغ طوله ٣٤٠٠ ميل كان الشعب الذى انحدر من مصدر مجهول يتجمع ويتكاثر فى عزلة عن بقية العالم، بحكم العوائق الثلاثة التى تفصله عن الشعوب الأخرى، وهى : صحراء (جوبى) من ناحية الشمال، وسلاسل الجبال الشاهقة من ناحية الغرب، والمحيط العريض المتلاطم من ناحية الشرق.

ومن ثم عاش هذا الشعب فى القرى التى أقامها لنفسه، وكان يستخدم الأدوات الحجرية البدائية، والحيوانات التى تعيش فى المنطقة، وفى مقدمتها الخنزير البرى.. وتعلم كيف يغزل، ويصنع الخزف..

وقد ظلت هذه الحضارة البدائية فترة طويلة غير متأثرة بقبائل البدو التى كانت تنحدر من الشمال فى مناطق أخرى متجهة نحو البر، فلم يشعر الشعب المستقر بوجود تلك القبائل من الرحل -التى تعرف باسم (الهون)[1]- إلا منذ عام ٨٥٠ قبل الميلاد، حين دخلت هذه القبائل أرض الصين، حاملة معها أول معرفة بمعدن الحديد ووجوه استخدامه.

وهكذا يمكن القول أنه إذا كانت حضارة العصر الحجرى الحديث قد أثرت فى الصين، كما أثرت فى غيرها من البلاد، فان هذا التأثير يقف عند حد القاء البذور، ثم تنقطع الصلة بين الحضارتين عند هذه المرحلة.

ويواصل شعب الصين تطوير حضارته وفقا لظروفه وطبيعته، وهو قابع فى عزلته التى تفرضها عليه الصحراء، والجبال، والبحر!

واستقر أولئك القوم على ضفاف النهرين الكبيرين، اللذين كانا يمدانهم كل عام بتربة خصبة غنية بالطمى يحملانها إليهم من المرتفعات كى تغذى أرضهم. ولكن شاء سوء طالعهم أن يكون حكامهم فى أغلب الأحيان من أسوأ مستوى، فتعاقبت الحروب الأهلية فى داخل البلاد، وكانت أخلاق العلية منهم مثلا سيئا للدهماء وإن لم يزد انحطاط هذه الأخلاق عن الدرك المتعارف عليه يومئذ بين علية القوم فى البلاد الأخرى.

ولكن، رغم تلك الحروب، وذلك الانحطاط الخلقى، فقد ازدهرت التجارة،

---

(١) ظل الصينيون محتفظين بسر صناعة الحرير آلاف السنين ، حتى كشف هذا السر وعرف أن دودة القز هو الذى ينتج الحرير الذى يخرج من فمه.

وصارت تعقد الأسواق والمعارض التجارية فى مراكز متعددة بكل منطقة!.. ويمكن القول أنه منذ أربعة آلاف سنة كانت هناك فى الصين بذور ثقافة ذهنية اتخذت مظاهرها الأولى فى معرفة الكتابة وعلم الفلك!.. ثم استمر التطور .. حتى بلغت الثقافة الأدبية فى الصين، فى الفترة بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد، مستوى يفوق ما بلغته فى أوربا حتى بداية القرن السابع عشر بعد الميلاد..

ولم يكن هذا التفوق مقصورا على الأدب وحده، بل أن الحكم نفسه يسرى بالنسبة لكثير من الفنون التى ازدهرت فى الصين منذ ثلاثة آلاف سنة، فى حين أنها ظلت مجهولة فى أوربا إلى ما قبل ثلاثمائة سنة!..

وإلى جانب الأدب والفن، أحرز الصينيون منذ تلك العصور تقدما فى نواح أخرى، فزرعوا الكتان ونسجوا منه الثياب، كما ربوا دودة القز وحصلوا منها على الحرير![1]

---

(١) هذه القبائل اسقطت الامبراطورية الرومانية وقبائل الصين البدوية هى المغول التى اتحدت مع التتار الروس واسقطوا الخلافة الإسلامية فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ.

أساطير بدء الخليقة عند الصينيين

والتاريخ القديم للصين محاط بضباب الأساطير، التى تروى قصصا شتى عن بدء الخليقة، وكيف نشأت الأرض، والكائنات الحية التى تعيش على ظهرها. والصينيون - شأنهم شأن العبريين - يستهلون تاريخ البشرية بخلق الرجل والمرأة، بمعرفة الآلهة.. ثم تتسلسل عن هذين الأبوين الأولين للبشرية شجرة ضخمة من السلالات التى عاش أفرادها الأولون أعمارا طويلة للغاية.

وأكثر الأحداث المنسوبة لهذه السلالات فى عرف الصينيين تبدو خرافية، لكنها تبدأ فى اتخاذ مظهرها الجدى كلما اقترب بها العهد من فجر التاريخ.. حتى نقرأ أخيرا عن حاكم علم الشعب كيف يعيش ويحارب، وكيف يقيم الأكواخ من أغصان الشجر، ويولد النار من احتكاك عصاتين..

كما علمهم كيف يعتبرون الاله «تين» خالقهم وحافظهم.. ولم يلبث القوم - الذين كانوا يعيشون فى صورة قبائل منفصلة - أن اخترعوا المحراث، وصاروا يكرسون أياما معينة للعبادة وتقديم الذبائح للآلهة.

منذ تلك المرحلة يزداد نصيب الحقائق من تاريخ الصين، ويقل نصيب الخرافة .. ومنذ عهد اختراع المحراث تبدأ حضارة الصين فى التقدم المتواصل، بخطوات سريعة.. فتخرج فى عهد الحاكم «ياوو»، حوالى عام ٢٣٥٦، من غلالة الضباب التى تغلف المراحل السابقة من تاريخ تلك المنطقة .. فنقرأ أنه - هو وخلفه، الحاكم «شون» - كانا خير قدوة صالحة للشعب، بحيث عمت الفضيلة ربوع البلاد .. ولم يكن للجريمة وجود!.. وازداد الشعب تعدادا، ورخاء.. وأقيمت الأسواق والمعارض فى جميع المدن.. ونزحت مياه الفيضان من الأراضى التى كانت تغرقها.. الخ.

وقد طالما كان النهر الأصفر لعنة الصين وبركتها فى وقت معا، بفيضاناته

المتكررة وتحوله عن مجراه، الأمرين اللذين كانا مجلبة للكوارث والرخاء، جنبا إلى جنب.. فكلما انحسرت مياهه الفائضة، عن وجه الأرض، تركت وراءها ثروة من الطمى الذى هو من التربة بمثابة الدسم من الطعام!.. وقد حدث فى فترة من الفترات أن عكف البطل المدعو «يو» على درء خطر الفيضان عن رقعة كبيرة من الأرض، الأمر الذى استغرق منه تسع سنوات من العمل المتواصل.. فكان أن كافأه مواطنوه المقدرون للجميل بتنصيبه ملكا عليهم عند وفاة سلفه الملك «شون».

ثم تعاقب على عرش الصين بعد ذلك عدد من الحكام الفاسدين .. حتى ثار الشعب فى النهاية على آخرهم، المدعو «كى» -عام ١٨١٨ قبل الميلاد- فاستأصل كل أثر له ولأسرته، وبذلك انتهى عهد أسرة «يو»، الملك المهندس الذى جلب - فى الماضى - الخير والرخاء للصين.

وجاء فى مكان الملك المخلوع حاكم يدعى «تانج»، عام ١٧٦٦، وهو أول امبراطور للصين ينتمى إلى أسرة «شانج»، فنجح بمعاونة مستشاريه الحكماء فى رد البلاد إلى قدر من الرخاء.. لكن من خلفوه عادوا يجلبوا على الشعب البؤس والحرمان.. حتى ثار مرة أخرى فخلع الامبراطور ونصب المدعو «وو وانج» بدلا منه، وكان الحاكم الجديد - وهو مؤسس أسرة «شو» - رجلا شجاعا، موهوبا، فاضلا..

لكنه ارتكب غلطته الكبرى بتقسيمه الامبراطورية إلى اثنتين وسبعة ولايات اقطاعية، كى يخلع المناصب على أقربائه وأصدقائه. وسرعان ما ظهر خطل هذه الفكرة واضحا للعيان حين احتدمت الغيرة بين الأمراء، ونشبت الحرب الأهلية .. وسرعان ما اضمحلت سلطة الامبراطور وتضاءل نفوذه !

فى تلك الآونة برز أعداء آخرون خارج حدود الامبراطورية ، حين ظهر «التتار» المنغوليون لأول مرة - عام ٩٣٦ ق.م - فاستغلوا فرصة الانقسام بين

الأمراء وشنوا على البلاد غاراتهم الهوجاء، التى زادت الحالة سوءا وضاعف من بؤس الشعب!

وظلت الصين قرونا تمزقها الحروب الأهلية من الداخل، وغارات العدو من الخارج !.. وفيما هى على تلك الحال من التعاسة، ولد أعظم من أنجبت أرضها : فيلسوفها الحكيم «كونفوشيوس» ، عام ٥٥١ ق.م.

كان «كونفوشيوس» فقيرا من عروض الدنيا، لكنه من أصل رفيع، يمتد نسبه إلى ملوك أسرة «شانج» !.. واسم كونفوشيوس هو التحرير اللاتينى لكلمة (KUNG FU - TZE) ومعناها «السيد كونج». وقد صادف عهده حقبة من الزمن كانت الصين خلالها تمر بظروف شبيهة بالظروف التى مر بها العالم الحديث فى عصرنا الحاضر..

فعكف كونفوشيوس على البحث عن مخرج لبلاده من متاعبها المستعصية .. فلما هداه بحثه إلى وضع يده على بيت الداء، أو رأس البلاء، تبين أن جهل الشعب من جهة، وأنانية حكامه وغباءهم من الجهة الأخرى ، يحولان بينهم وبين اتباع نصائحه !.

وكان فقره قد اضطره إلى أن يبدأ حياته العملية كمدرس – وكان يومئذ فى الثانية والعشرين – فاتجه ، مثل أفلاطون، إلى تلقين النشىء مبادىء الحكومة الرشيدة والأخلاق الحميدة .. وسرعان ما جذبت حكمته وعلمه أفواج التلاميذ إلى المعهد الذى افتتحه لهذا الغرض – الأكاديمية –

بل لقد بلغ الحماس ببعضهم إلى حد مساعدته فى مشروعه بأموالهم .. فلم يبلغ كونفوشيوس الثلاثين حتى كان قد أضحى شخصية ذائعة الصيت مسموعة الكلمة، تحظى آراؤها الانشائية السديدة باحترام الجميع !

وكانت الفوضى ضاربة أطنابها يومئذ فى وطنه، فسأله الحاكم أن يشير

عليه بما يراه كفيلا باصلاح الحال وإعادة الأمور إلى نصابها .. لكنه حين أدلى بآرائه، رفض الحاكم مشورته .. فما كان منه إلا أن أبى بدوره أن يقبل المكافأة التى رصدت له جزاء استشارته !.

وانقضت خمس عشرة سنة، تابع خلالها كونفوشيوس تعاليمه ودراساته.. ولم ينقطع عنها الا ليتولى منصب الحاكم لمدينة (شونج تو)، فأدخل فيها من الاصلاحات الكبرى ما بدل مسلك أهلها وأحواله، مما أثلج صدر الحاكم العام للولاية، فعين كونفوشيوس وزيرا للجريمة، (أى وزيرا للعدل).

ويقرر المؤرخون أن هذا التعيين تمخض عن نتائج فاقت كل حسبان، فقد توقف سيل الجرائم على الفور، وانقطع دابرها تماما !.. بل لقد حدث انقلاب شامل فى مسلك الناس : « فأخفى الأشرار رؤوسهم فى الجحور، وصار الرجال مخلصين، والنساء طيعات».. فلم يلبث كونفوشيوس أن أصبح معبود الجماهير، يمجدونه ويتغنون بحمده .

ولكن ، برغم هذا النجاح، يدهشنا أن نقرأ ما تلا ذلك من أحداث : فحين انتهت مهمة كونفوشيوس المؤقتة، لم يجد حاكما آخر يوليه منصبا فى ولايته، رغم أنه ظل يتنقل من ولاية إلى ولاية، طيلة ثلاثة عشر عاما، آملا أن يجد من يتخذه مستشارا له، أو يتيح له الفرصة كى يقيم حكومة نموذجية تغدو مركزا لاصلاح عالمى.

الفصل الرابع:

الآداب المصرية(١)

سجلت الآداب المصرية على صفحات البردى واللخاف بخطوطها التى عرفناها.. الهيروغليفى الهيراطيقى. منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد .. والديموطيقى منذ القرن السابع قبل الميلاد.. ثم القبطى منذ القرن الثانى للمسيح.. وظلت لغتها على مدى آلاف طويلة من السنين واحدة متصلة فى أساسها.. ولكن مع تمايز خفيف وتطور يسير فى نحوها وأساليبها وهجاء كلمتها بين كل عصر وآخر من عصور تاريخها الطويل.

فبدأت آداب الدولة القديمة فى بداوة وجفاف حينا .. وفى جزالة وعنجهية حينا آخر نتيجة لارتباط بعضها بتعبيرات ونصوص ورثتها عن عصور ما قبل التاريخ.. وارتباط بعضها الآخر بتواليف الكهنة البعيدة بعض الشىء عن حياة الناس الفعلية وخلجات نفوسهم ..

واستقرت تقاليد الآداب فى الدولة الوسطى وتميزت بالنقاء والصقل والوضوح.. ثم تضمنت الآداب فى عهد العمارنة مختارات من لغة الحديث الدارجة واعترفت بها..

وأدت هذه الخطوة إلى افساح مجالات التعبير أمام آداب عصور الرعامسة لاسيما مع انتشار التعليم فيها.. وكثرة ما تقبلته من ألفاظ شرقية دخيلة وأخيرا حاولت العصور المتأخرة.. إحياء أساليب الدولتين القديمة والوسطى فى بعض نصوصها.. عسى أن تنعكس عليها أمجاد أهلها.

أما عن الحدود الزمنية لفروع الأدب المصرى .. فليس من اليسير القطع

---

(١) آداب السلوك عند المصريين القدماء - محمد عبد الحميد بسيونى - مجلة الأسرة .

بها لا سيما فى أول أطوارها.. فلا شك فى أن أهل ما قبل التاريخ.. الذين لم يحرفوا الكلمة المكتوبة.. ولم يتركوا لنا أدبا مدونا.. كانوا يستمتعون على الرغم من ذلك بالقصة الشفهية.. والأغنية الشعبية.. والبطولات المروية.

وكان هناك النصيحة التى يوجهها .. آباء مثقفون .. ومعلمون من الكهان والمتدينين.. ثم أدباء انتحلوا لأنفسهم سمات الآباء تارة .. وسمات المعلمين تارة أخرى .. وتفاوتت المستويات الاجتماعية لهؤلاء .. فكان منهم أمراء ووزراء .. جنبا إلى جنب مع أفراد من أواسط الكتاب والكهان.. ذلك مما يعنى أن الحكمة لم تكن وقفا على طبقة معينة من الناس دون الأخرى..

وقد تلاقت سبلهم فى ثلاث نواح.. وهى .. أن أغلبهم نسب نصائحه إلى خبرته الشخصية وتجارب أسلافه أكثر مما نسبها إلى وحى السماء وأوامر الأرباب.. وأن كلا منهم حاول أن يتجاوب بتعاليمه مع الأوضاع التى ارتضاها الفراعنة.

.. فهناك بتاح حتب .. الذى كان وزيرا من القرن الخامس والعشرين ق.م ومن أقدم أصحاب التعاليم.. وفى سياق حديثه صور لولده سبيل الاستقرار فى الأسرة قائلا له .. «إذا أصبحت كفئا كون أسرتك .. وأحبب زوجتك فى حدود العرف. وعاملها بما تستحق.. أشبع جوفها.. واستر ظهرها.. وعطر بسرتها بالدهن العطر فالدهن ترياق لبدنها. وأسعدها ما حييت..

فالمرأة حقل نافع لولى أمرها.. ولا تتهمها عن سوء ظن .. وامتدحها تخبت[1] شرها.. فان نفرت راقبها واستمل قلبها بعطاياك تستقر فى دارك.. وسوف يكيدها أن تعاشرها ضرة فى دارها».

.. وفى مقابل قيامه بهذه المسئوليات الأسرية.، دعاه إلى سبل التنعم مع

---

(١) تطفى، قال تعالى : كلما خبت زدناهم سعيراً.

البساطة والتوسط قائلا له .. «ساير نفسك ما حييت.. ولكن لا تتجاوز العرف.. واياك أن تبتر ساعة المتعة.. فالنفس تأبى أن يفسد وقت متعتها.. ولا تستنفد من شئون اليوم أكثر مما يعول دارك.. وعندما يواتيك الثراء ينبغى أن يستمتع القلب.. فلن يجدى الثراء إذا أهمل القلب..

وكن سمح الوجه مادمت حيا.. فان ما يخرج من الشونة لن يعود فيدخلها .. «ومن أطاع هواه انتهى إلى الثمن دون سواه».

.. وقد شارك بتاح حوتب بعض شهرته فى الدولة القديمة وزير آخر ربما كان يدعى كا ارسو .. كتب تعاليمه لأولاده.. ولولده الأكبر «كايجمنى» على وجه الخصوص .. وكان من طريف، قوله وهو يدعوه إلى أن يؤثر العمل على الكلام.. «دع سمعتك تزكو وفمك صامت.. تُدع إلى أعلى المناصب.. وقوله وهو يدعوه إلى القناعة والتحكم فى النفس».. إذا جالست قوما .. فتعفف عن الطعام ولو كنت تشتهيه.. فانها برهة قصيرة تقهر الرغبة فيها .. وقد خسأ من شره جوفه.. وإذا جالست نهما فكل عندما تنتهى شهيته.. وإذا شربت مع سكير فشاركه حين يبلغ كفايته.. فالمرء إذا برىء من ملامة الطعام لن تسوءه كلمة».

.. وقال : إن قدحا من الماء يروى علة الظامىء.. وملء الفم من حشائش الأرض يقيم أود القلب.. ورب حسنة تقوم مقام الخير كله.. ونزر يسير يغنى عن الكثير كله.

بعد ذلك أراد الحكيم الأديب «آنى» من أهل القرن السادس عشر ق.م أن يرشد ولده إلى مقومات السعادة فى الأسرة.. فقال له : «تخير زوجتك حين الصبا وأرشدها كيف تصبح انسانة وعساها تنجب لك طفلا.. فانها إذا أنجبته لك وأنت شاب استطعت أن تربيه وتجعله رجلا.. وطوبى للرجل.. إذا أصبح كثير الأهل. وأصبح يرتجى من أجل أبنائه».

ثم قال له : «لا تقس على زوجتك فى دارها إن أدركت صلاحها.. ولا تسألها عن شىء أين موضعه.. إذا تخيرت له وضعه الملائم.. افتح عينيك وأنت صامت تدرك فضائلها.. وإن شئت أن تسعد.. فاجعل يدك معها وعاونها.. يجهل كثير من الناس كيف يمنع الإنسان أسباب الشقاق فى داره وقد لا يجد أحدهم مبررا للنزاع فيعمل على خلقه.. بينما يستطيع كل إنسان أن يوفر الاستقرار فى داره إذا تحكم سريعا فى نزعات نفسه.. ولكن احذر أن تمشى فى طاعة أنثى.. أو تسمح لها بأن تسيطر على رأيك».

.. وقال وهو يوصى ولده بصراحة الحديث. «إياك ألا تقاوم الالتواء فى داخلية نفسك.. ثم دعاه إلى التبصر حين الخطاب.. وحين الجواب قائلا: ان جوف الإنسان أوسع من شونتى الغلال الملكيتين يتسع لكل جوانب .. فتخير خير الحديث وتكلم صوابا.. واحتفظ بسيئه فى جوفك».

وكان من طريف تأديبه له بآداب الدعاء.. قوله .. ادع بقلب محب.. ولا تجهر بصوتك يستجب الاله لدعائك ويسمع ما تقول ويتقبل قربانك»» .

يأتى بعد ذلك الشيخ أمنموبى.. الموظف الأديب المتدين.. فى فترة ما من القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد.. وقد تحدث فى مقدمة تعاليمه عن أغراضه منها .. أن تكون هاديا لقارئها إلى السعادة ومرشدا إلى قواعد مخالطة الخلصاء والكبراء وتقاليد أهل البلاط.. ومعرفة الرد شفاهة وكتابة مع كل من يحادثه ويراسله فضلا عن راحة ضميره وحسن سمعته بين الأقارب والأغراب.

ولما كان الشيخ أمنموبى قد عاش فى عصر.. شاهد الحكم التيوقراطى.. واشتدت فيه نزعة التدين.. وكان قد هيأ ولده لمنصب ذى صلة بمعبد.. لذا اصطبغت تعاليمه بروح التقوى والورع والدعوة إلى خشية الاله والثقة بعلمه وعدله والإيمان بقضائه وقدره.. وقال لولده : «كن رصينا فى تفكيرك وثبت فؤادك ولا تتعود على أن تجدف بلسانك.. ولا تفصلن فؤادك عن لسانك تصبح

مشروعاتك كلها ناجحة.. وثمة شيء آخر محبب إلى الرب وهو التروى قبل الكلام..»

.. وكان من قول الشيخ أمنموبي.. أنه .. شتان بين الكلام الذى يقوله الناس وبين ما يفعله الاله.

وعمل الأديب أمنموبى على أن يصرف ابنه عن التبرم بالحياة.. وتخوف المستقبل.. قائلا له : لا تقل.. ان اليوم أشبه بغد.. فإلام ينتهى هذا ؟.. كلا.. فالغد آت.. واليوم منقض.. وقد تصبح اللجة الفائرة حافة للأمواج».

ولا تقض الليل متخوفا من الغد.. قائلا عندما يطلع النهار.. كيف يكون الغد؟.. فما يعلم إنسان ما سيكون عليه الغد.. والاله دائما فى فلاح (تدبيره) والإنسان دائما فى خيبة ظنونه».

.. ولا تتبرم بالفقر.. فان رامى السهام إذا اندفع إلى الأمام هجرته جنوده حين الخطر.

ودعا المتدين أمنموبى ابنه إلى احترام كبار السن وعلل ذلك بتعليل لطيف قال فيه: «لا تسب من يكبرك سنا.. فانه قد شاهد نور الاله.. دعه يضربك إن شاء ويدك فى خاصرتك.. ودعه يسبك إن شاء وأنت صامت..»

.. كن ثابتا أمام غيرك من الناس.. فالإنسان فى مأمن فى يد الرب.. والرب يمقت من يزور فى الكلام .. وكبر مقته عنده النفاق.. ولا تخصص عنايتك لمن اكتسى بثوب قشيب[١].. وتقبله فى الأسمال[٢] .. ولا تتقبل رشوة من صاحب نفوذ أو تظلم مقصور اليد من أجله.. فالعدل هبة غالية من الرب يهبها لمن يشاء.. فالرب يحب اسعاد الفقير أكثر مما يحب تعظيم النبيل.»

---

(١) جديد .

(٢) الثياب البالية.

.. وعلى نحو ما وضحت المشابهة والتأثير بين أناشيد اخناتون وبين مزامير العبرانيين وضح تأثير مشابه من تعاليم الشيخ أمنموبى على تعاليم اليهود فى سفر الأمثال فى اللفظ والمعنى.. بل وفى تقسيم الفقرات أيضا.

.. لقد شارك المعلمون والأدباء المعترفون الآباء المثقفين أيضا فى تعاليم الحكمة والتهذيب وكان أكثرهم حديثا معلمو وأدباء عصر الرعامسة.. وقد أراد أحدهم أن يزكى النخوة والنجدة فى نفس تلميذه وقارئه.. فقال له :

«إذا رجاك يتيم مسكين اضطهده آخر وود هلاكه.. فسارع إليه وقدم المعونة إليه.. اجعل نفسك منقذا له.. فمن أعانه ربه حق عليه أن يعين كثيرين غيره..

.. وقال أيضا: «حرر غيرك إذا وجدته رهن القيد .. وكن حاميا للضعيف.. فلقد قيل أن الحسنى لمن لا يدعى الجهل بآلام غيره.»

.. وقال أيضا : أيا ما كانت خبرتك بالكتب .. وكنت متعمقا فى التعاليم.. فعليك أن تحترم الغير حتى تحترم.. وأحب الناس يحبك الناس.. ولا تبالغ فى أحاديثك».

يجىء بعد ذلك آخر أصحاب التعاليم.. الكاهن. الحكيم فى عين شمس عنخ شاشنقى.. عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد.. وذاق من الحياة أكثر مما تذوق حلوها.. ولكنه ظل مؤمنا.. صابرا.. واختلط بأوساط مختلفة من عامة الناس وخاصتهم.. تضمنت تعاليمه كثيرا من الأمثال والتعبيرات الثائرة.. وشاء سوء حظه أن يتهم بالتستر على مؤامرة ضد الفرعون.. كان براء منها.. ولكنه سجن.. ولما أحسن دنو أجله كتب تعاليمه فى السجن وأرسلها إلى ولده وضمنها مقدمة عن بلواه.

.. ومن طريف تعبيراته.. ما يقول فيه : «لا تلف كثيرا حتى لا تقف». ولا تتخم نفسك صغيرا.. حتى لا تتراخى كبيرا.. ولا توقد نارا لا تستطيع

اخمادها.. ومن حزن مع أهل بلده فرح معهم .. ولا تجعل لنفسك صوتين .. وقل الأمر الواقع لكل إنسان.. واسمح لمن عمل ما كلف به بأن يرفع صوته.. واعط الشغال رغيفا تأخذ رغيفين من كتفيه.. ولا تكره إنسانا لمجرد رؤيته ما دمت لا تعرف حقيقة خُلقه.. ولا تكره من يقول لك أنا أخوك .. واعلم أن العزلة خير من أخ شرير.

.. ومن حكيم أساليبه وتعبيراته فى الزيجات : نعمة الممتلكات زوجة حكيمة.. لا تهجر امرأة فى دارك لأنها عقيم.. لا تقتل حية وتترك ذيلها.. إنما تنكح الزوجة برغبة زوجها.. من نكح زوجة على سرير.. نكحت زوجته على الطين.. من نكح امرأة جاره نكحت زوجته على عتبة داره.. تخير زوجا عاقلا لابنتك.. ولا تتخير لها زوجا ثريا.

.. العجيب أن لهذا الحكيم آراءه الخاصة.. فيقول : زوج ابنتك لصائغ.. ولكن لا تزوج ابنك لابنته.

وفى أدب الحديث يقول : .. قد يستر الصمت حمقا.. وقد يفضل إليكم زلق اللسان.. وآية الحكيم فمه.. وإنما يتأتى التعليم بعد رقى الخلق.. ولا تقل إنى عالم وتفرغ للعلم.. رفيق الغبى غبى.. ورفيق الحصيف حصيف.. ورفيق الأبله أبله.

وأخيرا.. يقول عنخ شاشنقى فى النجدة .. لا تكن ساقط الهمة حين الشدة.. وافعل الخير وارمه وسط البحر.. وإذا فعلت معروفا لخمسمائة إنسان وراعاه واحد فحسبك أن جزءا منه لم يضع.

ويقول : لا تشاور عالما فى أمر تافه.. ولا تشاور جاهلا فى أمر جلل.. ومن وعى ما تعلمه تفكر فى زلاته .. فشل كريم خير من نصف نجاح .. الموت خير من الحاجة.. من هز حجرا وقع على رجله.. من سرق متاع آخر لن يبارك له فيه.. يسرق السارق بالليل ويقبض عليه بالنهار.

ايبو العجوز :

عرفنا من مصر القديمة أيضا نوعا جديدا فى أدب النقد.. وأسلوب التوجعات .. فالمعروف أن الدورة التاريخية الأولى لمصر قد انتهت فى أواخر القرن ٢٣ ق.م بثورة طبقية صور أخبارها من وجهة نظره حكيم يدعى «ايبوور» أو ايبو العجوز.. وقد حفظ المصريون آراءه .. ووصفه لأحداث عصره وحكايته مع فرعونه وبلاطه.. ورددوا قصته أجيالا طويلة.. ثم سجلوها على صفحات البردى.. وبقيت من صورها بردية كتبها أديب من الدولة الحديثة.. وتعرف ان اصطلاحا باسم بردية ليدن ٣٤٤ بعد أن انتقلت إلى متحف ليدن.

.. وضاعت للأسف بداية البردية ونهايتها.. ولكن يفهم مما بقى منها أن صاحبها قسمها إلى فقرات .. وحاول أن يبدأ كل مجموعة من فقراتها ببدايات بأسلوب الحكاية .. وردد فى بداية كل واحدة منها ببدايات متشابهة .. فبدأ فقراتها الأولى منها عبارة اصطلاحية تعنى ما تعنيه عبارة .. «حقا لقد حدث كذا وكذا».. ثم أخذ يخاطب جمعا من الناس قد يكونون أهل البلاط فى العاصمة بفقرات متصلة.. بدأ كل واحدة منها بقوله : تأملوا كذا وكذا..

وبعد أن أشبعهم من الاستثارة.. عاد إلى الحكاية مرة أخرى فى مجموعة فقرات بدأ كل واحدة منها بقوله .. خرب أعداء العاصمة الكريمة كذا وكذا.. وعلى العموم.. كان ايبوور مصلحا ما فى ذلك من شك .. وكان يدرك مفاسد الحكم فى عصره ما فى ذلك من شك .. أيضا ..

هذا راجع لكونه من طبقة ارستقراطية قديمة وكان يتمنى أن يتأتى اصلاحها من داخلها أو بوحى فرعون حازم مصلح.. ولهذا اختلط الاخلاص فى روايته بالمبالغة..واختلط التحسر بالأمل.

.. ومع كل فقد نجح ايبوور فى تصوير حيرة الناس فى عصره.. بأنهم

كانوا رجالا ثلاثة : رجلا يعلم ما حدث ويوافق عليه .. ورجلا يجهل تماما .. وثالثا: علم بما حدث ولكنه لا يدرى إن كان خيرا أم شرا .. وعلى أثر ذلك كره بعض الناس دنياهم وآثروا الانتحار سواء لضياع حقوقهم القديمة .. أو لأسفهم عما أصاب المعابد والمقابر.. أو لأسفهم عما أصاب بلدهم من اضطراب لم يعرفوا علاجه .

وعبر ايبوور عن رأيهم بقوله : ولى لوانقضى ماشهده الأمس.. وبقيت الأرض لسوء حظها .. ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس.. فلا يحدث حمل ولا ولادة.. وتهدأ الأرض من الضجيج.. ولا يكون هناك متخاصمون .. وقد أصبح الكبير والصغير يتمنيان الفناء.. وأصبح الأطفال يقولون ليت آباءنا لم يهبونا الحياة.. وغصت التماسيح بما أصبحت تقتنصه بعد أن ذهب الناس إليها من تلقاءأنفسهم.

وعلى الرغم مما صوره ايبوور.. فان الثورة حركت ضمائر الحكام إلى الاصلاح ودعت إلى التفكير فيما ينبغى أن يكون عليه سلوك الحكام.. وشجعت على مواجهة الملك يعيوبه.. وأدت إلى نشأة طبقات جديدة تعتز بالعصامية أكثر مما تعتز بالأحساب والأنساب.

ومن ثورة ايبوور.. إلى القروى الفصيح.،، إلى توجعات، نفررجو» إلى تأملات خع خبررع سنب.. الكاهن الأديب.. فهو من عين شمس.. اشتهر باسم عنخو ناجى قلبه.. وكان صريحا فى نقد أوضاع البلاد .. ولكنه ترك توجعاته دون أن يتنبأ بحل لها.. بدأها بمقدمة توى بحرصه على التجديد.. ورغبته فى عدم التقليد قال : هلم فؤادى إذن.. أحادثك وتجيبنى على حديثى. وتفسر لى كنه ما يجرى فى هذه الدنيا.. فأنى لأتفكر فى أحداث وبلايا جدت اليوم .. والكل عنها صامت .. والأرض كلها فى خطب عظيم.. وما من إنسان يبرأ من الخطأ. فالناس جميعهم قد ارتكبوه.. وقلوبهم هواء.. ولكن من يصدر الأمر .. ومن يصدر له الأمر.

.. فما أطول وأثقل همى .. حيث لا قدرة لمقهور على أن يحمى نفسه ممن هو أقدر منه.. والواقع أنه بينما يعز الصمت عما يسمع .. وتصعب الإجابة على جاهل.. الا أن النقد أصبح يولد العداء.. وما من قلب يتقبل قولة حق.. وما عاد إنسان يحتمل رد كلامه.. وإنما يلوك كل فرد حديثه.. وكل إنسان يبنى رأيه على عجل.. وهجرت الصراحة الأحاديث .. ولكن .

هانذا قد حكيت لك فؤادى .. فأجبنى .. حيث لا صمت لقلب مقدام.

وقيل أن أختم كلامى عن علاقة الأدب والأسلوب فى مصر القديمة.. أحب أن أعود إلى الحكيم عنخ شاشنقى .. عندما نعى ضياع الحق فى بلده إلى رع فى عبارات تقطر ألما .. قائلا:

إذا غضب رع على أرض نسى حاكمها العرف.

إذا غضب رع على أرض عطل القانون فيها.

إذا غضب رع على أرض أبعد الطهر منها.

إذا غضب رع على أرض عطل العدل فيها.

إذا غضب رع على أرض سقطت الأقدار فيها.

إذا غضب رع على أرض ضاعت الثقة فيها.

إذا غضب رع على أرض رفعت جهلتها وخفضت عليتها.

إذا غضب رع على أرض جعلت أغبياءها فوق علمائها.

تلك نماذج بسيطة من سلوك المصرى القديم.. تشهد على الرغم من قلتها وقدمها البعيد وصعوبة التعبير عن ألفاظها.. على عقليات ناضجة وأحاسيس نابضة وأذواق مرهفة.

السلوك .. وآداب المتون المصرية

صورت المتون المصرية وآدابها جانبا من سلوك المعاملة بين الأب وأبنائه.. وبين سلوك الأم .. ألقت متون الأهرام الضوء على هذا السلوك فى عبارتين .. يدعو الأبوان بهما ولدهما الأكبر حين مقدمه عليهما.. فالأم لا تزيد عن أن تقول له .. جميل.. ما أجملك.. أما الأب فانه يرى فى ابنه ما يرجوه لغده.. فيناديه.. وريثى.

على أن المتون المصرية تكشف عن أن حزم الأب كان يتجه أحيانا إلى الحد من الملاينة المتبادلة بين الأم وولدها .. وتكشف من ناحية أخرى عن أن حنو الأمومة لم يكن يصرف المصرية عن اسهامها بنصيب واضح فى تنشئة ولدها التنشئة الطيبة التى تتيسر لها فى بيئتها.

فهذا والد من الدولة القديمة يحض ولده على الجدية والحزم.. فيذهب بهما إلى قوله :

«طوبى له من كان جادا إزاء أمه.. فهو جدير بأن يصبح جميع الناس له تبعا» كأن الرجل عنى بما يترتب على اللين من ضعف الشخصية.. أو أن التفريط فى البيت يعقبه تفريط خارجه.

ومن الدولة الحديثة : يصف أحمس الأول أمه اعح حورتب بأنها العالمة رخت خت وذلك مما يؤكد حصافة توجيهاتها.. وعظيم أثرها فى حياته وحياة أخيه من قبله .. وثمة عبارة فى تعاليم عنخ شاشنقى.. لو صحت القراءة التالية لها .. لكانت اعترافا بكرامة الأم أمام أولادها.. يقول فيها الحكيم المصرى :

«لا تضحك ولدك وتبكيه على أمه.. تريد أن يعرف أهمية أبيه.. فما ولد فحل من فحل».. أى من غير أم.

ومن ثم جاء السلوك التربوى على ألسنة الحكماء.. «أولاد الأحمق يزرعون الطريق وأولاد الحكيم يستقرون من ورائه ..»

.. ثم يجيء الحكيم بتاح حوتب ليجمل السلوك التربوى فى قوله لولده :

« إذا نضجت وكونت دارا .. وأنجبت ولدا من نعمة الرب.. واستقام هذا الولد ونهج نهجك.. ووعى تعاليمك.. وصلحت أحواله فى دارك.. وحفظ ثروتك كما ينبغى .. فالتمس له الخير كله.. وتحر كل شأن فاضل من أجله.. فانه ولدك.. وفلذة كبدك.. فلا تصرف عنه نفسك».

ثم يقول له : لا تقل (يا) ولد لمن نضج.. ولا تتجاهل من جانبك من كبر.

كذلك نلمح السلوك التربوى فى تعاليم حور ددف لابنه أوت اب رع.. وتعاليم الفرعون خينى لابنه مريكا رع.. وتعاليم خينى دواوف لابنه بيبى.. تعاليم الفرعون امنمحات الأول لابنه سنوسرت.. تعاليم سحنب ايب رع لأولاده .. تعاليم آتى لابنه خنسو حوتب.

.. لقد تقدم كيف كان المصريون يرون من واجب الأب الحكيم أن يطلب المعرفة بنفسه بغية أن ينفع بها بنيه .. وكان من الأبناء من يصف أباه بمثل هذه الصفة فيقول

« لقد علمنى أبى ما يعرفه .. وهذبنى مالا حصر له من المرات».

فن الحديث .. والسلوك التهذيبى

وعلى هذا أقول .. قارب المصريون كثيرا بين السلوك التهذيبى وبين الأدب.. بحيث كان الحكيم لديهم .. هو من يحسن الارشاد ويجيد فن الأسلوب والكلام فى آن واحد .. فتعاليم بتاح حوتب التى عنيت أساسا بالأخلاق وقواعد السلوك واعتبرت حكما واجبة الاتباع.. «الحسن لمن أصغى إليها.. والشقاء لمن حاد عنها، عنونت على أساس أنها آيات من جيد الكلم «ستون مدت نفرت».. أو الموعظة الحسنة.. قالها بتاح حوتب فى هداية الجهلة إلى المعرفة .. وإلى قواعد الحديث الطيب.

الغريب أنه جاء فى مقدمة هذه التعاليم إذا جاز هذا الاسم .. انه لما طلب بتاح حوتب من فرعون أن يأذن له بصياغتها لتثقيف ولده.. قال له فرعون.. علمه الحديث بادىء ذى بدء. لعل الطاعة أن تتلبسه.. ويقوم عقله كل ما يقال له .. فما من مولود تفقه .. أى فهم كل شىء من تلقاء نفسه.

وظلت تعاليم بتاح حوتب تدرس خلال الدولة الوسطى حتى عصر الأسرة (١٨) وربما فيما بعد ذلك أيضا.. على أنها دروس فى الأدب.. والكلام الجميل.. ودروس فى الأخلاق والسلوك فى آن واحد.. ولقد تضمنت بالفعل ما يكفل للدارس التبصر بآداب السلوك.. والتعرف على قواعد الخلق الطيب..

كما تضمنت ما يكفل له ثروة طيبة من التعبيرات الراقية.. يستطيع أن يتمثل بها فيما يكتبه وفيما يتحدث به. ويحتمل أنها كانت مما يحفظه التلاميذ بغية التشبع الأخلاقى والأدبى .. ويزكى ذلك تعاليم حورددف التى تنتمى إلى الدولة القديمة.. ظلت مما ينبغى حفظه حفظا مرتبا حتى عصر الرعامسة..

مما يدل عليه قول حورى لزميله.. «لقد ذكرت لى حكمة لحورددف.. ولكنك لا تدرى طيبة كانت أم رديئة.. والا فأى فصل يسبقها وما الذى يتلوها.

ولم يقتصر السلوك الأخلاقى على تعاليم بتاح حوتب وغيره من شيوخ مصر القديمة.. فإلى جانب هؤلاء كانت لتعاليم آنى وأمنموبى مكانة خاصة لاذكاء التهذيب السلوكى والتثقيف الأدبى معا.

وثمة تقارب بين النصائح الخلقية والسلوكية.. وبين الأدب فى موضوعات أخرى قصيرة تضمنتها كراسات تلاميذ عصر الرعامسة.. اياك أن تحرك فمك لتقسم».

.. لا تقترف الذم.. واحذر الزلل حين الحديث .. واحرص على أن تظل هادئا كالحارس وإذا عبرت فى سفينة ادفع لها أجرها وزيادة وكافىء الصانع يخدمك.

.. إذا أثريت وواتتك المقدرة .. وتعهدك ربك.. فلا تكن جهولا إزاء قوم تعرفهم بل احترم كل إنسان .. حرر غيرك إذا وجدته مقيدا.. وكن معينا للعاجز فلقد قيل طوبى لمن لا يتصنع الجهل.

إذا رجاك يتيم مسكين يضطهده آخر ويبغى هلاكه .. فسارع إليه وهبه شيئا واعتبر نفسك منقذا له.. فمن أعانه ربه وجب عليه أن يحيى كثيرين غيره.

- إلى جانب هذا اعتبر حكماء مصر الفرعونية.. الفصاحة وسرعة البديهة ولباقة الأحاديث مواهب يمكن أن يتصف الأمى بها كما يتصف بها المتعلم.. وذلك على نحو ما أكد حكيمنا بتاح حوتب حين قال : «إن الكلمة أو الموعظة الطيبة.. وان تكن أشد استخفاء من الزبرجد الا أنها قد توجد مع الاماء العاملات على المراحى.. وعلى نحو ما تعمدت قصة القروى الفصيح أن ترسل الحكمة والموعظة على لسان رجل من عامة الناس.

وإذا قمنا بسياحة مرة أخرى داخل صلب تعاليم حكيمنا بتاح حتب .. نلاحظ أن هناك فقرتين متتاليتين تدعوان إلى أمر واحد.. وهو توقى الجشع..

وقسوة القلب ولكن .. بينما عالجته إحداهما فى حزم وتركيز .. بسطته الأخرى فى تشويق وتفصيل فقالت إحداهما: «لا تُقس قلبك حين القسمة .. ولا تبتغ ما لا يخصك.. ولا توغر قلبك إزاء أقاربك.. فإن التماس الوديع أجدى من تصرف العنيف.. وأنه لتافه ذلك الذى يستأسد بين أهله وهو محروم من حصائد الحكمة.. والشىء الطفيف الذى يطمع فيه يولد البغضاء حتى فى صاحب الطبيعة البارة ..»

وقالت الفقرة الأخرى : «إذا أحببت أن يجمل سلوكك .. وأن تبرىء نفسك من كل سوء .. فاتق لحظة جحود القلب.. فانه داء وبيل مستعصى.. ولن تنشأ ثقة به.. وهو يعكر صفو الصديق الصدوق . ويقصى الثقة عن مولاه ويسىء الآباء والأمهات والأخوال.. ويطلق زوجة الرجل .. انه مجمع كل الشرور.. وعيبة لكل ما يعاب.. فأيما رجل استقامت له طريقه وسار وفق سبله القويمة.. فهو بذلك يورث .. أما قاسى الفؤاد فلا مثوى له».

فالفقرة الثانية إذن لا تتميز بأسلوب مختلف فحسب.. وإنما بأسلوب قصد به أن يكون أكثر تشويقا وإيضاحا وافعل فى النفس.. ولكن للغريب أن هذه الفقرة المبسطة تذكرها النسخ الموجودة للمتن قبل الفقرة المختصرة وليس بعدها وذلك يدعو إلى احتمال أن هذه النسخ أخذت عن أصل أقدم منها فأساءت النقل عنه وعكست وضع الفقرتين.. ويزكى هذا الاحتمال . تبديل مواضع الجمل بين النسخ المعروفة لتعاليم بتاح حوتب بالذات واضح تماما فى أغلب فقراتها.

السلوك .. والتدين

كان السلوك والتوجيه فى مصر القديمة على خلاف ما كانت عليه فى بعض الأمم القديمة الأخرى مثل العبرانيين.. إذ ظلت ترد إلى خبرة الإنسان وتجاربه أكثر مما ترد إلى أوامر السماء .. ولشىء من هذا عنونت بعض تعاليم ونصائح الأباء والمربين المصريين.. بعناوين دنيوية معبرة مثل بداية تعاليم الحياة.. دروس من الحياة.. وذلك على الرغم من التجائها أحيانا إلى الوانع الدينى.. واعتبار سبيلها أحيانا سبيل الرب».

فالمتطلع على الآثار المصرية .. والنقوش اليومية الخاصة بهم فى المقابر.. يلاحظ إيمانا عميقا بالخلود.. وتصورا كاملا عن عالم الآخرة.. وتدينا تاما .. نلمحه فى الآثار.. فى أدب قدماء المصريين.. فى سلوكهم.. فى معاملاتهم.. فى نصائحهم وسأترك الحديث لشخص يدعى آنى من عصر الأسرة ١٨.. لكى يدلل لك على ذلك وبدون تعليق منى يستهل آنى أحد الفصول بعبارات يستذكر فيها ما سوف يردده أمام القضاء فى العالم الآخر.. قائلا: تحية لكم أرباب قاعة العدالتين الكبرى.. آنى أعرفكم.. وأعرف أسماءكم.. لن أسقط خشية منكم.. فلنْ تجدوا لى ذنبا تبلغونه إلى الاله .. ولن تصدر منكم كلمة سوء عنى .. إذا تكلمتم صدقا فى حضرة رب العالمين.. فلقد أحسنت عملى فى بلدى.. ولم أجدف فى حق الرب.. ومَا صدر أمر مسىء إزائى من ملك زمانه.

..ثم يبدأ مشهد خاص يحاور فيه آتوم رب الخليقة(١) كاتبه ووزيره نحوتى.

آتوم : تحوتى .. ما الذى جرى بين أبناء نوت ؟.. لقد اعتادوا الصخب .. وأخذوا فى الشقاق.. وارتكبوا الآثام.. وخلقوا الفتنة.. وأقاموا المذابح.. وابتدعوا السجون ثم جعلوا الكبار صغارا فى كل ما فعلناه؟.

---

(١) هكذا كانوا يعتقدون.

تحوتى : لن تشهد بعد هذه الشرور مولاى.. ولن تأسى .. فأعوامهم قد قصفت وطبقت عليهم العقوبة بكل ما فعلوه..

.. وهنا يتدخل آنى متقربا من تحوتى قائلا له :

آنى : إنما أنا لوحتك .. وهذه محبرتك .. أقدمها إليك ولست ممن ينبغى أن تسحق دواخلهم.. وما يجوز لهلاك أن يلم بى.

ثم يلتفت إلىَ آتوم قائلا له :

ولكن ما جلية الأمر آتوم ؟ أرانى فى سبيل إلى القفر والأرض الصموت!

آتوم :حقا إنها قفر بغير ماء ولا هواء .. عميقة دفينة.. مظلمة موشحة.. لا حد لها ولا نهاية.. ومع ذلك فسوف تحيا فى راحة فى نفس هذه الأرض الصموت .. هى أرض لا تمارس فيها شهوات الجنس.. ولكنك سوف توهب فيها نورانية عوضا عن الماء والهواء ومتعة الجنس.. وسوف توهب فيها طمأنينة القلب عوضا عن الطعام والشراب.

آنى : ولكن آتوم .. ما مدى حياتى ؟

آتوم : لقد قدرت لك ملايين الملايين .. فهى حياة ملايين .. بعدها سوف أقضى على كل ما خلقته.. وتعود هذه الأرض إلى نون.. مياه الطوفان .. كما كانت فى المرة الأولى.

الفصل الخامس:

الأدب المصرى بين حلاوة التذوق

وسحر البيان

لقد ظل كثيرون ممن لم يدرسوا العلوم المصرية القديمة لا يعرفون عن مصر إلا أنها بلد الموميات (وأبو الهول) والأهرام و«توت عنخ آمون». فعندما ظهر كتاب الأستاذ، ماكس بيير» عن الأدب المصرى القديم دهشوا عندما قرءوا عنوانه وسأله بعضهم بشىء من الدهشة .. «أيوجد لمصر القديمة أدب قومى كالأدب اليونانى واللاتينى والألمانى».. وقد كان رده عليهم كتابه المختصر فى الأدب المصرى القديم.

ولا تستغرب من أجنبى عن مصر أن يسأل هذا السؤال إذا علمنا أن السواد الأعظم من المصريين المتعلمين يجهلون أمره ويعتقدون أن أقدم أدب فى العالم هو الأدب الأغريقى وعنه أخذت أمم العالم آدابها.. وقبله كان تاريخ الأدب فى الدنيا صفحة بيضاء.

ولكننا نؤكد لهؤلاء المتعلمين وأشباههم أن لمصر أدبا قوميا قديما وأنه أقدم من الأدب الأغريقى. وإذا كانت كتابات «هومر» هى أول وأرقى ما عرف عن أدب الأغريق، ولا يعلم شىء عن الأدب الأغريقى قبل ذلك.. فان الأدب المصرى معلوم تاريخه من يوم أن نشأ وحيا إلى أن درج ونما ووصل إلى نهايته.

ويمكننا أن نعطى مثلا منه فى كل أطواره رغم ما نلاقيه من بعض الفجوات فى صفحاته، وسنجد أنه أدب لا يقتصر على النقوش الدينية وتدوين الحقائق والمقالات العلمية. ولكنه يتعدى ذلك إلى مؤلفات لها قيمتها الأدبية تثبت أن المصرى القديم كان يقدر الأدب ويتذوق حلاوته ويسحر ببيانه فى وقت كان

الاغريق وغيرهم من الأمم القديمة يهيمون على وجوههم ويتخبطون فى ظلام الجهل.

من أجل ذلك فضلنا أن نأتى هنا بكلمة قصيرة عن منزلة الأدب المصرى بين آداب الأمم التى عاصرته قبل أن يظهر الأدب الاغريقى فى عالم الوجود فنقول :

لا شك أن مصر أول بلد ربى فى نفوس أبنائه روحا أدبية خالصة للأدب، مجردة عن أى غرض آخر، فقد وضع المصرى المؤلفات الأدبية البحتة منذ ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد لا يريد بها شهوة سياسية أو تأييدا أو نفعا تجاريا وإنما يريد الأدب لذاته .. يريد غذاء الروح واشباع النفس الصافية بسمو التعبير وعلو المعنى.

وكان لمصر تاريخ فى هذا المضمار.. فلم يظهر الأدب العبرى إلا وليدا بعد اثنى عشر قرنا من ذلك التاريخ ، والأدب البابلى كان يترنح فلم يكن انتاجه مظهرا خالصا للأدب ولا قصد به خدمة الأدب حبا فى الأدب كما كان الشأن فى مصر.. فان الأدب أريد به فيها ذلك الذى يحدث فى نفس قارئه وسامعه لذة فنية كالتى يحسها إذا استمع إلى شدو الشادى أو إذا رأى الصورة الجميلة وتحسس التمثال البديع

والكلام فى الأدب المصرى يقتضى التعرض أولا لأنواعه، وثانيا لأساليبه. فمن الناحية الأولى نرى أن الأدب المصرى من النوع الغنائى أو العاطفى وأن النوع القصصى كان بارزا فيه. ويلى ذلك الأدب العلمى والحكم والأمثال (التأملات). وليس من شك فى أن الأدب الغنائى والقصصى قد نبتا فى التربة المصرية لأن كلا منهما يضرب بعروقه إلى ما قبل ظهور الكتابة وهو العهد الذى يشبه العصر الجاهلى فى اللغة العربية.

ولا غرابة فى أن ينمو الغناء والقصص بين قوم تخطوا طور الهمجية وأصبح لهم مشاعر ووجدان يحتاج إلى تغذية.. وهى إن لم تواتهم عن طريق القراءة والنظر.. لا تبعد عليهم عن طريق السمع والرواية. وكذا يدرك تأثير القصة الآن فى العامة وكيف أنها تجذب منهم القلوب والمسامع.

ولم تقصر بابل فى بعض النواحى الأدبية فقد ظهر فيها الأدب الغنائى والقصصى فى الوقت الذى نبتا فيه فى وادى النيل. وإذا كانت إحدى الأمتين المصرية والبابلية أسبق من أختها وأقدم إنتاجا فان ذلك لا يعنى أن إحداهما قد أخذت عن الأخرى أو تأثرت بأدبها بل أن كلا منها كانت مستقلة فى إنتاجها وكان لأدبها مظهر خاص خاضع للمؤثرات المختلفة فى الأدب ومنها البيئة والاستعداد الفطرى والدين والحضارة.

والظاهر الذى تحدثنا به الآثار أن «بابل» كانت أكثر خصبا فى إنتاج القصص والشعر القصصى لأن الدين قد أظله فنمت القصة فى كنفه وصارت لها أوزان ترجع إلى آماد بعيدة. هذا إذا لم تكن قد عملت عوادى الزمن على محو بعض القصص المصرية من عوالم الآثار أو أبقتها دفينة فى بطن الأرض.. ولم تسمح لها بعد بالظهور وأعتقد أن أحد هذين الفرضين صحيح لأن ما بقى لنا من الشعر القصصى يدلنا على أنه مظهر لأدب راسخ القدم متشعب النواحى.. خصب الخيال كثير الأبطال يذهب إل أبعد مدى فى تصوير الآلهة ومقدرتهم وخوارق فعالهم فى كل أطوار التاريخ المصرى، ولا أدل على ذلك من قصة مخاصمة «حور»، «وست» التى عثر عليها حديثا وأبطالها جميعا من الآلهة. وقد كان البعض يعتقد أن الاغريق وحدهم هم الذين انفردوا باشراك الآلهة فى تمثيلياتهم حتى ظهرت هذه القصة فغيرت هذا الرأى تماما.

ومهما بلغ المدى الذى ساهمت به «بابل» فى القصة عامة فإن من المقطوع به أن الأسبقية لمصر فى اختراع الأقصوصة، وصياغتها صياغة فنية

ممتعة وتحليلها تحليلا نفسيا مناسبا وتمهيد الطريق للتحليل النفسى الرائع الذى نراه فى الأدب اليونانى وفى الآداب الحديثة فى عصرنا عند مختلف الأمم الراقية على مثل ما ذهب إليه «مارسل بروست» أو «هنرى جيمس» أو «هـ.ج.ولز» مما مثل اتجاها جديدا فى الأدب وأكسب التأليف الروائى عمقا فى الفكرة ونزعة فلسفية قوية لم تمكن تخلو منها الروايات القديمة ولكنها اشتدت جدا فى الزمن الحديث.

هذا ما كان من أمر الأدب القصصى، أما الغنائى فقد كانت مصر وبابل فيه كقصتى شجرة واحدة، فقد أخذت كل منهما من هذا الفن بنصيب كبير وإن كان إنتاج «بابل» حتى الآن أكثر من إنتاج مصر إن لم تكن الأرض تخبىء ما فى باطنها على أن القوة والعذوبة كانت متمثلة ظاهرة فى مصر على أختها فى هذا اللون من الأدب.

ولقد كان الشعر الدينى عند الأمتين حلوا ولا وجه للمفاضلة بين أحسن ما أنتجته بابل وبين ما عثرنا عليه فى مصر فى عهد الدولة الحديثة.

أما الأدب العبرى فقد تخلف عن الأدب المصرى فى الظهور عشرة قرون، وقد وصل إلى درجة جعلته فى مرتبة واحدة مع أحسن ما أخرجته مصر وبابل، ولم يستطع أن يتفوق عليها، وقد استطاع الاغريق الذين أتوا بعد هذا العهد أن ينهضوا بالشعر الغنائى والعاطفى الذى وضعت أسسه فى مصر وابتكروا فيه مذاهب جديدة كما فعلوا فى كل فروع الأدب الأخرى.

ننتقل بعد ذلك إلى الأدب التعليمى والتأملى وتدل جميع الشواهد على أنه من وحى مصر فالمصريون هم الذين ابتدعوا .. وهم الذين برزوا وقطعوا أشواطا بعيدة فيه.. وتخلف عن السباق معاصروهم وكان هذا اللون من الأدب محببا إلى الذوق المصرى وقد بقى المصرى عدة قرون مهتما بالتأليف فيه ساعيا إلى تحسينه باذلا جهدا يتفق ومهارة الكاتب واتساع أفقه الاجتماعى.

ويقيننا أن مؤلف «بتاح حتب» فى الحكم والأمثال كان نواة لظهور أمثال سليمان وحكمه .. يؤيد ذلك ما اشتهر به المصريون وتحدث به العالم القديم عن براعتهم فى الحكمة وضرب المثل. وإذا وازنا بين أمثال سليمان وتعاليم «أمنموبى» فى باب الحكم والأمثال وصلنا إلى أن الأولى قد أخذت عن الثانية قطعا بأكملها.

والآن وقد انتهينا من الكلام على موضوع الأدب المصرى ننتقل إلى الناحية الأخرى منه وهى أسلوبه، وقد كان الأسلوب الجميل موضع فخر الكاتب ومحل تقدير القارىء- جاء فى بردية عن أمثال « بتاح حتب» «أنها الأقوال التى صيغت فى أسلوب جميل والتى تحدث بها الوزير عندما كان يثقف بالمعرفة ويعلم مبادىء الحديث الطريف» وجاء فى ورقة «نفرزهو» على لسان الملك «سنفرو» يخاطب حاشيته ايتوا لى بانسان يروح عن نفسى بكلمات جميلة وأقوال مختارة تجد فى سماعها جلالتى تسلية وراحة».

وإذا قرأنا «قصة الفلاح الفصيح» التى كتبت قبل عام ٢٠٠٠ ق.م وجدناها سلسلة من الأفكار السامية عن العدالة وحقوق الإنسان صيغت فى أسلوب قوى بليغ بدا منه أن كاتبها أراد أن يظهر قدرته الفنية على جمال الصياغة وروعة الأسلوب. وهذه الظاهرة التى تجعل عذوبة الأسلوب هدفا يرمى إليه الكاتب كانت بارزة واضحة فى مصر مطمورة منعدمة فى بابل - جارتها ومعاصرتها فلا جرم أن كانت مصر أول أمة شغفت بالثقافة الأدبية وعنها أخذ العالم.

والأسلوب الذى يهدف إليه المصرى هو الأسلوب العذب الذى لا تكلف فيه فينساب إلى النفوس وترتاح إليه الأسماع، ولابد أن يكون مناسبا للموضوع الذى يعالجه، فيقوى ويشتد فى الجلى وعظائم الأمور.. ويلين ويرق فى التعبير عن العواطف أو الترجمة عن مكنونات الفؤاد. ولكن هذا الأسلوب الجميل قد

دخلت عليه الصنعة بمرور الأيام فأفقدته روعته وعذوبته وأصابه التكلف والزخرفة اللفظية وأصبح الأديب يضحى بالمعنى السامى فى سبيل تزويق الألفاظ كما حدث للغة العربية فى العصر العباسى الثانى.

ولقد بدأ هذا الفساد يدب فى الأدب المصرى منذ الدولة الوسطى وتظهر بوادر ذلك فى قصة «سنوحى». ولقد تعلق المصرى بهذا الأسلوب وأشرب قلبه حبه حتى أن التلاميذ فى الدولة الحديثة وبخاصة عصر الأسرة التاسعة عشرة والعشرين ملأوا كراساتهم نماذج منه يستظهرونها ويأخذون أنفسهم بمحاكاتها حتى يصلوا إلى ملكة تمكنهم من الإبانة عما فى ضمائرهم بهذا النوع المزخرف المحبب إلى نفوسهم.

وفى ورقة «انستاس الأولى» نرى مثالا لهذه الطريقة الأدبية التى سادت عهد الدولة الحديثة فى صورة خطاب هجائى يعيب فيه كاتبه زميلا له جهله فن كتابة الرسائل، وضعفه فى الحساب حتى لا يستطيع أن يقدر وزن مسلة، وعدم درايته بمعرفة أحسن الطرق للسباحة فى سوريا ..

ولعل السر فى شيوع هذه الورقة أنها تحتوى على فكاهات أو نكت لا تستسيغها لاختلاف الذوق بين عصرنا وعصرها، أو لأن فيها منهاجا لا يجب أن يكون عليه الرجل المثقف فى هذا العصر، وهى فى جملتها تدل على نوع من الصلف فى الكتابة.

فالأسلوب المصرى كالفن المصرى قد وصل إلى قمته قبل حلول الدولة الحديثة ولا يمنع هذا من أن تلمع فيه من وقت لآخر قطع فنية تتفوق فيها حلاوة الأسلوب الفطرى وقوته ولكنها قليلة كما أن الشعر العاطفى لم يودع قوته وتأثيره فى عهد الدولة الحديثة. بل بقى جميلا رائعا .. بل ربما غطى جماله فيها على ما سبقه.

وربما كان السبب فى ذلك موجة الرخاء والترف التى غمرت المصريين عقب حكم الأسرة الثامنة عشرة، وفى عهد الأسرة التاسعة عشرة والعشرين فأطلقت ألسنتهم بالأغانى العذبة والأناشيد المرحة السعيدة مترجمين بها.. عما يذوقونه من حلاوة الدنيا ولذة الحياة.

هذا إذا لم تكن الأرض قد خبأت فى ثناياها مقتطفات من الشعر العاطفى من انتاج الدولة الوسطى. أو ما يجعلنا نعتقد بأن ما نسب إلى الدولة الحديثة ليس كله من صياغتها.

منزلة الأدب المصرى:

قال «أندرى مروا» الكاتب الفرنسى العظيم :

«أن الأدب لا يقاس بالنمو والتقدم فلا يمكننا القول : أن «تنسون» الشاعر الانجليزى أعظم من «هومر» الشاعر اليونانى القديم، أو أن «بروست» أعظم من «منتانى» لأن الأدب ينساب فى نغمة ايقاعية ولا يسير فى خط متصل فلكل من الأدباء وقته وظروفه».

وتكمن قيمة الأدب القديم فى أنه يرينا اللبنة الأولى فى بناء الأدب والجهود التى بذلها الأدباء القدماء فى خدمته حتى وصل إلى مظهره الحديث. فلا وجه للمقارنة بين الآداب القديمة بما فيها المصرى والبابلى وبين الآداب الحديثة إذ أن الثانية نتيجة نمو الأولى وتطورها بين الأدبين فى جملتهما فروق من جهات ثلاث :

الأولى : أن الأدب المصرى لم ينتج لنا أدبا نفسيا عميقا كالأدب الحديث.

الثانية : أن الأدب المصرى قدرته محدودة فى تصويرالجو الذى يناسب القصة.

الثالثة : قوة التأثير والأسر.

أما عن الناحية الأولى فنرى أن المصرى لم يهمل التحليل النفسى جملة بل أخذ منه بطرف .. كما نرى فى قصة «سنوحى» المصرى القديم التى حللت لنا ناحية من نفسيته حين نفى عن بلاده واشتاق إلى وطنه.

ولكن ذلك يعتبر يسيرا إذا قارناه بالتحليل العميق الذى يلجأ إليه فحول علم النفس الآن فى قصصهم الرائعة مثل قصة (داسى مولير) التى كتبها «هنرى جيمس» أو قصة الاتصال السامى التى كتبها «جيته» الألمانى الفذ فى أدبه.

ومع ذلك فان التحليل النفسى الذى نقرأه فى قصة سنوحى المصرى خير مما نجده فى قصص «الجن والعفاريت الشائعة» فى آداب العالم عامة، ولا يضير الأديب المصرى أن تحليله خلا من العمق والروعة فيكفيه فخرا أنه وضع الأساس وجاء غيره فشيد على قواعده ثم جاء التطور الحديث فأعلى البناء وزخرفه.

وأما الناحية الثانية .. ناحية الجو الذى يخلقه الأديب لقصته أو لموضوعه فينتقل بالقارئ إلى العالم الذى يريده.. فهذه أيضا للمصرى فيها نصيب المؤسس الأول، فإن أول مأساة (دراما) وضعت على صورة تمثيلية كانت من فعل الأدباء المصريين وترجع بتاريخها إلى عهد الأسرة الأولى.

وهذه المأساة تشبه رواية تمثيل «آلام المسيح» وموته كما كانت تمثل فى القرون الوسطى ولم تصل المآسى التى ابتكرها المصريون فى قوتها ما وصلته عند الاغريق.. وفى عصرنا الحاضر، ولا تقتصر الحاجة إلى الجو المناسب عند تأليف القصة أو الشعر القصصى.

بل قد تحتاج إليه أيضا فى الشعر الغنائى كما نجده فى كتابات «هومر»

اليونانى (الألياذة) وفى كتابات «فرجيل» (الأيناد). وقد وجدنا أثرا لتصوير الجو الأدبى فى الكتابات البابلية (جلجاش) ولكنه قليل.. وليست المأساة المصرية السابقة هى كل ما وصلنا عن هذا النوع فاننا نجد ذلك، الجو الأدبى، مصورا فى قصة «سنوهى» وفى قصة «ون آمون» إذ أن قارىء هاتين القصتين لا يلبث أن ينتقل مع بطليهما إلى سوريا ويرى بعينيه ويحكم برأيه..

وقد تكون وسيلة المؤلف ساذجة .. ولكنها على كل حال تحدث الأثر المطلوب وتمتاز عن القصص الأخرى التى فقدت هذه الميزة والتى يقصها مؤلفها ببساطة مثل قصة «الأخوين» وقصة الملك، خوفو والسحر وغيرهما من القصص.

وإذا كانت هذه القصص الأخيرة بمثابة قطع من الحلوى يستحليها الأطفال فى أفواههم فإن قصتى «نوهى وون آمون» غذاء عظيم للرجال الرشداء. ولا جدال فى أنهما أقدم قصتين قصيرتين جيدتين فى العالم كانتا ذخيرة للأدب العالمى وإن لم تصلا فى موضوعهما إلى نظائرهما فى العصر الحديث.

بقيت الناحية الثالثة وهى قوة التأثير وشدة الأسر. وهذه ترجع إلى عاملين: الألفاظ والصوت. فان اجتمع اللفظ العذب الرشيق مع الصوت المناسب أخذا بمجامع القلوب وجذبا الأنظار والأفكار. أما الألفاظ الجميلة فاللغة المصرية غنية بها ونراها فى موضوع «شجار بين إنسان سئم الحياة وروحه». وفى خطب «الفلاح الفصيح» التى استهوت لبلك نفسه. وأما سحر اللفظ ووقعه فى النفس فقد حرمناه لأن اللغة المصرية تنقصها الحياة والحركة.

وجملة القول أن مصر كان لها أدب قومى منذ ٢٠٠٠سنة ق.م وأن هذا الأدب هو وليد حيويتها. ولم تأخذه عن غيرها أو تتأثر فيه بغيرها وهو وإن لم يبلغ مرتبة الأدب الحديث إلا أن له فضل الخلق والسبق والتأصيل.

وإذا كان الأدب المصرى قد أخذ يتدهور فى العصور المتأخرة فإنه ترك الزمام للأمة اليونانية كى تحلق بتفكيرها فى أجواء عالية منه على سنة التدرج طبعا.. فانه ليس فى مقدور الأدب الأغريقى ولا الفن الأغريقى أن يولدا كاملى النمو كما ولدت «فينوس» (الزهراء) ناضجة كاملة النمو فى أمواج البحر.

فالأدب المصرى غذى الأدب العبرى والأدب الاغريقى فشيا ولعبا درويهما فى الحياة ونشك بحق فى مقدرة الأدب اليونانى والأدب العبرى على بلوغ المرتبة التى وصل إليها كل منهما إذا لم يتخذا من الأدب المصرى عونا على النمو والارتقاء بطريقة لا نزال نجهلها. للأسف.

مكانة المصرى .. ومقدار ذكائه

لقد بقى التاريخ المصرى والأدب المصرى، وكل ما يتعلق بالحياة المصرية سرا غامضا فى كل العالم حتى بداية القرن التاسع عشر، أما ما نقله اليونان عن المصريين مدة اختلاطهم بهم فلم يكن الا حقائق مشوهة نقلت بالرواية فضلا عن أن ما وصل إلينا لا يمثل الاجزاء من تاريخ البلاد أيام شيخوختها وتدهورها

وقد كان اليونان الذين نقلوا الينا بعض معتقدات المصريين وعاداتهم الموروثة من أزمان سحيقة ينظرون إليها بعين الاحتقار والرهبة معا لأنها لا تتفق مطلقا مع دنيا حضارتهم. وقد بقى المصريون فى نظر الأوروبيين والمصريين الحاليين كالصينيين الأقدمين.

ومن المدهش أنه رغم حركة الكشوف الحديثة التى قامت فى عصرنا فانهم لا يزالون معروفين بأنهم قوم لا ثقافة لهم ولا علوم ولا آداب كباقى أمم العالم حتى أن المصرى الحديث عندما يريد أن يتكلم عن الأدب فى مصر لا يذكر شيئا عن مصر القديمة بل يقصر كلامه على الأدب العربى فى مصر.

وكأن مصر منذ فجر التاريخ حتى الفتح العربى لم يكن لها شىء قط من التراث الأدبى يمكن أن يفاخر به أبناؤها كما يفاخر الفرنج بأدبهم الخاص فى مختلف العصور، والواقع أن المصرى لا يلام على جهله بآداب بلاده العتيقة وربما يرجع السبب فى ذلك إلى عاملين هامين. الأول : أنه منذ الفتح العربى اختفت لغة البلاد جملة وحلت محلها اللغة العربية وآدابها فاسدل الستار على لغة القوم وأصبحت نسيا منسيا . ولم يبق للمصرى مجال فى أن يدرس تاريخها وآدابها وبخاصة إذا علمنا أن اللغة قد ماتت.

العامل الثانى : أنه لما حلت رموز اللغة القديمة .. لم يعتن المصريون

بدرسها بل تركوا مجال هذا الدرس للأوربيين إلى عهد قريب جدا عندما بدأ نفر من المصريين يتعلمون لغة البلاد القديمة، ولكن رغم ذلك فان معظم المثقفين فى مصر أو الذين يدعون أنهم مثقفون، لا يزالون يعتقدون أن مصر القديمة لم يكن فيها حياة أدبية وثقافة خلقية كالتى عند الشعوب المتحضرة.

على أن المصريين فى عهد تاريخهم الأول كانوا على عكس الفكرة الشائعة عنهم، إذ كانوا قوما لهم هبات عقلية، وكانوا متوقدى العزيمة. ايقاظا على حين كانت أمم أخرى من الأرض لا تزال فى سباتها، ولقد كانت نظرتهم للعالم ملتهبة متوقدة بالمغامرة كنظرة الاغريق الذين آتوا بعدهم بآلاف السنين. ويشاهد ذلك جليا فيما وصلوا إليه من الأعمال الفنية الواسعة النطاق، بل يشاهد بوضوح أكثر فى أعمال التصوير والنحت التى تبرز الحياة عندهم فرحة ناطقة.

ان قوما بمواهبهم هذه جديرون بأن يجدوا سرورا فى اعطاء أغانيهم وقصصهم شكلا أغنى وفنا أكثر. وكذلك نمت بينهم من وجوه أخرى حياة عقلية وعالم فكرى يبحث فيما وراء الأشياء الدنيوية ودائرة الدين. ومنذ أن اخترع المصريون نظام الكتابة نمت بينهم منذ زمن بعيد مجموعة من الكتابات المختلفة الأنوا ع تعهدوها بالرعاية.

وجعلوا لها صبغة أدبية وللأسف الكثير منا لم يحفل بها. ولم يعتقد يوما بأن للمصريين القدماء أدبا يعتد به.

ولقد حفظ لنا التاريخ شيئا كثيرا من أعمال التصوير عند المصريين حتى استطعنا أن نكون عنها فكرة تكاد تكون ثابتة لا تقبل التغيير كثيرا.. على حين أن موقفنا بالنسبة للأدب المصرى - لسوء الحظ - لا يزال مختلفا جدا إذ ليس لدينا منه إلا شىء قليل. لأن العثور على مؤلف أدبى يتوقف على مصادفة غير

متوقع حدوثها كبقاء ملف من البردى هش فى جوف الأرض من ثلاثة أو سبعة آلاف من السنين.

ولذلك لم نعثر إلا على قطع منفرده كانت بلا شك فى الأصل أجزاء من مجاميع عظيمة من الكتابات على أن كل كشف جديد من ذلك النوع يضيف خاصية جديدة إلى الصورة التى صورناها لأنفسنا عن الأدب المصرى.

وهذه الصورة أصبحت فى الجملة تكاد تكون صحيحة لأنها تشتمل على سلوكيات وأنماط لها قيمتها الفعلية.. فمن كل مرحلة تاريخية يظهر لنا فيها الأدب المصرى مطبوعا بطابع خاص يميزه عن غيره ويتفق مع ما نعرفه عنها من الحقائق التاريخية.

وبقدر ما تتسع لها طاقتنا من اطلاع على آثار اللغة المصرية القديمة نستطيع أن نقول أن هناك دلائل تدل على أن العناية كانت موجهة إلى تنمية اللغة فهى غنية بالاستعارات والتشبيهات أى أنها «لغة مثقفة»، «لغة انشاء وتفكير» للشخص الذى يكتب بها.

ومن المحتمل أن أحد كتب الأمثال القديمة على الأقل قد انشىء فى عهد الدولة القديمة فى خلال حكم الأسرة الخامسة سنة ٢٧٠٠ ق.م. تقريبا وهذا هو العصر المعروف لدينا بعصر المستوى العالى لفن التصوير على الخصوص.

ولكن يظهر أن الرقى التام للأدب المصرى القديم لم يبلغ غايته إلا فى العصر المظلم الذى يفصل الدولة القديمة عن الدولة الوسطى.

ولذلك فى عهد الأسرة الثانية عشرة المشهورة ١٩٩٥-١٩٧٠ق.م وكتابات هذا العصر ظلت تقرأ فى المدارس خمسمائة عام ولم يجرؤ أحد أن يحيد عن لغتها أو أسلوبها فى الكتابة. والخاصية التى يمتاز بها هذا الأدب القديم ظاهرة فى الولوع بالتعابير الممتازة.. ولا نستطيع أن نسمى ذلك تصنعا.. وحلاوة

الألفاظ مع عذوبتها. كانت تعد صناعة عالية لابد أن يبذل الإنسان جهدا ليصل إليها. ويشاهد كذلك أن هذا كان حقيقة ميل هذا العصر من نقوشه التى طالما كان يقوم بتأليفها جماعة من المتعلمين، فانها كانت تكتب بالأسلوب المزخرف.

وبعيد عن الصواب أن يقال إن كل مجهودات هذا العصر كانت موجهة إلى تنميق الألفاظ فحسب، فان كتاب هذا العصر أقدموا على الكتابة فى موضوعات هامة ولم يحجموا عن الخوض فى المسائل العميقة.

ونلاحظ من جهة أخرى أن الديانة تأخذ مكانا ثانويا فى هذه الكتابة ولا يكاد يذكر شىء فى هذه الكتب الأدبية عن كل الآلهة الذين كان المصريون يهتمون بهم كثيرا على حسب الفكرة الشائعة عنهم.

وليس قصدنا أن نغض النظر عن الحقيقة الواقعة وهى أن جزءا عظيما من هذا الأدب القديم قد ضاع. وليس معنى هذا أنه لم يكن للمصريين أدب فقد وجدنا أمثلة كثيرة، وعقيدتنا أن الضائع منها أكثر، وما وجدناه يرجع الفضل فى عثورنا عليه إلى المصادفة المحضة. فقد وجدنا بعضا فى قبور التلاميذ مدفونا معهم. على حين أن كتبا من نوع آخر كانت تحفظ مع الأحياء فيدركها العفاء.

ومهما يكن من أمر فان المدارس لم يقل شأنها فى العصر الثانى للأدب وهو عصر الدولة الحديثة الأخير (حوال ١٣٥٠ ق.م).

وقد نما هذا الأدب الحديث مضادا للأدب القديم فانه إلى هذا الوقت كانت لغة الآداب القديمة هى لغة الأدب فى كل القرون، وغاية ما حدث أن اقتربت من لغة المحادثات فى الوثائق الحيوية أو فى القصص الشائع وأخيرا أصبح الفرق بين اللغتين عظيما إلى حد أن اللغة القديمة لم يعرفها أحد من عامة الشعب.

غير أن هذه القيود قد حلت فى عهد الثورة الدينية العظيمة التى حدثت فى

أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة أيام «امنحوتب الرابع»، فقد بدأ القوم يكتبون الشعر بلغة العامة. وقد كتبت بهذه اللغة «أنشودة الشمس» الجميلة وهى عبارة عن منشور للاصلاح الدينى. وقد اختفى كل جديد أدخل مع هذا النظام الذائع بعد انهياره.. اللهم إلا نظام الكتابة بلغة العامة فانه كتب له البقاء .

وذلك - بلا شك - لأن الأحوال التى استمرت إلى هذا الوقت قد أصبح بقاؤها مستحيلا.. وفى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ازدهر أدب قوى مكتوب باللغة الجديدة التى نسميها «المصرية الجديدة».

وفى عصر «المصرية الجديدة» كان كذلك للمدارس نصيب وافر ولكن كتاباتها فى ذلك العهد اتخذت صيغة أكثر حياة مما كانت لها فى العصر القديم. وهذه الحيوية تظهر بوضوح فى أدب هذا العصر إذ رأى الناس الدنيا كما هى وشغفوا بها وعلى قدر ما وصل إلينا من كتاباتهم نلاحظ أن الأفكار العميقة ليس لها محل فى أدبهم، مع أنه من الجائز أن كشفا جديدا قد يصحح حكمنا من هذه الناحية.

ولم يستمر الأدب المصرى الجديد طويلا فى طريقه باستعمال لغة الشعب كما بدأ حقيقة.. كما كنا نظن إذ سرعان ما أخذ الكتاب يبحثون وراء تهذيب العبارات وهذه كانت علاقة ظاهرة فى الأدب القديم. وقد أصبحت لغة الفرد المهذب محلاة بألفاظ وجمل منتقاة وكان يجد سرورا فى تزيينها بألفاظ أجنبية وقد بقى هذا النوع من الأدب نحو ٥ قرون على ما يظهر ثم أصبحت لغته منعدمة وكان على الأولاد فى المدارس أن يتعلموها وبذلك يظهر أنه قد قضى على الحياة الأدبية. وقد بقى الحال كذلك عدة قرون إلى أن ظهر أدب جديد يسمى «الديموطيقى».

أخلاق قدماء المصريين من كتاباتهم

إذا استعرضنا الحكمة والنصيحة عند المصرى القديم، نلمس مدى الذوق الرفيع عند المصرى القديم وأثر ذلك فى سلوكه ومعاملته. وما زالت هذه الحكم والنصائح من أحب الأشياء إلى قلوب جميع الشعوب وتحتل مكانة عظيمة بين كتب القدماء لأنها اشتملت على دراسة قيمة. وخلاصة تجارب الحياة حيث ترسم لهم طريق السعادة وتضع بين أيديهم المثل العليا لكل من يريد النجاح فى الدنيا والآخرة، وتنظم صلة الناس ببعضهم وتضع لهم طريقا مفروشا بالنور لكى يضىء لهم حياتهم.

وإذا تصفحنا أمثال هذه الكتب المشتملة على الحكم والنصائح المصرية نقبل عليها بنفوس راضية سواء أكانت مما أتت به الأديان أم وردت فى كتابات الاغريق وذلك لأنها تكشف لنا عما فى قرارة النفس البشرية. نقرؤها ثم نقف قليلا لنتأكد من صداها فى نفوسنا وكثيرا ما نجد مهما بعدت الشقة والزمان بيننا وبين زمن كتابتها إلا أننا مازلنا فى حاجة إليها ونتعلم منها الشىء الكثير.

وكانت هذه الحكم والنصائح التى تحكم الذوق الرفيع عند المصرى القديم من أحب الأشياء إلى قلوب المصريين فى جميع أدوار حياتهم ومعاملاتهم وتاريخهم يكتبها الحكماء فى أغلب الحالات على لسان أب ينصح ابنه ويرشده إلى حسن السلوك كيما يصل إلى أعلى المراتب.

ولدينا من هذا النوع عدة برديات ربما كان أشهرها جميعا البردية المسماه نصائح «بتاححتب» الذى كان وزيرا للملك «زر كارع – أسيس» من ملوك الأسرة الخامسة، ونعرف له قبره فى جبانة سقارة.

وقد وصل إلى أيدينا أكثر من نص واحد من بردية نصائح بتاححتب أقدمها من الأسرة (١٢) أى بعد موت مؤلفها بأكثر من ٦٠٠ سنة. والنسخة

الكاملة من هذه البردية موجودة الآن فى متحف اللوفر بباريس وهى من الأسرة الثانية عشرة، وهناك بردية أخرى فى المتحف البريطانى[1] وهى من الدولة الحديثة.

ويتردد فى نفوس الكثيرين سؤال طالما سمعناه منهم أثناء زيارتهم للآثار ويتخيلون أن هذه الآثار التى عاشت أجيالا طويلة لم تشيد إلا بالاستعانة بالقوة والقسوة فى تسخير العمال الذين قاموا ببنائها، ويتبادر إلى الذهن أن ملوك الفراعنة كانوا ظلمة قساة القلوب، وأن الأمراء وحكام الأقاليم كانوا أعوانا للملوك فى هذه المظالم، فكأن تاريخ مصر سادته مظاهر الشدة والارهاب.

ولابد أن نؤكد أن هذه الآثار الخالدة لم يشيدها ملوك الأسرة الرابعة بالسخرة علاوة على أن هؤلاء الملوك كانوا يستخدمون العمال عندما تغمر مياه الفيضان أراضيهم.. ولا يكون لديهم ما يشغلهم من أعمال الزراعة. ودلتنا النقوش الأثرية ووثائق البردى على أن فرق العمال كانت تحظى بنصيب كبير من رعاية الملك وعمال حكومته، وأنى أقدم للقارىء هنا صورة صادقة من أخبار هذه العصور القديمة ليتبين مظاهر الرأفة والشفقة التى استعان بها حكام مصر.

- وقد خلف هؤلاء الملوك والحكام فيما عثر عليه من النقوش ومدارج البردى وغيرها نصائحهم وكتاباتهم التى كانت تحض النشىء على الرفق وحسن المعاملة وحفظ حقوق الغير وعدم العبث بحاجات الناس.

- ومن ذلك تعلم أن الشفقة عرفت طريق هؤلاء القوم فما كانوا يقتلون الناس ظلما وما كانوا يجلدون العبيد كما يتوهم البعض.

وكان للدين عليهم سلطان كبير نافذ على عقولهم فكان يدعوهم إلى التدين والتقوى والصلاح والإحسان إلى الغير والعمل الصالح، وكانوا يرفعون شعار

(١) متى نسترد هذه الآثار المسروقة.

عمل الخير والإحسان إلى الغير والعمل الصالح، وكانوا يرفعون شعار عمل الخير والإحسان والشفقة ومد يد المعونة لغير القادر، إذ اعتقدوا أن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى جنات الخلد والنعيم الدائم فى السماء إذا أظهر أثناء الحساب عند وزن القلب، أن روحه طاهرة نقية، وأنه لم يأت شرا ولا اثما، ولم يسبب فى حياته ضررا أو قسوة لأحد من الناس، وأن صفحة أيام حياته على الدنيا كانت ناصعة البياض خالية من الآثام والسيئات، وأنه لم يعتد على أحد ولم يتدخل فى شئون الغير.

اذكر فيما يلى بعض ما جاء فى كتابات القدماء التى ترجع فى تاريخها إلى عهود مختلفة، كى يقف القارئ على ما كان عليه أجدادنا الفراعنة الأمجاد من شفقة ولين ورفق مما لم يحدثنا به التاريخ عن أمة سبقتهم أو عاشت فى عهدهم، فهم الذين وضعوا أساس المدنية والتشريع فى العالم الذى سار فى أثرهم فى الحضارة والرقى، واقتفى خطواتهم فى المدنية والحضارة.

فهذا نص يقول : «لم ارتكب اثما ضد الرجال، ولم يشعر أحد بالجوع ولم أسبب بكاء أحد، وما أمرت بقتل نفس، ولا ارتكبت جريمة القتل بنفسى، ولم أسرق أى شخص، وما جعلت الناس تخافنى، ولم أك جبارا عاتيا، ولم أك قاسيا، فكنت أمد الجائع بالخبز، وأروى العطشان بالماء، وكنت أكسى العراة».

- هذه كلمات كتبها صاحبها يرجو عليها من الآلهة ثوابا وجزاء طيبا فى جنات الخلد، فنرى من وصفه لنفسه أنه كان على شىء كبير من سمو الأخلاق والكرم والرحمة فى دنياه، وأنه كان محبا للناس مشفقا عليهم، وأنه كان يعمل الخير بدافع من نفسه.

وكان اعتقادهم فى الحياة بعد الموت فى القبر، أكبر وازع لهم لعمل الخير وطهارة الذمة فقد تخيلوا أن نفس الإنسان يحل بالقبر بعد وفاته. ولا يكون

الإحسان والرحمة إليه إلا إذا كان المتوفى قد أحسن فى حياته معاملة الناس والتقرب إليهم بالإحسان والشفقة والخير، حتى إذا ما توفى حفظ لنفسه ذكرى طيبة فيذكر دائما بالخير والترحم عليه، والصلاة لروحه فيعيش سعيدا فى آخرته.

وما أكثر ما تركه لنا أجدادنا الفراعنة من قبيل تلك النقوش والكتابات على جدران قبورهم ما يدل على أنهم لم يتسببوا فى ضرر أحد، وكأنهم قد خلفوها لتسير بما جاء فيها.

– فهذا أحد قوادهم الحربيين «انتف» من الأسرة الحادية عشرة يقول لنا:

– قد كنت رجلا حارب القسوة وأمرت بتطبيق القانون بالعدل وكنت لطيفا مع متوثبى المزاج، أفهم قلوبهم. وأعرف الكلمات التى تجول بخاطرهم قبل أن يتفوهوا بها، وكنت خادما للفقير، ووالدا لليتيم، وحاميا للضعيف، وزوجا للأرملة، وكنت أسعد من يشقى».

– ويفاخر أحد الأمراء بقوله : « لم انتهك حرمة بنات أحد من الناس، ولم تكن عندى أرملة حزينة، ولم أنزع ملكية أرض أحد الفلاحين، وما كان هناك رجل تعيس بين رجالى، وما كان هناك جائع واحد فى عهدى».

ونصح «بتاح حتب» حكيم الدولة القديمة المشهور ابنه قائلا :

– «لا تجعل الناس تخافك، وعاملهم بالرفق واللين».

– وهو الذى ينفر من غرور العلم قائلا : «لا يداخلنك الغرور بسبب علمك ولا تتعال وتنتفخ أوداجك لأنك رجل عالم استشر الجاهل كما تستشير العالم لأنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى آخر حدود الفن ولا يوجد الفنان الذى يبلغ الكمال فى اجادته – أن الحديث الممتع أشد ندرة من الحجر الأخضر اللون ومع ذلك فقد تجده لدى الطبقات الوضيعة».

الالتزام بالحق ولو على نفسك : فيقول :

«إذا كنت زعيما يحكم الناس فلا تسع إلا وراء كل ما اكتملت محاسنه حتى تظل صفاتك الخلقية دون ثغرة فيها ما أعظم الحق فإن قيمته خالدة ولم ينل منها أحد من أيام الآلهة، ولكن الذى يعتدى على ما يأمر به يحل به العقاب والحق هو الطريق السنوى أمام الضال، ولم يحدث أبدا أن عرف عن عمل السوء أنه أوصل صاحبه سالما إلى مأمنه».

ويقول إلى رئيس ديوان المظالم :

«إذا كنت ممن يقصدهم الناس ليقدموا شكواهم فكن رحيما عندما تستمع إلى الشاكى لا تعامله الا بالحسنى حتى يفرغ مما فى نفسه وينتهى من قول ما أتى ليقوله لك. ان الشاكى يعطى أهمية لاراحة ذهنه. باسماع شكواه أكثر من تحقيق ما أتى لأجله.

أما ذلك الذى ينهر صاحب الشكوى فان الناس يقولون عنه .. لماذا تجاهلها؟ وايم الحق .. إن رفقك بالناس عند اصغائك للشكوى بفرح قلوبهم ».

- هكذا كان ديوان المظالم وشكاية المظلوم.

طاعة الوالدين فيقول :

«ما أجمل أن يصغى الابن عندما يتكلم أبوه فسيطول عمره من جراء ذلك، إن من يسمع يظل محبوبا من الله، ولكن الذى لا يسمع مكروه من الآلهة والقلب هو الذى يرشد صاحبه فيجعل منه شخصا يسمع أو شخصا لا يسمع، فقلب الإنسان هو حياته وسعادته وصحته، ما أجمل أن يستمع الابن إلى أبيه».

عقوق الوالدين : ويرسم عقاب عاق الوالدين قائلا :

أما الغبى الذى لا يسمع لوالديه نصحا ولا كلاما فلن يلقى نجاحا فهو ينظر إلى العلم كما لو كان جهلا، وإلى الخير كما لو كان شرا ويجلب على نفسه اللوم فى كل يوم لأنه يفعل كل ما هو مكروه من الناس، ويعيش على ما يسبب الموت للناس- إن قالوا السوء فهو طعام فى فمه وسيعرف الحكام خلقه وسيموت وهو حىَ فى كل يوم.. وسيتجنبه الناس لكثرة مساوئه التى تتكدس فوقه من يوم إلى يوم».

وهناك نصائح موجهة إلى جمنيكاى :

وهى بردية من انشاء الدولة الوسطى ولكن كاتبها نسبها إلى الدولة القديمة، وهذا النص الذى بين أيدينا مكتوب بلغة الدولة الوسطى ويجمع الجزء المحفوظ من هذه البردية بين بعض النصائح الأخلاقية وبين آداب السلوك والذوق فمثلا نقرأ منها :

إياك والتفاخر :

«لا تتفاخر بقوتك بين أقرانك فى السن وكن على حذر من كل إنسان حتى من نفسك إن الإنسان لا يدرى ماذا سيحدث أو ما الذى سيفعله الله عندما ينزل عقابه».

الحض على عمل الخير :

من النصائح الموجهة إلى مريكارع ويحض فيها ابنه على عمل الخير.

«هدىء من روع الباكى ولا تظلم الأرملة ولا تحرم إنسانا من ثروة أبيه ولا تطرد موظفا من عمله وكن على حذر ممن ينتقم مما وقع عليه من ظلم لا تقتل فإن ذلك لن يكون ذا فائدة لك بل عاقب بالضرب والحبس فإن ذلك يقيم

دعائم هذه البلاد، اللهم إلا من يثور عليك وتتضح لك مقاصده فإن الله يعلم خائنة القلب. والله هو الذى يعاقب أخطاءه بدمه.. لا تقتل رجلا إذا كنت تعرف جميل مزاياه».

ويخاطب الملك « خيتى» ابنه مسديا إليه النصيحة : «لا تجعل عقيدتك فى طول الحياة الدنيا.. ولا تغتر بها، فإن وقت الحياة الدنيا قصيرة كساعة واحدة[1] على الأرض، ولا يبقى للإنسان فى آخرته إلا عمله فهو كالكنز الثمين.. وحب الناس، وواس الحزين، وادع الأرملة، وإذا عاقبت، فراع العدل.. لا تقتل، ولا تظلم الناس فانهم عبيد الله يستمع لبكائهم».

– وهاهو أحد نبلاء الأمة «أمينى» – الأسرة ١٢– يقول لنا:

«انى أعطيت الأرملة كما أعطيت المتزوجة، وما كنت أفرق بين كبير وصغير وغنى وفقير».

– وهذا مهندس كبير ورئيس عمال يقول : «شغلت كل عمالى برفق وما ظلمتهم أو أهنتهم».

– وها هى بعض نصائحهم التى تحض على الشجاعة وكرم الأخلاق وحسن الطوية والمعاملة :

يذهب الشر بالخير

فم الإنسان ينجيه

اعطف على من هو أقل منك

لا تقل الكذب

---

(١) يقول : "ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة" أى فى قبورهم ، فما أعجب هذه الكلمة التى طابقت هذه الآية . ويقول تعالى : "قال قائل منهم كم لبثن قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم".

العمل باق إلى الأبد

اصنع طيبا.

خير للإنسان أن يبقى سره فى بطنه

لا تجعل الطمع رائدك فى جمع الثروة

خير للإنسان أن يعيش على خبز وماء مع راحة الضمير من أن يعيش على لحوم وهو منغص البال.

لا تصاحب الشخص الطائش.

احترم نفسك أمام الناس.

لتكن شهرتك بين الناس فيما تقوم به من عمل مجيد.

وإذا انتقلنا بك عزيزى القارىء إلى عصر آخر، هو عصر الدولة الحديثة واقتبست بعض فقرات من نصائح آنى إلى ولده ، نعرف منها الشىء الكثير عن أداب الذوق والسلوك. وما كان يراه المصريون فى ذلك العهد فى تكوين المجتمع وصلة الناس بعضهم ببعض فيقول :

فى الحث على الزواج :

«اتخذ لك زوجة وأنت فى شبابك حتى تلد لك ابنا وأنت شاب علمه ليصبح رجلا فما أسعد الشخص الذى يكثر أهله ويحييه الناس باحترام بسبب أولاده.

القناعة والتوجه إلى الله :

«لا تكثر من الكلام والزم الصمت فتسعد ولا تكن ممن يحبون الخوض فى الحديث عن الناس ان شر ما يحدث فى بيت الله هو إحداث الضجة فصل بقلب يملؤه الحب ولا ترفع صوتك بكلماتك وسيجيب الله سؤالك، ويتقبل قربانك».

الزجر والنهى عن الخمر :

س لا تؤذ نفسك بشرب الجعة إنك إذا أردت الكلام فإن الفاظا أخرى تخرج من فمك وإذا سقطت وكسر أحد أعضائك فلن يمد أحد يدا إليك ويصرخ أعز أصدقائك قائلا «احمونى من هذا الرجل عندما يشرب وإذا ما حضر إليك شخص ليبحث عنك ويوجه إليك سؤالا يجدونك ملقى على الأرض كطفل صغير».

عامل زوجك بالحسنى :

«لا تكثر من اصدار الأوامر إلى زوجتك فى منزلها إذا كنت تعلم أنها سيدة صالحة لا تقل لها أين هو؟ احضريه لنا.. لاحظها بعينيك والزم الصمت حتى تدرك جميل مزاياها. يا لها من سعادة عندما تضم يدك إلى يدها وكثير من الناس هنا لا يعرفون كيف حال الإنسان دون حدوث الشقاق فى منزله إن كل رجل يستقر فى منزل يجب أن يجعل قلبه ثابتا غير متقلب.. فلا تجر وراء امرأة أخرى ولا تجعلها تسرق قلبك ..».

الفصل السادس:

بتاح حتب .. وأقدم مصدر فى أدب العالم

تعد تعاليم «بتاح حتب» أقدم مصدر فى أدب العالم .. صور لنا الخلق المستقيم.. والواقع أن حكم «بتاح حتب» التى جاءت عن تجارب.. تلخص لنا كثيرا من الأدب الخلقى لهذا العصر وكما جاء فى مقدمة هذه التعاليم نجد أن الوزير المسن قد شعر بضعف الشيخوخة وطلب إلى الملك أن يسمح له بتعليم ابنه (ابن الوزير) ليحل محله فى وظيفته.

ولما قبل الملك ملتمس وزيره. أخذ الأخير يحذر ابنه بألا يسىء استعمال الحكمة التى سيلقنه إياها بل ينتهج سبيل التواضع فقال : «لا تكونن متكبرا بسبب معرفتك. ولا تثقن بأنك رجل عالم، فشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها. وليس هناك عالم يسيطر على فنة تماما. وأن الكلام الحسن أنصع من الحجر الأخضر الكريم ومع ذلك فانك تجده مع الإماء[1] اللائى على أحجار الطواحين.

ثم يأتى بعد ذلك اثنتان وأربعون فقرة فى نصائح مختلفة دون أى مجهود من المؤلف فى ترتيبها أو تنظيمها بل كتب كلا منها عفوا حسبما كان يحضر ذهنه من تجارب الحياة ومسئوليتها. وسنكتفى هنا بذكر أهمها..

معاملة الخطيب :

إذا وجدت خطيبا فى زمانه سليم العقل أمهر منك فاثن له ذراعك واحن له ظهرك. أما إذا تكلم هجرا فلا تقصرن حينئذ فى مقاومته حتى ينادى به الناس: أنت إنسان جاهل.

---

(١) الجوارى.

ولكن إذا كان مماثلا لك فاظهر بصمتك أنك أحسن منه إذا أخطأ فى الكلام وعندئذ سيمدحه السامعون ولكن اسمك سيعتبر حسنا بين العظماء.

أما إذا كان شخصا حقيرا ليس ندا لك فلا تغضبن عليه لأنك تعلم أنه تعس احتقره وبذلك يؤنب نفسه .. وأنه لقبيح أن يضر الإنسان شخصا محتقرا.

انك تفوز بالحياة بمساعدة الحق والصدق :

«إذا كنت قائدا وتصدر الأوامر للجم الغفير فاسع وراء كل كمال حتى لا يكون نقص فى طبيعتك ان الصدق جميل وقيمته خالدة وأنه لم يتزحزح منذ يوم خالقه، والذى يتخطى نواميسه يعاقب وهو أمام الضال كالطريق المستقيم إن الخطأ لم يقد مقترفه إلى الشاطئ.. حقيقة أن الشر يكسب الثروة ولكن قوة الصدق فى أنه يمكث.. والرجل المستقيم يقول أنه متاع والدى».

أدب السلوك فى الضيافة :

« إذا اتفق أنك كنت من بين الجالسين على مائدة من هو أكبر منك مقاما فخذ ما يقدم لك حينما يوضع أمامك ولا تنظرن إلى ما هو موضوع أمامه بل انظر إلى ما هو موضوع أمامك .. ولا تصوبن نظرات كثيرة إليه لأن ذلك مما تشمئز منه النفس إذا احفظها الإنسان، وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييك وتكلم فقط بعد أن يرحب بك واضحك حينما يضحك فان ذلك يدخل السرور على قلبه وما تفعله يكون مقبولا لأن الإنسان لا يعلم ما فى القلب.

والرجل العظيم يتوقف عزمه على إرادة نفسه حينما يجلس أمام الطعام والرجل العظيم يعطى لمن يجاوره.. والخبز يؤكل بأمر الله».

كن أمينا فى تبليغ الرسائل :

« إذا كنت فردا ممن يوثق بهم وأرسلك رجل عظيم إلى آخر، فاعمل بنصح فى الأمر حينما يرسلك فيجب عليك أن تبلغ الرسالة كما قالها، ولا تكونن كتوما فيما يمكن أن يقال لك واحذر النسيان. واحرص على الصدق ولا تتخطه حتى لو كنت مخبرا شيئا لا يسر. واحذر أن تقبح الكلام، فربما يصير العظيم محتقرا عند آخر بوساطة القاء الكلام كالعامة. «وسيصبح وسيراه العظيم أمراً تكرهه النفس».

إذا حرثت وكان هناك نبات فى الحقل وأعطاك الله الخير العميم فلا تشبعن فمك بجانب أقاربك».

لا تصغرن من شأن أولئك الذين ارتقوا فى الدنيا:

«إذا كنت رجلا متواضعا، وكنت فى ركاب رجل ذائع الصيت من الذين على وئام مع الاله (الملك) فتجاهل ماضى وضاعته، ولا تحقدن عليه. بما تعرفه عنه فيما سلف، واحترمه على حسب مكانته التى أصبح فيها لأن الغنى لا يأتى وحده»

خصص لنفسك وقتا لترويح نفسك :

«اتبع روحك ما دمت حيا، ولا تفعلن أكثر مما قيل لك. ولا تنقص من الوقت الذى تتبع فيه قلبك لأنه مكروه عند النفس إذا انتقص وقتها العناية الزائفة بمنزلك

معاملة ابنك :

«إذا كنت محترقا. وكان لك بيت، وولد لك ابن فإذا عمل صالحا، ومال إلى طبعك، وسمع تعاليمك، وكانت خططه ذات نتيجة حسنة فى بيتك، ومعتنيا بمالك

كما يجب فابحث له عن كل شيء حسن. فهو ابنك الذى ولدته لك. كان .. (نفسك) ولا تنفرن قلبك منه.

ولكن إذا عمل سوءا . وأعرض عن خططك (نصائحك) ولم يعمل حسب تعاليمك، وصارت خططه لا قيمة لها فى بيتك، وتحدى كل ما تقوله.. عندئذ القصه لأنه ليس .. ولم يولد لك.

السلوك فى بهو العظماء :

«إذا وقفت أو قعدت فى البهو، فانتظر بهدوء حتى يأتى دورك. واصغ إلى الخادم الذى يعلن، ومن نودى فله مكان متسع. والبهو له نظامه. وكل ترتيب فيه على حسب خيط القياس. وأن الاله هو الذى يعين المكان الأول - ولا يصل الإنسان إلى شيء بالمرفق.

كن حازما فى حديثك مع الناس.

أعلن عملك بدون خفاء، وتقدم بأفكارك فى مجلس سيدك.. ويجب على الإنسان أن يقول بوضوح ما يعرفه وما لا يعرفه.. فهو صامت ويقول : « لقد تكلمت».

معاملة أصحاب المظالم :

إذا كنت ممن يقدم لهم الشكاوى. فكن شفيقا حينما تسمع كلام المتظلم، ولا تسء معاملته إلى أن يغسل بطنه. وإلى أن يقول ما قد جاء من أجله، وأن المتظلم يحب كثيرا أن يهز الإنسان رأسه إلى كلامه إلى أن ينتهى مما جاء من أجله

وأن مجلسا حسنا يسر القلب. ولكن من يمثل القسوة نحو المتظلم، فإن الناس يقولون «لأى سبب يفعل هو كذلك ؟».

التحذير من النساء :

«إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله سيدا أو أخا أو صاحبا، فاحذر القرب من النساء، فإن المكان الذى هن فيه ليس بالحسن.

ومن أجل هذا يذهب ألف إلى الهلاك : فان الرجال يصيرون مجانين بأعضائهن المبهرجة وبعد ذلك تصير مثل «حجر هرست» شيئا تافها مثل الحلم، والموت يأتى فى النهاية».

التحذير من الشراهة :

«إذا أردت أن يكون خلقك محمودا وأن تحرر نفسك مما هو قبيح، فاحذر الشراهة فانها مرض مملوء بالداء ولا يشفى. والصداقة معها مستحيلة، فانها تجعل الصديق العذب مرا. وتقصى ذا الثقة عن سيده وتجعل كلا من الأب والأم قبيحا وكذلك الأخوال، وتفصل الزوج عن زوجته. وهى حزمة من كل أنواع الشر وحقيبة مملوءة من كل شىء مرذول. وأن الرجل الذى يتبع طريقة حقة فى سلوكه ويسير على الصراط السوى، يعيش طويلا ويكسب الغنى بذلك، ولكن الشره لا قبر له.

لا تكونن شرها فى القسمة. ولا تكونن ملحا إلا فى حقك، ولا تطمعن فى مال أقاربك، فإن التماس التواضع يجدى أكثر من القوة.. فان القليل الذى اختلس منه.. يولد العداوة حتى عند صاحب الطبع اللين.

فائدة الزواج :

«إذا كنت رجلا ذا مكانة، فأسس لنفسك بيتا واحبب زوجك فى البيت كما يجب. وعليك أن تملأ بطنها وتستر ظهرها، والعطور هى دواء أعضائها. واشرح قلبها طالما عاشت فانها حقل مثمر لربها».

كن كريما مع أصدقائك:

«اشبع أصدقاؤك بما جد لك كإنسان نال الحظوة عند الآله (الملك) ومن الحزم أن تفعل ذلك إذ ليس هناك إنسان يعرف مصيره إذا فكر فى الغد. فإذا أصابت المقربين مصيبة فان الأصدقاء هم الذين لا يفتئون. يقولون مرحبا له. فعليك أن تستبقى ودهم لوقت السخط الذى يهدد الإنسان».

كن حذرا فى الكلام :

«إذا كنت رجلا ذا مقام سام يجلس فى محفل سيده فوطن عقلك على ما هو حسن.. والزم الصمت فان هذا أحسن من أزهار «تقطف». وتكلم فقط إذا كنت تعلم بأنك ستحل المعضلات وأن الذى يتكلم فى المحفل لفنان فى الكلام. والكلام أصعب من أى حرفة أخرى.

لا تثقن بالحظ :

«إذا أصبحت عظيما بعد أن كنت صغير القدرة وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجا فى المدينة التى تعرفها (موطنك القديم) فلا تنسين كيف كانت حالتك فى الزمن الماضى. لا تثقن بثروتك التى أتت إليك منحة من الله، فانك لست بأحسن من غيرها من أقرانك الذين حدث لهم ذلك الفقر».

احترام الرؤساء :

«أمن ظهرك لمن هو أعلى منك وبذلك يبقى بيتك بخيره ويدفع لك مرتبك فى حينه. ومقاومتك من فى يده السلطة قبيح. والإنسان يعيش ما دام متساهلا.

الحذر فى المصاحبة :

«إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته.. اقترب منه. وكن معه

منفردا وامتحن قلبه بالمحادثة فإذا افشى شيئا قد رآه. وأتى أمرا يجعلك تخجل له فعندئذ احذر حتى فى أن تجاوبه.. كن صبوح الوجه مادمت حيا».

واهتم كذلك المصرى القديم بالأشياء الدنيوية التى تحث السامعين على التمتع بأكثر ما يمكن مدة حياتهم. والدولة الحديثة التى قد حفظت لنا تلك الأشياء عرفت أنها مأخذوة من بيت الملك «أنتفش أى من قبره. وقد كتبت أمام المواد أيضا وتوجد صورة كاملة منها بين أغانى الدولة الحديثة

«ما أسعد هذا الأمير الطيب، والمقدر الجميل قد وقع، تذهب أجسام وتبقى أخرى.. منذ عهد الذين كانوا من قبلنا. والملوك الذين وجدوا فى الزمن الغابر راقدون فى أهرامهم.. والأشراف قد دفنوا فى أهراماهم كذلك.. والذين بنوا بيوتا قد أصبحت مساكنهم.. كأن لم تكن. فماذا جرى لهم ؟

لقد سمعت أحاديث «أمحوتب» «وحاردرف» اللذين يتحدث بكلماتهما فى كل مكان .. ما هى مساكنهما الآن؟ جدرانها دمرت ومساكنهما لا وجود لها كأن لم تكن قط.

ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا كيف حال من قبلنا ويخبرنا عما يحتاجون إليه لتطمئن قلوبنا قبل أن نذهب نحن كذلك إلى المكان الذى ذهبوا إليه. كن فرحا حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوما ما بموتك فمتع نفسك مادمت حيا. وضع العطر على رأسك، والبس الكتان الجميل. وضمخ نفسك بالروائح الزكية المقدسة

وزد كثيرا فى المسرات التى تملكها ولا تجعلن قلبك يكتئب. اتبع رغباتك وافعل الخير لنفسك. افعل ما تميل إليه على الأرض لا تغضبن قلبك حتى يأتى يوم تعبك ومع ذلك فان صاحب «القلب الساكن» لا يسمع عويلهم وأن الصياح لا ينجى إنسانا من العالم السفلى

ثم يقول فى النهاية :

«اقض اليوم فى سعادة.. ولا تجهدن نفسك.. فإن أحدا لم يأخذ متاعه معه. اصغ.. وليس فى قدرة إنسان قد ولى أن يعود ثانية».

وهناك تعاليم الملك خيتى لابنه مرى كارع:

وقد اقتبسنا منها بعض المقتطفات وتمتاز هذه الورقة بما جاء فيها .. يكاد يكون معدوما فى كل التعاليم الأخرى. ومن الحكم الرائعة التى جاءت فيها:

قيمة حسن الكلام والحكمة :

كن حاذقا فى صناعة الكلام، لأن قوة الرجل لسانه.. والكلام أقوى من أية محاربة.. والحاذق لا يعارضه أحد والذين يعرفون أنه عاقل لايهاجمونه. ولا يلحقه مكروه أينما كان. ويأتى إليه الصدق بعد أن اختمر تماما، كما كان يتكلم به الأجداد.

الله وبنو الإنسان :

إن الفرد الذى يحمل فضيلة الحق فى قلبه أحب إلى الله من نور الظالم، اعمل شيئا لله حتى يعمل لك بالمثل. ان الله عليم بمن يعمل له شيئا».

وقد ختم هذا الملك الحكيم كلامه بتأملات تدل على اعتقاده بالوحدانية ووصف خالقه المسيطر على العالم . نذكرها فيما يلى :

«إن الله قد عنى عناية حسنة برعيته فقد خلق السموات والأرض.. طبق رعبتهم.. وخفف الظمأ بالماء وخلق لهم الهواء حتى تحيا به أنوفهم.. وهم صوره التى خرجت من أعضائه[1]، وهو يرتفع إلى السماء، وخلق النبات

---

(١) هذه عقيدة وحدة الوجود وهى عقيدة كفرية

والماشية والطيور والأسماك غذاء لهم وهو كذلك يعاقب فذبح أعداءه.. بسبب ما دبروه حينما عصوا أمره.

ويضع النور حسب رغبتهم كذلك يجعلهم ينامون ويسمع عندما يبكون وجعل لهم منفذا من الفرج».

سلوك مصرى .. وروحه :

هذا سلوك شعرى .. بين إنسان قد سئم الحياة وبين روحه :

(ورقة محفوظة بمتحف برلين) تعد محتويات هذه الورقة أقدم وثيقة فى متناولنا عن موضوع روحى فى تاريخ العالم وهى تشبه «كتاب يعقوب» الذى كتب بعدها بنحو ١٥٠٠سنة. ولا نزاع فى أن اختيار المؤلف لهذا الموضوع كان وفقا لحالة الاضطراب والفقر والعوز التى كانت تسود البلاد فى هذا العهد المظلم.

– ومما يؤسف له أن مقدمة هذا الكتاب التى ذكرت فيها أسباب هذه الثورة الروحية قد فقدت ولكن ما بقى لنا من الوثيق يمكننا من أن نتلمس منها تلك الأسباب.

– والواقع أن هذا اليائس كان رجلا رقيق الروح ولكنه رغم ذلك قد داهمه الحظ العاثر إذ أصبح مريضا وابتعد عنه أصدقاؤه، وحتى أخوته الذين كان من واجبهم أن يواسوه فى مرضه، ولم يجد بجانبه خلا وفيا.

وفى وسط تلك المصاعب سرق جيرانه متاعه، وما عمله من صالح الأمس قد نسى اليوم، ورغم أنه كان صاحب حكمة فانه قد أقصى عندما كان يريد أن يترافع عن حقه. وقد حكم عليه ظلما، واسمه الذى كان يجب أن يكون موضع الاحترام، أصبح نتنا فى أنوف الناس».

وفى هذا الوقت العصيب عندما كان يسبح فى الظلام واليأس صمم على أن ينتحر فتراه وهو واقف على حافة القبر على حين أن روحه كانت تفر من الظلمة فى فزع وتأبى أن تتبعه، وبعد ذلك تجد فى الورقة أن هذا التعيس يكلم نفسه أى يتحدث إلى روحه وكأنه يتحدث إلى شخص آخر.

وقد كان أول سبب فى عدم اطاعة روحه وإتباعها إياه إلى الآخرة خوفها من ألا تجد طعاما فى القبر بعد الموت، وقد يظهر ذلك غريبا جدا لأول وهلة من رجل يشك كثيرا فى مثل هذه التحضيرات التى كانت تجهز للمتوفى فى آخرته، ولعل هذا التعليل حيلة أدبية يريد الكاتب أن يتخلص منها إلى عدم فائدة هذه المعتقدات الجنازية.

والظاهر أن الروح نفسها قد اقترحت عليه الموت حرقا ولكنها فرت بنفسها من هذه النهاية الفظيعة. ولما لم يكن من بين الأحياء لهذا التعس صديق أو قريب يقف بجانبه، ويقوم بالاحتفالات الجنازية. أخذ يستحلف روحه أن تقوم له بكل هذا، ولكن الروح على أية حال أبت الموت فى أى شكل وأخذت نصف فظائع القبر.

ثم فتحت روحى فمها وأجابت عما قلته: إذا تذكرت الدفن، فإنه حزن ، وذكراه تثير الدمع . وتفعم القلب حزنا فهو ينتزع الرجل من بيته ويلقى به فى الأرض .. ولن تخرج قط ثانية لترى الشمس.. على أن هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر قبورهم.. وأقاموا حجر دفن فى الهرم.. وهذا الجميلون الذى شيدوه وهذا المبنى الجميل.. وأصبحوا مثل الآلهة.. ترى موائد قربانهم هناك خاوية كموائد أولئك المتعبين الذين يموتون على الجسر من غير خلف لهم، فيبتلع الفيضان ناحية من أجسامهم وتلفحهم حرارة الشمس كذلك.. ويلتهمهم سمك شاطىء النهر ويعبث بهم. اصغ الى أنه لجدير بالناس أن يصغوا تمتع بيوم السرور وانس الهموم

وهذا هو جواب الروح عندما تمثل أمامها منظر الموت ولكن اليائس قد أكد أن «من كان فى هرمه ومن وقف بجوار سرير موته، أحد الأحياء، يكون سعيدا، وقد سعى أن تقوم روحه بدفنه وبتقديم القرابين، وتقف عند القبر يوم الدفن، لتجهز السرير فى الجبانة».

ولكن كان مثله مثل ضارب العود فى الأغنية فقد تذكرت روحه.. قبور العظماء التى خربت، وموائد قربانهم التى أصبحت خاوية كموائد العبيد التعسين الذين ماتوا كالذباب فى وسط الأعمال العامة. على جسور الرى وقد أصبحت أجسامهم عرضة للحر اللافح.. والأسماك الملتهمة فى انتظار الدفن. فلم يكن هناك إلا حل واحد لكل ذلك :«أن يعيش الإنسان جاعلا الحزن نسيا منسيا.. وينغمس بكليته فى السرور».

ويلحظ أنه إلى هذا الحد لم تختلف هذه المناظرة التى تنحصر كل فلسفتها فى أن «يأكل الإنسان ويشرب ويكون مرحا.. لأنه سيموت غدا» .. إلا أنه يبرهن على أن الحياة رغم أنها ليست فرصة للسرور. إلا أنها عبء لا يمكن احتماله أكثر من الموت.. وقد أوضح هذا فى أربع مقطوعات شعرية خاطب بها هذا التعيس روحه وهذه المقطوعات تؤلف الجزء الثانى من هذه الوثيقة ولحسن الحظ يجد معظمها مفهوما.

المقطوعة الأولى : تصف لنا مقت العالم بغير حق لاسم هذا التعيس.

المقطوعة الثانية : نجد فى هذا الشعر أن ذلك الشقى ينتقل من نفسه ليصف هؤلاء الذين كانوا سببا فى تعسه، فينظر إلى مجتمع عصره فلا يجد فيه الا الغش والخيانة والظلم وعدم الوفاء حتى بين أقاربه.

المقطوعة الثالثة . أنشودة فى مدح الموت. على أننا نجد فيها تأملات فى ميزات الموت كما سنجد بعد ذلك بنحو ١٥٠٠ سنة فيما ذكره أفلاطون عن

أستاذه سقراط، ولكنها أول شكوى لرجل حاق به الظلم ومن المدهش أنها لا تحتوى على أفكار عن الاله بل تنحصر فى خلاصة من آلام الماضى التى لا تحتمل.. ولا ينظر قط للمستقبل.. هذا من مميزات العصر الذى عاش فيه.. ولا نزاع فى أن الصورة التى رسمها هذا الكاتب قد أخذت من الحياة اليومية فى وادى النيل فى تلك الفترة.

المقطوعة الرابعة : يختم هذا البائس كلامه بالالتجاء إلى العدالة فى الآخرة وبذلك قد جعل من الموت مدخلا إلى قاعة المحاكمة.. وكان عليه أن يذهب إليها بأسرع ما يمكن.

«اسمى ممقوت ..»

انظر أن أسمى ممقوت.. أكثر من رائحة اللحم النتن. فى أيام الصيف عندما تكون السماء حارة.

انظر أن اسمى ممقوت.. أكثر مما يمقت صيد السمك. فى يوم صيد تكون السماء فيه حارة.

انظر أن اسمى ممقوت أكثر من رائحة الطيور. وأكثر من تل من الصفصاف ملىء بالأوز.

انظر أن اسمى ممقوت، أكثر من رائحة السماك. وأكثر من شواطئ المستنقعات عندما يصاد عليها.

انظر أن اسمى ممقوت.. أكثر من رائحة التماسيح. وأكثر من الجلوس.. حيث التماسيح.

انظرأن اسمى ممقوت، أكثرمن زوجة، عندما يقال عنها الأكاذيب لزوجها.

انظر أن اسمى ممقوت، أكثر من حب شديد. قد قيل عنه أنه.. لمن يكرهه.

انظر أن اسمى ممقوت، أكثر من مدينة، أكثر من تاثر ولى الأدبار.

لمن أتكلم اليوم

لمن أتكلم اليوم ؟: الأخوات شر. وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب.

لمن أتكلم اليوم ؟: الناس شرهون، وكل إنسان يغتال متاع جاره.

لمن أتكلم اليوم ؟: اللطف قد باد، والوقاحة صارت فى كل القوم.

لمن أتكلم اليوم ؟: فإن من كان ذا وجه باسم أصبح خبيثا وأصبح الخير ممقوتا فى كل مكان.

لمن أتكلم اليوم ؟ : فان الذى يستفز غضب الرجل الطيب بأعماله الشريرة يسر منه الناس ويضحكون كلما كانت خطيئته شنيعة.

لمن أتكلم اليوم ؟ : الناس يسرفون وكل إنسان يغتصب متاع جاره.

لمن أتكلم اليوم ؟ : فقد أصبح الرجل المريض هو الصاحب الذى يوثق به. أما الأخ الذى يعيش معه فقد صار العدو.

لمن أتكلم اليوم؟ حيث لا يذكر أحد الماضى، ولن يفعل أحد الخير لمن يسديه إليه.

لمن أتكلم اليوم ؟ : الأخوات شر والإنسان صار يعامل كعدو رغم صدق ميوله

لمن أتكلم اليوم ؟ إذ لا نرى الوجوه وأصبح كل إنسان يلقى بوجهه فى الأرض عراضا عن إخوانه

لمن أتكلم اليوم ؟ والقلوب شرهة. والرجل الذى اعتمد عليه القوم لا قلب له.

لمن أتكلم اليوم؟ فالصديق الذى يعتمد عليه معدوم. وأصبح يعامل الإنسان كأنه فرد مجهول. رغم أنه قد جعل نفسه معروفا.

لمن أتكلم اليوم ؟: إذ لا يوجد أحد فى سلام. والذى ذهب منه لا وجود له.

لمن أتكلم اليوم ؟: فانى مثقل بالشقاء وينقصنى خل وفى.

لمن أتكلم اليوم ؟: فإن الخطيئة التى تصيب الأرض لا حد لها

الموت أمامى :

أن الموت أمامى اليوم .. كمثل المريض حيثما يشفى وكمثل الذى يمشى فى الخارج بعد المرض.

إن الموت أمامى اليوم.. كرائحة بخور المر.. وكمثل إنسان يقعد تحت الشراع فى يوم شديد الريح.

إن الموت أمامى اليوم .. كرائحة زهرة السوسن وكما يقعد الإنسان على شاطىء السكر

إن الموت أمامى اليوم كطريق معبد. وكما يعود الرجل من الحرب إلى بيته

إن الموت أمامى اليوم. كرجل يتوق إلى رؤية بيته بعد أن قضى سنين عدة فى الأسر.

ماذا قالت روحى:

إن الذى هنالك .. سيقبض على المذنب كاله حى.. ويوقع عقاب الإجرام على من اقترفه.

إن الذى هنالك.. سيقف فى سفينة الشمس ويجعل أحسن القرابين هناك تقدم للمعابد

إن الذى هنالك.. سيكون رجلا عاقلا لم ينبذ مصليا« لرع» حينما يتكلم.

هذا ما قالته روحى لى : أترك العويل ظهريا يا خلى ويا أخى.

سأسكن هنا إذا كنت ترفض الغرب.. ولكن حينما تصل إلى الغرب ويتحد جسمك مع الأرض فانى سأنزل عندئذ بعد أن تستريح.

.. دعنا إذا نسكن معا..

سلوك جديد .. وأسلوب فى الشكاية :

لدينا أربع نسخ من كتاب أطلق عليه علماء الآثار «شكاوى» الفلاح الفصيح ويرجع تاريخ كتابتها إلى عهد الدولة الوسطى. وهذا الكتاب مثال للفصاحة. فتعابيره غاية فى الرشاقة والبلاغة، وموضوعه يتلخص فى شخص فصيح ألقى تسع خطب فى ثوب شكاوى تعد من أبدع وأروع ما قيل بسبب حادث ظلم وقع له.

– ومحور هذه الخطب مدح العدل وذم دناءة الموظفين ولكن التعبير التى كانت تتدفق فى فم الخطيب جعلتنا نكاد ننسى الغرض الذى قيلت من أجله.. ولا شك أن هذه الخطب قد تظهر للقارئ الحديث مملة متشابهة، غير أنها ربما كانت فى الحقيقة حسنة الوقع فى أذن المصرى، يحس بما فيها من رشاقة وحذق مما يتعسر علينا إدراكه، وبخاصة إذا عرف أننا لم نفهم هذا الكتاب الا بشكل غير متكامل.

وقد وقعت حوادث هذه القصة فى عهد الملك «نب كاورع» أحد ملوك «هراكليوبوليس» (اهناسيا المدينة الحالية) ويحمل لقب «حنيت» وقد حكم البلاد

فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، وتتلخص القصة فى أن فلاحا من مقاطعة الفيوم من إقليم وادى النطرون كان يسكن ببلدة تسمى حقل النطرون. واتفق أن هذا الفلاح وجد مخازن غلاله تكاد تكون خاوية، فحمل حميره محصولات قريته واتجه نحو اهناسيا طلبا للمبادلة بالغلال وقد كان عليه أن يمر فى طريقه إلى العاصمة بمنزل «تحونى نخت» أحد موظفى «رنزى» الذى كان المدير العظيم لبيت الملك.

وقد راقت هذه الحمير فى عين «تحونى نخت» فدبر حيلة للاستيلاء عليها عنوة هو وأتباعه، فاتخذ حيلة حينما أكل أحد الحمير بضع سيقان من القمح كانت هذه سببا لضرب الفلاح ضربا مبرحا واغتصاب حميره، وقد مكث بباب «تحونى نحت» أربعة أيام يرجو فيها إرجاع حميره ولكن بدون جدوى.

ولما علم هذا الفلاح بشهرة عدالة «رنزى» المدير العظيم لبيت الملك. ولى وجهه شطر المدينة ليشكو إليه ما حاق به ولحسن حظ الفلاح صادف المدير العظيم لبيت الملك وهو يتأهب لركوب قاربه، فأخذ يقص عليه ما أصابه بلغة فصيحة مما استرعى سمعه فأرسل أحد خدمه ليسمع قصة الفلاح.

ولما عاد وأخبر «رنزى» بسرقة «نحونى نخت» للحمير، عرض المدير العظيم لبيت الملك الموضوع على زملائه من الموظفين وقد حذق المؤلف فى جعل جوابهم يتفق مع ما يحدث فى مثل هذه الأحوال، وهو تحامل الموظف على الفقير فى الدوائر الحكومية مهما كان الحق فى جانبه.

ولذلك نرى أن زملاء المدير الكبير قد انحازوا إلى جانب «نحوتى نخت» وأجابوا «رنزى» بفتور عظيم بأن المسألة ربما كانت تنحصر فى موضوع فلاح قد دفع ما عليه من الضرائب خطأ لرئيس غير رئيسه، وأن «تحونى نخت» قد استولى بحق على ما يستحقه من الضرائب.

ثم تساءلوا فى غضب: هل سيعاقب «تحونى نخت» من أجل قليل من النطرون، وقليل من الملح؟ فليطلب إليه أن يعيدها وهو لا يتأخر.

.. ويلاحظ أنه من خصائص هذه الطبقة أنهم يتجاهلون الحمير التى اغتصبت والتى يسبب ضياعها موت هذا الفلاح وأسرته جوعا. وعندما سمع الفلاح بذلك تقدم إلى «رنزى» وأخذ يقص عليه شكايته بفصاحة ولباقة :

اجعل اسمك .. فوق كل قانون :

عندئذ أتى الفلاح ليقدم مظلمته إلى مدير البيت العظيم «رنزى» ابن «مرو» فقال : «يا مدير البيت العظيم ، يا سيدى، يا عظيم العظماء، يا حاكما على ما قد فنى وما لم يفن.. وإذا ذهبت إلى بحر العدل.. فان الهواء لن يمزق شراعك وقاربك لن يتباطأ ولن يحدث لساريتك أى ضرر. ومرساك لن يكسر، ولن يغوص (قاربك) حينما ترسو على الأرض، ولن يحملك التيار بعيدا، ولن تذوق أضرار النهر، ولن ترى وجها مرتاعا .. والسمك القفاز سيأتى إليك وستصل يدك إلى أسمن طائر.

انك أب لليتيم، وزوج للأرملة، وأخ المهجورة. ومئزر لذلك الذى لا أم له.. دعنى أجعل اسمك فى هذه الأرض فوق كل قانون عادل، فتكون حاكما خلواً من الشره وشريفا بعيدا عن الدنايا ومهلكا للكذب ومقيما للعدل. رجلا يلبى نداء المستغيث، انى أتكلم.. فهل لك أن تسمع، أقم العدل أنت يا أيها الممدوح الذى يمدح من الممدوحين. اكشف عنى الضر.. انظر إلى .. أن حملى ثقيل.. اختبرنى أنى ضعت.

الزم الصمت .. واعطه لقمة العيش:

وقد اتفق أن هذا الفلاح قد ألقى هذه الخطبة فى عهد : «نب كاورع»، وقد ذهب المدير العظيم للبيت «رنزى» بن (مرو) أمام جلالته وقال : «سيدى لقد

عثرت على أحد هؤلاء الفلاحين، وفى الحق أنه فصيح، وهو رجل قد سرق متاعه، وانظر أنه قد حضر ليتظلم لى من أجل ذلك».

عندئذ قال جلالته: «بقدر ما تحب أن ترانى فى صحة.. دعه يتباطأ هنا دون أن تجيب عن أى شيء قد يقوله .. ولأجل أن تجعله يستمر فى الكلام.. الزم الصمت .. ثم أمر بأن يؤتى لنا بذلك مكتوبا حتى نسمعه ولكن مد زوجته وأطفاله بالمئونة.. ثم انظر أن يأتى أحد الفلاحين إلى مصر فهذا بسبب فقر بيته وزيادة على ذلك من هذا الفلاح نفسه. فلابد من أن نأمر باعطائه الطعام دون أن يعلم أنك أنت الذى أعطيته إياه».

وعلى ذلك أعطى عشرة أرغفة كل يوم. وقد تعود رب البيت العظيم «رنزى» بن مرو أنه يعطى تلك الأشياء لأحد أصدقائه.. وكان هذا يعطيها إياه ثم آن المدير العظيم للبيت «رنزى» بن مرو أرسل إلى شيخ بلدة (سخت حموت) ليعطى زوجة ذلك الفلاح ثلاثة مكاييل من القمح كل يوم.

يا خيط الميزان .. لا تتذبذب..

هذا الفلاح قد أتى ليتظلم له مرة ثانية وقال يا أيها المدير العظيم للبيت الملكى يا سيدى.. يا عظيم العظماء يا أغنى الأغنياء يا من عظماؤه لهم واحد أعظم منهم يا من أغنياؤه لهم واحد أغنى منهم أنت يا ساكن السماء، ومثقال الميزان لا تتحول، يا خيط الميزان لا تتذبذب.. إن السيد العظيم يأخذ مما ليس له بمالك وينهب واحداً. إن فى بيتك، قدحا وثلاثة أرغفة وما الذى يمكن أن تصرفه لاطعام عملائك.. مع أن الإنسان سيموت مع خدمه ؟

فهل ستكون رجلا مخلدا؟

أليس من الخطأ.. ميزان يميل وثقل ينحرف ورجل مستقيم يصير معوجا؟ تأمل أن العدل يفلت من تحتك وذلك لأنه أقصى عرفانه فالحكام

يشاغبون، وقاعدة الكلام تنحاز إلى جانب.. والقضاة يتخاطفون ما اغتصبه؟.. ومعنى ذلك أنه محرف الكلام عن دقته يخرجه عن معناه ؟..

فمانح النفس يتلاشى على الأرض.. وذلك الذى يأخذ راحته يجعل الناس يلهثون.. والبلدة فيضان لنفسها.. والمنصف مشاغب.

ثم قال المدير العظيم للبيت «رنزى» هل تعتقد فى قلبك أن ممتلكاتك أمر أهم من أن يقصيك خادمى؟!

قال الفلاح : إن كيال أكوام الغلال يعمل لمصلحته الشخصية.. وذلك الذى يجب عليه أن يقدم حسابه تاما يجور على متاع غيره، ذلك الذى يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون يأمر بالسرقة.. فمن ذا الذى يكبح الباطل.. ؟ وذلك الذى يجب عليه أن يقضى على الفقر يعمل بالعكس.. ويسير الإنسان إلى الأمام فى الطريق المستقيم بوساطة منحنيات.. وآخر ينال الشهرة بالأضرار فهل تجد لنفسك هنا أى شىء؟.. إن اصلاح الخطأ قصير ولكن الضرر طويل!..

والعمل الطيب يعود ثانية إلى مكانه بالأمس.. والواقع أن الحكمة تقول :

«عامل الناس بما تحب أن تعامل به».. وذلك كشكر إنسان على ما يعمله، وكمنع شىء قبل تشكيله.. مع أن الأمر قد أعطى للصانع.

- يتمنى الشر للأمير : .. ليت لحظة تجرى .. فتجعل كرمك رأسا على عقب، وتفتك بطيورك.. وتودى بدواجنك المائية، فالمبصر قد غش بصره والمستمع قد صم .. وذلك الذى كان يجب أن يكون مردا أصبح مضللا.

لسان الرجل .. قد يكون سبب تلفه:

.. «تأمل أنك قوى شديد البأس.. وقلبك مفترس.. وقد تخطئك الرحمة.. ما مقدار حزن الرجل الفقير الذى قضى عليه بجوارك.. ومثلك كرسول التمساح بل أنك تفوق «ربة الوباء» فإذا كنت لا تملك شيئا فهى لا تملك شيئا كذلك.. وإذا

كانت لا تدين بشيء.. فكذلك أنت لا تدين بشيء.. وإذا كنت لا ترتكبها فهى لا ترتكبها والذى يملك خبزا يجب أن يكون رحيما، ان عمل الشاكى طويل.. والفصل فيه يسير ببطء.. ويتساءل الناس ما معنى ذلك الرجل الذى هناك.. كن معينا حتى تظهر قيمتك واضحة.. تأمل أن مسكنك قد أصبح موبوءا.. اجعل لسانك يتجه إلى الحق، ولا تضل.. إن لسان الرجل قد يكون سبب تلفه.

«لا تقل الكذب واحترس من الموظفين. إن قول الكذب نباتهم، ومن المحتمل أن يكون خفيفا فى قلوبهم. وأنت يا أكثر الناس علما، هل تريد أن تعرف شيئا وأنت يا من تقضى حوائج الماء تأمل فأنى أملك مجرى ماء من غير سفينة.. وأنت يا مرشد كل غارق غرقت سفينته .. نجنى .. نجنى.

من ذا الذى يكبح الشر :

«إن أصدق وزن للبلاد هو اقامة العدل.. ولا تكذبن وأنت عظيم .. ولا تكونن خفيفا وأنت رزين.. ولا تقولن الكذب فانك الميزان.. ولا تنكمش فانك الاستقامة انظر أنك على مستوى واحد مع الميزان فإذا انقلب انقلبت أيضا. ولا تغتصبن بل اعمل ضد المغتصب وذلك العظيم ليس عظيما ما دام جشعا. إن لسانك هو ثقل الميزان، وقلبك هو ما يوزن به، وشفتاك هما ذراعاه. فإذا سترت وجهك أمام الشرس فمن ذا الذى يكبح الشر؟

اجعل عينيك .. تتأملان :

«كن صبورا حتى يمكن أن تصل إلى العد. اكبح جماح اختبارك حتى أن الشخص الذى تعود أن يدخل بسكون يمكنه أن يكون سعيدا.. مع أنه لا يوجد إنسان طائش يجيد عملا، ولا متسرع تطلب مساعدته.. اجعل عينيك تتأملان، وعلم قلبك ولا تكونن شديدا بمقدار قوتك.. خوفا من أن يحيق بك المكروه.. أما القاضى الذى تجب معاقبته فانه يكون نموجا للمجرم..

تأمل أيها الأحمق فانك قد ضربت. تأمل أيها المغفل فإنك سئلت .. وأنت يا نازح الماء تأمل فإنك قد دفنت.. وأنت يا مدير السكان لا تجعل قاربك يرتطم.. وأنت يا معطى الحياة لا تؤذ أحدا ويا مخربا لا تسببن خراب أحد.. ويا أيها الفتى لا تكونن كحرارة الشمس.

والآن هل ساقضى طول اليوم فى الشكوى الرابعة ؟

لا تكتم انفاسى :

لا تحرمن رجلا رقيق المال من أملاكه، ولا ضعيفا تعرفه، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النفس له.. ومن يغتصبها يكتم أنفه.. تأمل إن ما تفعله هو أنك تنحاز إلى اللص. والإنسان يضع أمله فيك ولكنك أصبحت معتديا لقد نصبت سدا للفقير لتحفظه من الغرق ولكن تأمل فإن تياره لسريع.

ليس الخوف منك .. يجعلنى أشكو إليك

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو مرة ثانية فقال : يا أيها المدير العظيم للبيت الملكى، يا سيدى ! إن الناس يتحملون السقوط بسبب الطمع، والرجل المختال يعوزه النجاح ولكنه ينجح فى الخيبة.

إنك جشع وذلك لا يتفق معك، وأنك تسرق وذلك لا يليق بك، أنت يا من يسمح للإنسان بأن تشرف على قضيته الحقة.. ذلك لأن جوفك قد ملىء.. ولأن مكيال القمح قد طفح. فإذا هز طفح وضاع على الأرض.

«ليس الخوف منك هو الذى يجعلنى أشكو إليك. إنك لا تبصر ما فى قلبى».

«أنك تملك قطعة أرضك فى الريف، ومكافأتك فى ضياع الملك وخبزك فى المخبز والحكام يعطونك.. ومع ذلك تغتصب هل أنت لص ؟ هل يؤتى لك بجنود لتصاحبك عند تقسيم الأرض ؟

«أقم العدل لرب العدل، الذى أصبحت عدالته موجودة، أنت يا أيها القلم وأنت يا أيتها البردية، ابتعدوا عن عمل السوء، وعندما يكون الحق حقا فهو إذن حق لأن العدل أبدى، ويذهب مع من يعمله إلى القبر، وسيدفن وتطويه الأرض أما اسمه فلن يمحى من الأرض بل سيذكر بسبب الحق وهكذا عدل الله فى كلمته». هكذا كانت سلوكيات مصرى .. عرض مظلمته عرضا أدبيا بأسلوب خارق فلم يهتز خيط ميزان عدل الحاكم ولم يتذبذب .. فعدل له.

الفصل السابع:

البلاد الآسيوية[1]

الرحلة إلى الهند بالطائرة النفاثة تستغرق حوالى عشر ساعات، وهى رحلة متعبة مجهدة، ولكن عندما تصل إلى الهند فى مطار بومباى تستقبلك روائح نتيجة أعشاب وأطعمة وأبخرة تتصاعد من الأرض والحقول والبيوت والمحال.

ومدينة «بومباى» من أهم مدن الهند وميناء رئيسى لها، وهى مدينة كبيرة، ولها مطار كبير، وجوها حار جدا وخانق، ويزيد من تلك الحرارة ازدحام المطار بالركاب.

وتتميز مدينة «بومباى» بأن الخمور ممنوعة نهائيا بها، كما أن شرب الخمور ممنوع أيضا.

وخلال السفر من «بومباى» إلى «نيودلهى» العاصمة - وهو سفر صعب لأن الجو خانق نتيجة البرودة فى طبقات الجو العليا فتزيد نسبة الرطوبة فى الجو فيحس الإنسان بالحرارة الخانقة.

أما عن الهند فهى ليست مجرد دولة، بل هى قارة واسعة، حيث يصل تعداد سكان الهند حاليا أكثر من ستمائة وخمسين مليون نسمة[2]، ويتحدث سكان الهند بلغات كثيرة ولهجات كثيرة جدا، حتى أن حديثهم باللغة الانجليزية حديث بطريقة خاصة يصعب فهمها.

وتشتهر الهند بأنها بلاد الشاى، فالشاى متوفر فى كل مكان لأنه من المحاصيل الرئيسية التى تزرعها الهند وتصدرها للعالم كله.

---

(١) حول العالم فى ٢٠٠ يوم - أنيس منصور.

(٢) وصل عدد سكان الهند الآن إلى ١٠٠٠ مليون نسمة.

أما عن الهنود، فالرجل الهندى رشيق، ممشوق القوام وإن كان هناك هنود طوال القامة، ولون بشرة الهنود يميل إلى الصفرة ولكن ملامحهم أوربية وشفاههم رفيعة وأنوفهم دقيقة وعيونهم واسعة، وفكاكهم إنسيابية وجباههم متوسطة، والشعر أسود فاحم وناعم وأسنانهم مستوية بيضاء، ويتميز الهنود أيضا بأن أصابع أيديهم رفيعة ونادراً ما تجد هندياً له «كرش».

أما السيدات الهنود فهن أميل إلى السمنة، وتضع نقطة حمراء فى أسفل الجبهة لتدل على أنها متزوجة، وشعر النساء أسود جدا، وطويل جدا، ووجوههن مستديرية والأذنان صغيرتان.

ويتميز الهنود بأنهم طيبون جدا وغاية فى الهدوء، ويكرهون إسالة الدماء، كما يتميزون بزهدهم فى الحياة.

ومن عادات الهند الغريبة، أن الناس تمضغ لبانا أحمر اللون، ثم يبصقونه على الأرض، وهذا اللبان مجموعة من الأعشاب يتم تصنيعها وبيعها للناس، ويتميز هذا اللبان بأنه مفيد للأسنان ومغذ لها، ولذلك فان جميع الهنود يمضغون اللبان.

والطعام فى الهند له مذاق خاص، وخاصة أن كل الطعام حريف جداً، لأن الهنود يضعون الشطة أو الفلفل على كل طعام وشراب حتى على الحلويات والجاتوه.

وأحسن طعام فى الهنود هو طعام «التندورى» وهو وجبة عبارة فرخة كاملة، شكلها غريب مصبوغة باللون الأحمر الفاقع، والدجاجة مشدودة ومطوطة وجناحاها طويلان وكذلك رجلاها، وهذه الدجاجة تكون مشوية وبها بعض الفلفل والشطة، ومعها خبز إسمه «بان» طعمه لذيذ مع الفاكهة الطازجة الرخيصة جدا فى بلاد الهند.

ومن عادات الهنود أنهم تعلموا الطاعة والنظام، فهم يقفون فى طوابير أمام الأتوبيسات وأمام شبابيك التذاكر. كما تتميز إدارات الحكومة والشركات بتنظيم كل أعمالها حيث يسير العمل بنظام شديد.

كما يتميز الهنود بطريقة التحية عندهم، فأنت لست فى حاجة إلى أن تصافح كل الموجودين عند دخولك وخروجك ووداعك، وإنما يكفى أن تضم كفيك وترفعهما إلى أعلى وبذلك تحيى الجميع.

كما قد تجد فى الهند رجالا يضعون الأمشاط فى الرأس، وهناك رجال يضفرون شعر الرأس بعد سن معينة ويضعون فى شعر الرأس مشطا نصف دائرى، وهناك من يحلق شعره تماما بالموسى ويترك مجموعة من الشعر فى منتصف الرأس ولا يحلقونها طوال العمر، وهناك من يطلق اللحية.

ومن عادات الهند أيضا إحتفال مسلمى الهند بقدوم شهر محرم، فيقيمون المهرجانات التى تبدأ بالطبول ويتقدم المهرجان عشرون شابا وقد دهنوا أجسامهم بالقار (الزفت) وهم يرقصون ويغنون ويطلبون النقود من الناس والمحال. ثم تجىء مجموعة أخرى وقد دهنت أجسامهم باللون الأصفر ثم يجىء الخليفة على ظهر الحصان ويرتدى طاقية صوف، ثم يؤتى بنموذج صغير مصنوع من الفضة لمسجد سيدنا الحسين لأن استشهاده كان فى شهر المحرم، ثم تزداد الطبول وأصوات الناس، ويتجه الجميع للنهر فيرمون بأشياء رمزية «مثل الأيدى» المصنوعة من الذهب والفضة فى النهر.

وأهم عادات ومعتقدات الهنود أنهم لا يأكلون اللحوم ولا المواد المستخرجة من الحيوانات ، فلا يشربون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا الجبن ولا البيض ولا السمك ولا يذبحون الأبقار لأن البقرة مقدسة وهى رمز الحياة والخصوبة، فالبقرة حيوان سعيد فى الهند وسعادتها واضحة فى دلالها ودلعها وتمخطرها

فى الشوارع وفى دخولها أحسن المحال دون أن يتعرض لها أحد. ولكن الثور «ذكر البقرة» ليس محترما وتنطبق عيه أقصى وأقسى العقوبات والقوانين ويستخدم فى جر العربات وحرث الأرض.

ومن مقدسات الهنود الزعيم نهرو، فهم يقدسونه بشدة ويحترمونه ويسمونه «الBانديت جى» بسبب تاريخه السياسى الكبير فلقد سجن وعذب وخرج ليستأنف كفاحه حتى استقلت الهند وهو يعتبر الأب الروحى لكل الهنود على اختلاف ألوانهم وديانتهم ويوصف بأنه زعيم يحب الخير لكل الهند.

ومن الملاحظ أن الهند توجد بها مئات الأصناف من البعوض والذباب وفيها كل الحشرات فى كل مكان، كما أن الماء به طفيليات كثيرة ولابد من غليه قبل شربه أو قبل الاستحمام به ويفضل غسل الجسم بعد الاستحمام بالكحول حتى لا يصاب بأمراض جلدية.

كما أن الهند تسير بالنظام الانجليزى فجميع السيارات والمرور يسير على اليسار مثل قطارات السكك الحديدية عندنا.

وحاول أنيس منصور أن يقابل «الدلاى لاما» وهو الحاكم الإله صاحب القداسة الذى يحكم بلاد التبت روحيا «والتبت دولة فى شمال الهند على الحدود مع الصين ولها استقلال إدارى فقط» ففشل فى تحديد موعد بوساطة الخطابات فقرر السفر إلى «ميسورى» عاصمة التبت، وكانت رحلة السفر جميلة طوال ١٤ ساعة، وكانت السيول تنهمر فتجرف معها كل شىء، وكثيرا ما توقفت السيارة لمرور بقرة تقديسا لها.

وعرف فى مدينة «ميسورى» أن وسيلة المواصلات الوحيدة فى هذه المنطقة هى «الريكشا» وهى عبارة عن قطعة من الخشب مستطيلة الشكل يحملها الهنود وعليها الراكب وينطلقون به فى أى مكان. وصمم أنيس منصور

على مقابلة «الدلاى لاما» وذهب إلى مقر إقامته فى قطر «بيرلاهاوس» فى وسط حديقة إسمها «الغابة المقدسة».

واستطاع الحصول على موعد للمقابلة، ولكن خاب أمله حيث ظهر الدلاى لاما من الشرفة وتحدث لجماهير الناس المجتمعة ببعض الكلمات غير المفهومة ثم اختفى، وعاد أنيس منصور إلى الفندق حزينا، ولكنه لم ييأس، وصمم أكثر وأكثر على مقابلة «الدلاى لاما» فقام فى الصباح ولف نفسه بالبطاطين والفوط والبشاكير وركب «الريكشا» وحمله الرجال ومن بينهم أحد المصورين إلى «الدلاى لاما» ليطلب العلاج، وبالفعل نجحت الحيلة واستطاع مقابلة «الدلاى لاما» فى مقابلة صحفية رائعة، وكان الدلاى لاما شابا متوسط القامة لامع الوجه وصوته غليظ وشعر رأسه قصير ويوجد لمعان غريب فى عينيه، وعرف أنه شاب وقع عليه الاختيار عن طريق أحد الرهبان بعد أن قام بالاعتكاف لمدة عشرين يوما، ثم يرى فى الماء صورة للإله الجديد «الحاكم الروحى» ليذهب إلى القرى حتى يجد الطفل فيأخذه إلى الدير حتى يتلقى أصول العبادات وهداية الناس ويتم تطهيره من الشياطين حتى يتم تنصيبه.

ومن بين الأماكن التى زارها ولاية «كيرالا» فى أقصى جنوب الهند وتقع على الساحل الغربى، ويرجع تسمية الولاية إلى العرب الذين أطلقوا عليها إسم «خير الله» عند دخولهم الهند من هذه الولاية، ثم حور الاسم، وعاصمة الولاية «ترفندروم» ولكنها مدينة غير جميلة، ورأى الناس وهم يلبسون الزى الرسمى «الدوتى» وهو قطعة من القماش ملفوف حول الجسم وبعض الناس يرتدى الجاكتة فوقها، ولكن جميع السكان حفاة !!. وذلك لأن الأمطار تسقط بغزارة تجعل الحذاء لا معنى له، وتشتهر الولاية بكثرة الأناناس والموز والمانجو والبندق.

وسافر إلى رأس «كومورين» على بعد بضع مئات من الكيلو مترات، وفى الرأس تلتقى مياه بحر العرب ومياه خليج البنغال بمياه المحيط، وهناك وجد من عادات تناول الطعام أن توضع ورقة من شجرة الموز ثم يوضع فيها كمية من الأرز المسلوق وملعقة من الزيت المستخرج من جوز الهند وبطاطس مسلوقة وبطاطا ومانجو مخلل ومملح ومربى وشطة وموز مجفف وموز مشوى وبعض الزبادى والطماطم، ثم يخلط الأكل كله باليد ويؤكل باليد أيضا.. وفى رأس كومورين مبنى يضم رفات المهاتما غاندى زعيم الهند. والمنطقة حارة جدا رغم الأمطار الشديدة لوقوعها فى خط الاستواء.

حقا.. إن الهند بلد العجائب الرجال والأفيال والأبقار والبعوض.

جزيرة سيلان

كانت رحلة سريعة بالطائرة من «مدراس» بالهند إلى «كولومبو» عاصمة جزيرة سيلان «سرى لانكا» حاليا، حيث العاصمة فى منتهى الجمال.

وسيلان هى جزيرة تقع جنوبى الهند ويفصل بينهما منطقة صغيرة من البحر، ويقال أن آدم عليه السلام عندما نزل من الجنة إلى الأرض نزل فى جزيرة سيلان، ويعتقد بعض الناس أن مكان قدميه لا يزال موجوداً وواضح فيه الأصابع.

وجزيرة سيلان كانت منفى الزعيم المصرى أحمد عرابى وزملائه فى الثورة العرابية التى قامت فى مصر عام ١٨٨٢، ولقد أقام أحمد عرابى فى عاصمة سيلان مدينة «كولومبو» حتى عام ١٨٩٢ ومازال البيت الذى كان يسكنه موجوداً حتى اليوم ثم سافر أحمد عرابى إلى شمال الجزيرة حيث الجو أفضل، وأقام عرابى فى سيلان مدرسة للمسلمين لتعليم أصول الدين الإسلامى وأسماها «المدرسة الزاهرة» ثم انتقل إلى مدينة «كاندى» وما زال بيته هناك

قائما على ربوة عالية، وظل بها حتى عفا عنه الخديوى، فودعه السكان بأروع مما استقبلوه وأنشد طلبة «المدرسة الزاهرة» نشيدا فى وداعه قالوا فيه :

بحمدك يا بارى العالمين

وأنت الرحيم وأنت المعين

فبارك سرنديب فى علمها

ومعهد آدابها الزاهرة

وأحسن لأبنائها الآخرة

وبكى أحمد عرابى، وأطال البكاء، ولكن حنينه لمصر كان أكبر ، وقامت الحكومة المصرية بشراء بيت عرابى الموجود فى كاندى وحولته إلى متحف ومكتبة سياحية وجزيرة سيلان هى جزيرة الشاى وبها أشهر شاى فى العالم، فهى تعتمد على زراعة الشاى وبيع الشاى للعالم كله، ولا شيء يشغل الناس غير بيع الشاى، ويشربون الشاى هناك من غير سكر لأنه شاى طبيعى.

وقصة الشاى قصة عجيبة ولذيذة !! فلقد كان الامبراطور «شن تواخ» أول إنسان شرب الشاى عام ٢٧٢٧ قبل الميلاد، فلقد كان من عادته غلى الماء قبل شربه.

وفى أثناء جلوسه فى الحديقة والماء يغلى أمامه سقطت ورقة جافة من الأشجار، فانزعج الامبراطور، ولكنه لاحظ أن الورقة غيرت لون الماء، فشرب فأعجبه طعمه، فوضع أوراقا أخرى فأعجبه اللون والطعم، فكان أول من شرب الشاى فى العالم، وتلاه جنكيز خان الذى نقل الشاى من آسيا إلى أوربا.

ولكن !! هل تعرف كيف تتم صناعة الشاى ؟! تتم على مرحلتين :

ومن قصص الشاى ، أن امبراطور اليابان جعل الشاى مشروبا خاصا

بالأسرة المالكة، وكان يقيم الحفلات لشرب الشاى، ومع ذلك لم تعرف أوربا الشاى إلا فى القرن السادس عشر، وحاربت الكنيسة الشاى وحرمت شربه، وهاجمه الأدباء والشعراء وأعلنوا الحرب على شربه لأنه يفسد الأخلاق ويضعف القوى العاملة.

أولا : زراعة الشاى : فهو يزرع على سفوح الجبال، وكلما ارتفعت السفوح عن سطح البحر كان الشاى أحسن، وشجرة الشاى تعيش لمدة ١٤سنة، وجذعها غليظ وقوى وأوراقها تشبه أوراق الملوخية، ثم يقوم العمال بقطف أوراق الشاى ذات اللون الأصفر الفاتح وتكون حديثة، كما يقومون كل أربع سنوات بنزع كل أوراق الشجر حتى تنبت أوراق جديدة، كما تحتاج زراعة الشاى إلى أمطار مستمرة وحرارة شديدة وإلى ظلال وتربة حمراء، كما يزرع الشاي بمعدل خمسة آلاف إلى سبعة آلاف شجرة لكل فدان من الأرض.

ثانيا: ثم تبدأ عملية تحويل ورقة الشاى الخضراء والصفراء إلى اللون الأسود، وتتم هذه العملية فى ٢٢ ساعة، فتبدأ بنقل أوراق الشاى على العربات للمصنع ثم توضع على ألواح وتتعرض للهواء الساخن ثم تجفف وتدخل العصارات والأفران للتجفيف ثم تتم غربلة الشاى فينزل الناعم إلى الأرض النظيفة والشاى الخشن يعاد لتجفيفه مرة أخرى وتكسيره وغربلته من جديد، ويعبأ الشاى بعد أن يتم تصنيفه حسب رتبه ودرجاته المتنوعة.

جزر المالديف

عبارة عن مجموعة جزر صغيرة يبلغ عددها ألف جزيرة، وأرض الجزر جيرية بيضاء مغطاة بأشجار جوز الهند، وأهل الجزيرة يعيشون على صيد الأسماك وخصوصا سمك التونة ويتم تصديره إلى سيلان، ويبلغ عدد سكان الجزر حوالى مائة ألف نسمة.

وكلمة مالديف تعنى جزيرة السمك، وجزر مالديف بها نظام ملكى تخضع له منذ ثمانية قرون، وملكها ملك اسمه السلطان ديدى وأقامت بريطانيا بها مطاراً كبيرا على جزيرة جان.

سنغافورة

سنغافورة عبارة عن جزيرة وحولها العديد من الجزر، وسنغافورة كلمة معناها الأسد، وقصة نشأتها غريبة، فقد اشتراها ضابط إنجليزى بخمسة آلاف جنيه من سلطان جوهور منذ حوالى ١٧٠ عاما، وقرر هذا الضابط أن يجعل هذه المدينة حرة، وتدخلها كل البضائع والأموال، وما تزال حتى اليوم حرة، ويوجد لهذا الضابط الذى اشتراها «رافلس» ميدان وشارع فى كل مكان.

وسنغافورة من أجمل المدن، عدد سكانها مليون ونصف مليون مواطن، وهى مدينة رائعة ونظيفة وفيها كل ما يتمناه المرء من ملابس وهدايا وسلع، كما توجد بها أماكن للنزهة بأسعار رخيصة جدا.

وسكان سنغافورة أغلبهم من أبناء الصين، وهم فى غاية النشاط والنظام والبساطة، وتوصف جزيرة سنغافورة بأنها جزيرة الأحلام لأن الرجال يحضرون إليها وهم مفلسون ثم ما يلبثون أن يصبحوا من أصحاب الملايين.

وفى سنغافورة حديقة «النمر» وهى من أروع الأعمال الفنية التى يمكن أن يشاهدها الإنسان، فكلها من التماثيل الملونة البارزة بالحجم الطبيعى، وتصور حياة الصين قديمها وحديثا وعاداتها وتقاليدها وكذلك الرذائل والفضائل والخرافات فى الأدب والتاريخ وصور التعذيب التى كان يلجأ إليها الأباطرة والحديقة تحفة رائعة مثيرة وأيضا مخيفة ومذهلة ولقد بناها رجل اخترع زيت النمر الذى يشفى من الروماتيزم وأوجاع المفاصل والظهر وأنفق عليها ٤٠ مليون دولار من ثروته الهائلة.

أما عن طعام أهل سنغافورة، فنجد أن أعجب الأطعمة هى الصينية فالمحال تحضر الطعام وتقوم بطبخه أمام الزبائن، وأشهر أكلة هى «ساتو» وهى أكلة ملاوية عبارة عن لحوم موضوعة فى أسياخ من القش أو الخيزران الرفيع وتشوى فى مادة حلوة، ومعها نوع من الأرز يتم سلقه فى سعف النخيل المجدول على هيئة محفظة صغيرة، ويضعون الأرز فى النار حتى يتحول إلى عجينة تماما ثم يغمس اللحم والأرز فى شطة مصنوعة من الفول السودانى وجوز الهند والمانجو فتكون أكلة لذيذة جدا.

ومن أشهر عادات أهل سنغافورة عند وفاة مواطن أن يتم وضع الجثمان فى العربة التى يجلس فيها أخوته وأولاده، وتقرع أمامه الطبول وتصدح الموسيقى والورود والبخور ويسير شبان فى ملابس زرقاء ويلبسون قبعات حمراء، ثم تجىء عربة صغيرة توزع على الجميع المظلات والمراوح ثم تحضر عربة نقل ضخمة عليها أعلام ولافتات باللغة الصينية وعليها أجهزة تسجيل تذيع موسيقى حالمة، ثم تلى العربة فرق موسيقية أخرى لها لون خاص ولحن خاص.

ويأتى الناس فى عربات غريبة الشكل، ثم طابور طويل مزدوج من الناس وقد أمسكوا حبلا وراحوا يجذبونه إلى الأمام والحيل مربوط بعربة تحمل الجثمان وعليها الزينات، ثم تجىء فرقة موسيقية أخرى وعربة توزع الهدايا وخلفها عربة أنيقة وعليها صورة المتوفى.

وتسير الجنازة والطبول والموسيقى ترن لطرد الشياطين ولكى تنظف الطريق أمام روح الميت حتى يصعد للسماء بسلام، أما الزهور والهدايا فيتم حرقها على قبر الفقيد !!!

أندونيسيا

تتكون أندونيسيا من ثلاثة آلاف جزيرة أكبرها جاوة التى تضم سبعين مليون مسلم وعاصمتها «جاكرتا» التى تتميز بطقس حار جدا ورطوبة عالية.

ويقع بجاكرتا الحى الصينى، وهو متعة للمشاهد، لأن أبناء الصين يمثلون النشاط التجارى والمالى والمرح والارستقراطية رغم أن عددهم فى اندونيسيا لايزيد على ثلاثة ملايين ولكنهم أصحاب المصالح الحقيقية، فهم أصحاب المصانع والقصور والمطاعم والشركات والسيارات وتجد كل شىء فى الحى الصينى.

وتتميز المرأة الاندونيسية بحرياتها الكبيرة والرجل هنا يحترم المرأة ويجعلها تقف إلى جواره ويشجعها رغم أن المرأة الأندونيسية ربة بيت من الدرجة الأولى، كما أن الرقص من معالم الحياة والثقافة فى اندونيسيا.

ويوم «توجو بلاس» من أهم أيام اندونيسيا وهو عيد اندونيسيا ١٧ أغسطس ، وفيه تحتشد الشعوب الأندونيسية من كل الجزر ويخطب فيه رئيس الجمهورية، ثم يقام فى المساء حفل استعراضى لألوان الرقص الشعبى فى كل الجزر الأندونيسية.

ويسود اندونيسيا كثير من المعتقدات أهمها تجربة «جالان كون» وهى تجربة تجرى فى مدينة على مسافة ٧٠كم من جاكرتا، وهى عبارة عن إحضار سلة عادية ثم تصنع خشبة طويلة وعليها قميص وفى أعلى القيمص ترسم صورة وجه على ورقة، وفى أعلى الرأس عودان من البخور ثم يوضع فى مقدمة السلة قلما من الرصاص، ثم يحمل السلة أحد الأشخاص ويسير على أطراف أصابعه على أن يمسك زميل آخر بورقة وقلم، ويحرق البخور ويردد كلمات جالان كون «جالان بيس» وبعض الترانيم الدينية والأدعية، وبعد دقيقة ترى السلة

تندفع للأمام وتكتب بلغة الروح[1] التى حلت فى السلة ويستطيع أى من الحاضرين سؤالها وسترد كتابة بلغتها هى.

أما «باندونج» فهى من أشهر المدن الاندونيسية وهى مدينة تاريخية، الطريق الموصل إليها جميل به الغابات والأشجار والمياه والجبال والبراكين وحمامات السباحة، وبها كل شعوب العالم وجوها جميل ونظيف، وانعقد بها مؤتمر باندونج عام ١٩٥٦.

ومن أشهرالجزر الاندونيسية على الإطلاق جزيرة بالى، فهى جزيرة الجبال الرائعة والطبيعة الغنية والموسيقى الساحرة.

ومن عادات أهل الجزيرة كثرة عقد الاحتفالات يوميا لأى سبب، فهناك احتفال بالحمل مثلا فتلتف الأسرة حول الأم ويحكى لها قصص البطولة والأخلاق وتعزف الموسيقى وعندما يولد الطفل تستقبله الأسرة استقبالا حافلا وتذهب الأسرة للغابات ليجمعوا ورقة من كل شجرة بحيث لا تزيد عن ٧٤٢٥ ورقة ثم يضعون هذه الأوراق تحت قدم الأم حتى يعيش بعدد الأوراق ثم يحرق البخور ويأكل الجميع أطباق الأرز المسلوق وأرجل السلحفاة المائية ويشربون عصير الدوم، ويحتفلون أيضا باستحمام الطفل بعد ٤٢ يوما.

ومن عادات بالى أن النساء يركبن الدراجات !!! والرجل من حقه التزوج بأكثر من امرأة. وحفلات الزواج من أروع الحفلات وتأتى الأسرة بماليديها من طعام وشراب ومال وملابس وزينات، ويذهب العريس إلى بيت العروس ويصلى العروسان أمام الراهب فى خشوع بينما تشعل الحماة النار فى الحطب خارج البيت، ثم يلف العروسان حول الحريق ١٧ لفة ثم يصلى الراهب ويخرج الزوجان وينزلان أمام منزلهما وتأتى لهما شجرتان من جوز الهند فيغرس العريس شجرة

(١) الجن هو الذى يحضر ويكتب وتنتحل شخصية روح إنسان معين.

العروس فى مكان ما، وكذلك تفعل العروس، ويعود الجميع إلى بيت العريس الذى يمتلىء بالهدايا.

وتقاليد تشييع جنازة الميت فى الجزيرة من العجائب، لأن الرجل يجهز فى حياته النعش من الخشب الغالى، ويكون النعش على هيئة ثور، وبعد الوفاة يركبه أصغر أبنائه ويحمل النعش أصغر أبناء أقارب المتوفى، وتتقدم الجنازة أجمل الفتيات فى الأسرة وقد حملت كل فتاة برجا عاليا من عدة طبقات وفى أعلى كل برج توضع دجاجة حية، وبعد صلوات طويلة وغناء وموسيقى وتراتيل ومسيرة إلى مكان، ما يقف الراهب ويشير بيديه بعد أن يدير ظهره للميت، فيقوم ١٣ رجلا بصب الزيت فوق الأبراج والحمام والميت والنعش وتشتعل النيران وبعد نصف ساعة تفوح رائحة الميت، وفى اليوم التالى يتجمع أهل الميت حول بقايا النيران ويجمعون بقاياها على الموسيقى ويضعونه فى إناء ويلقون به فى البحر.

وتشتهر جزيرة بالى بالرقصات الشعبية التى يتمرن عليها الطفل منذ مولده وتشتهر الجزيرة برقصات اللا جونج ورقصة الحوريات الأربع ورقصة الدلال ورقصة الباروغ ورقصة الودا ع.

ومن أهم ما تشتهر به جزيرة بالى مصارعة الديوك التى تجدها فى كل مكان، وصاحب الديوك يظل طوال اليوم يسن أصابع ومناقير الديوك، وبعد المباريات تقام حفلات للرقص والغناء فرحة بالديوك المنتصرة وينقش الناس اسم الديوك المنتصرة على صدورهم.

وجزيرة بالى فيها أرشق الرجال وأجمل النساء فى اندونيسيا وألوان سكانها سمراء فيها صفرة خفيفة والناس يقضون نهارهم فى الحقول وأمام الأنوال اليدوية وفى حفر الخشب أو تلوين القماش، أما الليل كله فهو للموسيقى والغناء والرقص.

استراليا

استراليا قارة كبيرة جدا يسكنها حوالى أكثر من عشرة ملايين نسمة، وتصل إلى مدينة سيدنى، «عاصمة استراليا» بالطائرات بعد ٣٨ ساعة طيران من نيودلهى عاصمة الهند، والآن يمكن أن تصلها بعد حوالى ١٥ ساعة بعد تقدم الطيران وزيادة سرعته، واستراليا معناها الأرض الجنوبية، واسترالية عبارة عن تجمع إنجليزى، فاللغة والعلم هو علم إنجلترا ولكنه علم لون أرضيته زرقاء وعليه نجوم هى رمز الولايات الخمس التى تتكون منها استراليا، وتدخل استراليا ضمن «الكومنولث» البريطانى ولها حاكم عام. ومساحة استراليا أكثر من ثلاثة ملايين ميل مربع نصفها حار ونصفها الآخر معتدل. وأهم ما تشتهر به استراليا تصدير الصوف فهى تصدر ٩٠٪ من الصوف العالمى وكذلك تصدر الجلودوالألبان.

والحياة فى استراليا غالية جدا لأن الدخل مرتفع والطبقة الوسطى حالتها المالية ممتازة، والنساء فى استراليا غاية فى القوة والصحة والشباب، وتلعب أغلب النساء التنس أو الاسكواش أو الباسكت لأن كل امرأة حريصة على رشاقتها، ومن عادات وتقاليد استراليا دخول المطاعم بدون إرتداء البدلة والكرافتة.

واستراليا قارة حديثة لم يذهب إليها الأوربيون إلا فى ٢٦ يوليو ١٧٨٨ يوم أن نزل الرحالة الإنجليزى جيمس كوك ورفع عليها العلم الإنجليزى، وتطورت بسرعة لنجد بها ٦٥٠ مطارا والانتقال بين المدن الهامة بالطائرات، وبها سكك حديدية ممتازة. كما يوجد فى استراليا برلمان مكون من مجلس نواب وعدد أعضائه ١٢٦ عضوا ومجلس شيوخ عدد أعضائه ٦٠ عضواً، وتتكون استراليا من خمس ولايات لكل ولاية مجلس نيابى واحد.

وشعار الدولة فى استراليا هو حيوان الكانجرو الذى لا يوجد سوى هناك وهو حيوان سريع القفز يعتمد على ساقيه وذيله ليقفز قفزات واسعة.

وكان يوجد قبل الاستقلال أهل استراليا منذ آلاف السنين ويوجدون حتى الآن ويقدر عددهم بـ ٤٥ ألف شخص وهم أغرب مجموعة بشرية فى العالم لأنهم لم يتركوا أى حضارة ولم يبنوا بيتاً ولم يزرعوا أرضا ولم يستأنسوا حيوانا ولم يكتبوا ورقة وعاشوا فى ترحال دائم، وهم يسيرون فى خط مستقيم مهما قابلهم من حواجز وصعاب ويعيشون على صيد الأسماك والحيوانات والدولة تحاول الحفاظ عليهم بكافة الوسائل. وعدد سكان مدينة سيدنى حوالى مليونين وهى المدينة الوحيدة الحديثة أما مدن كانبرا وملبورون ونيوكسل وبرين وداردن وبيرث فهى مدن إنجليزية شكلا وموضوعاً.

أما مدينة سيدنى فهى لؤلؤة ، تقع على الجبال وفى الوديان وعلى جزر ويقسمها إلى نصفين خليج طوله ٢٠٠ كيلومتر، ويصل بين طرفى الخليج كوبرى ضخم تكايفه بالملايين، وفى أعلى الكوبرى قلعة ترى منها كل المدينة على ارتفاع كيلو ونصف كيلو متر، وفى سيدنى معرض به فترينة جميلة عن الفراعنة الذين كانوا أول من اخترعوا الصوف فى العالم. وتتميز سيدنى بأنها باردة وممطرة حتى فى الصيف.

وتوجد فى سيدنى حديقة الدوين ويسمونها «حديقة المجانين» وكل واحد فيها يستطيع أن يخطب ما يعجبه ويتحدث فى أى موضوع من سياسة واقتصاد .. الخ، ويحاول الخطباء فى الحديقة أن يجذبوا إهتمام الناس بأية طريقة سواء بخفة الدم أو الجدية أو بالطقوس الدينية.

الفلبين

الفلبين تتكون من سبعة آلاف ومائة جزيرة وبها عشرة آلاف نوع من الزهور وبها سبعون لغة ، و٦٥ نوعا من الخفافيش وألف نوع من الطيور !!!

وأخذت الفلبين إسمها من الملك فليب الثانى ملك أسبانيا، واللغة الرسمية «تاجولج» ومع ذلك فهى الدولة المسيحية الوحيدة فى آسيا، ومع ذلك ففيها جزر إسلامية بالكامل مثل جزيرة مندناو.

وأهل الفلبين يتميزون بأنهم قصار القامة ووجوهم صفراء سوداء والرجال قصار والنساء قصيرات وأكثر نحافة، وتجد فى كل بيت من بيوت الفلبين وطواط أو أكثر. ومشكلة الفلبين هى التاكسيات، فهى خطر شديد والناس تحذرك من ركوب التاكسى مثل أن تبلغ المسئولين عن رقم التاكسى والجهة التى ستتوجه إليها.

ومن العادات العجيبة فى الفلبين، تناول أهل الفلبين البيض المنشش فى الإفطار، فلابد أن يكون البيض قد رقدت عليه الدجاجة عشرة أيام وبدأ الكتكوت ينمو، ويعتبر البيض المنشش هو الطعام القومى لأهل الفلبين.

ومدينة «مانيلا» عاصمة الفلبين مدينة بسيطة وهى تعنى جوهرة المحيط، وهى أشهر مدن الفلبين، وتتميز بطقس غزير المطر وشديد الرطوبة.

الفصل الثامن:

جزر هاواى

هى الولاية الخمسون للولايات المتحدة الأمريكية، وتضم جزر هاواى ١٢ جزيرة صغيرة ولكن أشهرها جزيرة هاواى وأواهو وفيها هونولولو عاصمة هاواى كلها وجزيرة ماوائى وكاوائى ولانائى، وقد عرف الأمريكان جزر هاواى منذ ٢٠٠ سنة عندما بدأ رجال التبشير النزول للبلاد للدعوة المسيحية.

وكانت جزر هاواى مجموعة من الممالك المستقلة ثم توحدت تحت ملك واحد هو الملك كاميها الأول ثم توالى بعده الملوك حتى استطاع رجال الأعمال الأمريكيون التمهيد للنفوذ وللأموال الأمريكية حتى أصبحت تابعة لأمريكا فى القرن الـ ١٩ وانضمت للولايات المتحدة في عام ٥٨ ١٩ وأصبحت الولاية الخمسين.

ويتميز جو هونولولو العاصمة بالحرارة، أما فتيات هاواى فهن سمراوات ويرتدين ملابس هاواى وهى تشبه جلاليب الفلاحات المصريات بسفرة عالية.

وتزرع هاواى القصب والأناناس بالاضافة إلى آلاف المشروعات الصناعية والتجارية وبها ميناء «بيرل هاربور» التاريخى الذي أغرق عنده اليابانيون الأسطول الأمريكى عام ١٩٤٢ وبدأت المعارك النهائية للحرب العالمية الثانية.

وفى هاواى تجد الطعام والسلع من كل بلد فى العالم في السوق الدولية، كما يوجد فى السوق شبه مسرح تتوالى عليه الفرق الغنائية وتعرض فنون الرقص والغناء فى جميع جزر هاواى.

والرقصة التقليدية هى رقصة الهولا وفيها ترقص وتتلوى فتاة فى مكانها وهى ترتدى فستانا من قطعتين ووسطها عار وساقاها عاريتان وكذلك صدرها، وترقص وسط المشاعل وحولها الموسيقى.

أما جزيرة أواهو فتجد الحياة فيها هادئة جدا وناعمة جدا والمطاعم كلها رقص وموسيقى وغناء وكل يوم عيد وكل يوم ربيع، وعلى بعد ٢٠٠ كيلو متر من العاصمة هونولولو بركان الجزيرة الذى لم يخمد منذ مئات السنين.

وهاواى جزء من المجتمع الأمريكى، وهو مجتمع صناعى تجارى قائم على المنافسة والدعاية الشديدة، وهاواى تبعد عن أقرب ميناء فى أمريكا ٢٥٠٠ ميل، وأقرب جزيرة إليها هى جزيرة ساموا على بعد ٢٥٠٠ ميل.

وفى جزر هاواى جمعية اسمها جمعية المتفائلين التى تنصح بأن يكون الإنسان قويا ويكون حديثه عن الصحة والسعادة والنجاح وتبشر للمستقبل دائماً.

وتستعد جزر هاواى لاحتفالات رأس السنة استعدادا خاصا، فالناس ترسل بطاقات عيد الميلاد على شكل بطاقات أو تحف أو تماثيل أو شهادات مختلفة .. الخ.

الولايات المتحدة الأمريكية

أكبر قوة فى العالم اليوم، تتكون من خمسين ولاية وسكانها يزيدون على المائتى مليون من البشر وعاصمتها واشنطن(١).

ويتميز مطار لوس أنجلوس - احدى مدنها الكبيرة بالنظام الشديد والهدوء الشديد ومنه تذهب إلى «هوليود» أشهر مدينة فى العالم لأن فيها استوديوهات السينما العالمية التى تصنع الجمال والمال والمجد، وبعض هذه الاستوديوهات مساحته ٣٠٠ فدان، وشوارع هوليود طويلة جدا يصل بعضها إلى ٥٠كم، وتتميز بأنوارها المبهرة وكثرة البنوك والمسارح الموجودة بها وعماراتها العالية وجسورها المركبة.

ويحرص الأمريكان على التغيير لأن الحياة هناك مملة، حتى فى الطعام والشراب فتجد محالا على طراز القرن الثامن عشر أو التاسع عشر فى الطعام والديكور والموسيقى، كما أن النوادى الليلية تشترط ضرورة ارتداء الملابس الكاملة «بدلة وكرافتة»، أما السيارات فهى رخيصة جدا بالمقارنة بالدول الأخرى.

وفى أمريكا تجد الصحف تصدر فى نهاية الأسبوع فى ٢٠٠ صفحة للصحيفة الواحدة وكل صحيفة بها عدد كبير من المجلات للطفل وللمرأة وللشاب وللمهندس ... الخ. والأسعار عموما مرتفعة جدا فى أمريكا لأنها مجتمع تجارى صناعى، ويؤدى ذلك إلى زيادة تلوث الهواء نتيجة الصناعة وعوادم السيارات حيث ترتفع نسبة الإصابة بأمراض السل.

وتنتشر ظاهرة الهيبز فى أمريكا وهم شباب احتجوا على المجتمع الأمريكى بعد أن ضاعوا بين السينما والتليفزيون وتحطمت أعصابهم وأحلامهم،

(١) هم الآن ٢٧٠ ملون نسمة

فانسحبوا إلى حياة بدائية ثم انحسبوا إلى السوء بتدخين أكبر منكر فى العصر الحديث وهو الحشيش.

ومن عجائب المجتمع الأمريكى : أن القانون الأمريكى أعطى للمرأة نصف ما يملكه الرجل عند الزواج، كما أن اللبان الأمريكى لبان من غير سكر ليكون مفيدا للأسنان ويجعل الإنسان أقل توترا ولا يجعله عصبيا حتى الأطباء ينصحون بتناوله !!، وكل شىء متوفر فى أمريكا إلا الذوق فليس عند الأمريكان أى ذوق فى الأكل أو الملبس أو تأثيث المنزل، ففي الأكل كل شىء منقوع فى السكر أو العسل، وكذلك ملابسهم مضحكة جدا وألوانها فاقعة جدا وكل أذواقهم تؤكد أنهم من الهنود الحمر وكل شىء يمكن إرتداؤه فى أى وقت.

وفى أمريكا كل شىء يدار بالأزرار الكهربائية والآلات والماكينات بدلا من الناس.

وهناك يوم الشكر فى أمريكا وهو اليوم الذى تجلس فيه الأسرة كلها (الأب - الأم - الأبناء - الأحفاد) يشكرون الله على ما أعطاهم من صحة ومال وجعلهم من أبناء أمريكا. ويحتفلون بهذا اليوم منذ مئات السنين. وأهم شىء هو العمل لأن العمل هو السلعة الغالية التى جعلتهم يبنون أمريكا.

أما عن واشنطن العاصمة فمعظم سكانها من الزنوج السود ويمثلون ٨٠٪ من سكان واشنطون، وشوارع واشنطون هادئة والبيوت فيها على الطراز الانجليزى القديم والأضواء فيها خافتة والألوان باهتة.

أما نيويورك فلها معنى خاص لأنها مركز القارة الأمريكية، مركز الذهب وبها خمسة ملايين يهودى وبها ناطحات السحاب، وكل شىء فى نيويورك غالى الثمن والأسعار مرتفعة جدا وشوارع نيويورك متشابهة ومتقاطعة ولها أرقام والمشى بها ليس متعة حتى ركوب السيارة ليس متعة.

الأجانب : ماذا
يفعلون فى الصين ؟[١]

بلغة صينية واضحة قال ماو بى هوى، الايطالى الذى اتخذ لنفسه هذا الاسم الصينى : إن الفرص المتعددة فى بكين هى التى جعلتنى أحضر إلى هنا للعمل. ماو ، الايطالى، الذى يعمل حاليا محررا للغة الإنجليزية فى موقع للانترنت ببكين شاب محب للموسيقى يمضى وقت فراغه مع خمسة آخرين من أصدقائه الأجانب من استراليا وكندا وايطاليا فى عزف الموسيقى بالفرقة التى كونوها وأعطوها اسم «بج إبرويلين» أو الطائرة الكبيرة والتى يتولى هو العزف على الطبلة فيها.

الفرقة تقدم عروضا رئيسية فى منطقة البارات الشهيرة ببكين المعروفة باسم سانليتون وأحيانا تدعوهم بعض السفارات هذا المحرر الطبال القادم من ايطاليا يرى أن الحياة فى بكين تصبح مبهجة أكثر مع إشراقة شمس كل يوم جديد ويعزو ماو التطور الذى تشهده فرق الموسيقى فى بكين إلى تنوع أماكن العرض ويقول إنه عندما يتعلق الأمر بالموسيقى «التقدمية» فإن ايطاليا متخلفة كثيرا عن الصين.

حكاية ألين ، الفرنسى، تختلف فى التفاصيل قليلا عن ماو الايطالى ، فالشاب الفرنسى وقع فى غرام الثقافة الصينية، حسب قوله، منذ اللحظة الأولى التى وقعت فيها عيناه على عمل لفن الخط الصينى. غرام من أول نظرة، ولهذا قرر أن يترك بلده ويرحل إلى شانغهاى ليعمل مدرسا للغة الفرنسية بمركز لتعليم الفرنسية بالمدينة الساحلية. ويقول ألين إنه راض عن قراره لأن الحياة فى الصين تجعله ، أيضا حسب قوله، متفاعلا تماما مع الثقافة الصينية.

---

(١) الصين اليوم – ٣-٢٠٠ العدد ٩.

لقد بات مألوفا أن ترى الأجانب فى كل المدن الصينية الكبيرة مثل بكين، شانغهاى وقوانغتشو. وإذا شئت يمكنك أن تجد مدرسا يعلمك لغة أجنبية أو أن تأكل طعاما من أيدى طهاة أجانب بل وأن يقوم على رعاية جمالك متخصصون أجانب فى صالونات التجميل أو أن تستمتع بعروض فنية يقدمها الأجانب. الأعمال المسرحية الدخيلة والتقنيات المستوردة لها تأثير بدرجات متباينة على حياة الصينيين . لم يعد الصينيون ينظرون إلى الأجانب العاملين فى الصين على أنهم فقط مدراء من المستوى العالى أو متخصصون فى الشركات الأجنبية للتمويل.

معظم الأجانب الموجودين فى الصين حاليا جاءوا إليها بحثا عن فرصة لحياة جديدة، فالإنجازات الاقتصادية للصين والآمال المتألقة والحيوية المتجددة فى كل يوم تجتمع كلها لتكون سببا للبقاء هنا.

الأرقام الرسمية تقول إن ٦٠ ألف أجنبى لديهم تراخيص بالعمل فى الصين ولكن الرقم الحقيقى للأجانب الذين يعملون فى الصين أكبر من ذلك بكثير معظم العاملين الأجانب فى الصين تعينهم مباشرة شركات صينية، ويعملون فى مجال الإدارة، التسويق، الإنتاج التمويل، الأغذية والتعليم. وهؤلاء الأجانب من أكثر من ٩٠ دولة ومنطقة ، منها اليابان ، الولايات المتحدة ، كوريا الجنوبية، ألمانيا وسنغافورة. ويتركزون فى المدن الكبيرة مثل بكين وشانغهاى وقوانغتشو. وبعد انضمام الصين لمنظمة التجارة العالمية يأتى إلى الصين المزيد من الأجانب.

الحاجـــة

فى عام ٢٠٠١، عينت شركة الخطوط الجوية الصينية «إير تشينا» ١٢ مضيفة يابانية، وقد آثار هذا الخبر جدلا بين الصينيين حول مدى الحاجة إلى

تعيين أجانب برواتب عالية فى حين أن المضيفات الصينيات مشهود لهن بالكفاءة.

بيد أن مديرى إير تشينا، برؤيتهم الثاقبة لا يرون الأمر على هذا النحو لى فو جيان، مدير إدارة شئون العاملين بالخطوط الصينية لم يتحدث بفمه وإنما قدم نتيجة لاستبيان أجرى على الرحلات الصينية اليابانية : نصيب إير تشينا يبلغ ٤٠٪ من الرحلات الصينية اليابانية يوميا و٦٠٪ من الركاب يابانيون معظمهم من كبار السن مستواهم فى اللغة الإنجليزية متواضع ويجدون صعوبة فى التفاهم مع المضيفات، اليابانيون يولون إهتماما كبيرا للإتيكيت وهو أمر ليس مألوفا لدى المضيفات الصينيات. كانت هذه ى الإجابة عن تساؤل لماذا اتخذت إير تشينا هذا القرار الذى أدى. إلى منافسة ضارية بين شركات الطيران وهناك تقارير تقول إنه منذ تعيين المضيفات اليابانيات زاد إشغال إير تشينا كثيرا.

وقد أعلنت إير تشينا عن رغبتها فى تعيين المزيد من المضيفات الأجنبيات عندما يحين الوقت لتعزيز خدمتها وجعلها على المستوى الدولى. وهذه الخطوة من شأنها رفع القدرات التخصصية بين المضيفات الصينيات.

الزيادة فى عدد العاملين الأجانب تعكس جهود الصين لتكون متفقة مع الأعراف الدولية فى المعرفة والموارد البشرية وصناعة السياسة والمفاهيم والخدمات والمنتجات وبعض الشركات الصينية تراعى وهى تضع خطط مستقبلها اختيار الكفاءات الأجنبية حتى لا تضيع وقتها للدخول فى العجلة الدولية. وهذا توجه عام حاليا .

أيضا الجهود التى يبذلها العاملون الأجانب من أجل تعزيز التبادلات بين الصين والخارج لها نتائج مفيدة، ولعل هذا يتضح فى شخص بورا مليتينوفيتس، المدرب اليوغسلافى لمنتخب كرة القدم الصينى، أشهر العاملين الأجانب فى

الصين، والذى جاء بالبهجة للصينيين وخاصة مشجعى كرة القدم وقدم مساهمة عظيمة لكرة القدم الصينية بشكل عام.

ألين ، فرنسى آخر يعمل ممثلا لشركة فراماتوم بالصين، وقد عمل أكثر من عشر سنوات بها، وبمساعدته يستخدم مصنع شانغهاى رقم ١ لآلات المعدات تقنيات فراماتوم لتصنيع تجهيزات محطات الطاقة النووية. وقد حظيت هذه المنتجات على تقييم عال من لجنة المراقبة الفرنسية للعلوم والتكنولوجيا، وأدرجت ضمن المنتجات التى تزكيها منظمة التجارة العالمية.

ليوى هوا يونغ، وهو أمريكى اتخذ أيضا هذا الاسم الصينى، لاعب تنس سابق، يتولى الإشراف العام على بطولة شانغهاى هاينكين المفتوحة للتنس سنة عام ١٩٩٧، وقد وظف لو اتصالاته فى أوساط التنس ومعرفته باللعبة لجعل البطولة حدثا حيويا وجذابا. وقد أدرجت جمعية التنس للمحترفين المعروفة اختصارا إيه تى بى بطولة شانغهاى هاينكين.

العديد من شركات التأمين الصينية تستثمر الكثير من المال لتوظيف عاملين ومستشارين أجانب بل إن شركة التأمين بنغآن الصينية دعت نائب رئيس شركة أمريكية مشهورة لينضم إليها، وشركة الصين المحيط الهادى للتأمين لا تريد أن تتخلف فى هذا الصدد.

وانغ قوه ليانغ، رئيس مجلس إدارة شركة الصين المحيط الهادى أعلن عن أن تعيين الكفاءات الصينية والأجنبية أحد الإجراءات الرئيسية لتعزيز التطور على المدى البعيد فى شركته التى صاغت بالفعل السياسات ذات العلاقة.

هذه الحقائق تشير إلى أن المؤسسات الصينية تختار حاليا كفاءاتها مع الخارج، وأن المنافسة بين الكفاءات قد بدأت.

ماكوتو إندو، وهو بروفيسور يابانى فى نهاية العقد الخامس من العمر، يخطط لاستقدام فنيين على المستوى العالى من اليابان للعمل فى الصين. وقد وقع مركز التنقل التقنى والفكرى الصينى اليابانى الذى يمثله، وقع خطاب نوايا مع المركز الاستشارى الصينى للمتخصصين الاقتصاديين والتقنيين التابع لوزارة شئون العاملين الصينية. مركز تنمية الموارد البشرية الصينى اليابانى مشروع مشترك تأسس عام ٢٠٠١.

تنص لوائح المركز على أن الشخص الفنى اليابانى الذى يأتى إلى الصين يجب أن يبقى من سنتين إلى خمس سنوات هنا. وقد وصلت بالفعل الدفعة الأولى المكونة من ٥٠٠ يابانى وبدأت العمل فى الصين.

على الرغم من أن الصين بها عمالة فائضة، العمال الفنيون الصينيون ليس لديهم المهارات الضرورية ومن هنا كانت الدعوة لاستقدام الفنيين الأجانب. الأرقام تقول إنه من بين ٧٠ مليون عامل فنى صينى ٥٪ فقط منهم يحملون مؤهلات فنية عالية وأن تركيبة العمال الفنيين هرمية الشكل . هذا على العكس من الدول المتقدمة التى يمثل الحاصلون على مؤهلات فنية عالية ٤٠٪ من قوة العمل الفنى. يقول الخبراء إن مستوى التصنيع المنخفض فى الصين لا يعود إلى مستوى مهندسيها وإنما إلى العمال.

فى عام ٢٠٠١ أنشأت الجمعية الصينية لتبادل الكفاءات سوق الكفاءات الدولية الصينى بدعم من مصلحة الدولة للخبراء الأجانب ليكون أول جهاز من نوعه فى الصين.

وفقا لمسئولين من السوق، الخدمة على المستوى الدولى ويشمل ذلك استقدام الكفاءات من الخارج. وهذا جهاز وسيط دائم وقناة يتم من خلالها دعوة الخبراء الأجانب ويرسل الأفراد إلى الخارج لتلقى التدريب والسوق يستفيد

حاليا من دعم مصلحة الخبراء الأجانب وعمله الرئيسى توزيع ودعوة الخبراء الأجانب، مثل المتخصصين التقنيين والعلميين والمحاضرين الجامعيين للعمل فى الصين، ويتلقى السوق طلبات من الوحدات الداخلية لاستقدام الأجانب . السوق له موقع على الإنترنت يقدم معلومات للكفاءات فى الخارج.

شانغهاى التى يتركز فيها نخبة من الكفاءات الممتازة من كل أنحاء الصين تتجه لتكون مدينة دولية، ومن بين أهم الأولويات على أجندة الموارد البشرية للمدينة إقامة آلية لانتقاء الكفاءات الدولية بما يتناسب مع وضعها المستقبلى وتشير مصادر موثوقة إلى أن شانغهاى ستكون فى عام ٢٠٠٥ أكبر مركز لتفريخ الكفاءات فى آسيا وبحلول عام ٢٠١٥ سيكون قد تشكل بها إطار لانتقاء الكفاءات.

تشن يان هوا، وهو مسئول من قسم توظيف الأجانب بمكتب العمل والتأمينات الاجتماعية التابع لحكومة مدينة بكين، يرى أنه بعد انضمام الصين لمنظمة التجارة العالمية سيكون هناك ارتباط بين الكفاءات الدولية وتلك المحلية، وترجمة هذا على أرض الواقع تعنى أن القيود المفروضة على عمل الأجانب فى الصين ستخفف. وعليه فإن المستخدمين من الأجانب لن يقتصروا فقط على الفنيين وإنما المدراء أيضا، والأذرع مفتوحة للجميع، وسوف يتم تبنى مجموعة من الإجراءات لاجتذاب ذوى الكفاءة من الأجانب.

ومن ذلك أن الصين بدأت مؤخرا إصدار "البطالة الخضراء" أو "الجرين كارد" والتى تسمح لحاملها، وتحديدا من الفنيين والمستثمرين ورجال الأعمال، بالدخول إلى الصين دون الحاجة إلى الحصول على تأشيرة والحكومة الصينية بصدد تقديم المزيد من الخدمات وتحديد إدارات وهيئات معينة لتقديم المعلومات والخدمات الوسيطة للأجانب .

لا شك أن كل هذا يهدف إلى تعزيز وتقوية التنمية الاقتصادية بالصين وزيادة قوتها التنافسية داخل السوق الدولية.

ما الذى جاء به الأجانب

إلى الصين ؟

العديد من الأجانب، كما سلف وأوضحنا، يعتبرون الصين مكانا جيدا للعمل. وتشير فى هذا الصدد إلى أن الدخل السنوى لشاغل وظيفة إدارية عليا فى بعض الشركات المتعددة الجنسيات يصل ١٠٠ ألف دولار أمريكى، وبالطبع ضريبة الدخل التى يدفعونها كبيرة.

بيد أن تأثير الأجانب ليس فقط الضرائب التى يدفعونها البروفيسور دونغ كله يونغ، الأستاذ بكلية العمل وشئون الأفراد بجامعة رنمين ببكين يرى أنه من المناسب أن تعين شركات صينية أجانب فى بعض الوظائف، ولكن عليهم ألا يذهبوا بعيدا فى هذا الاتجاه.

فالعديد من الدول تتخذ إجراءات معينة لحماية العمالة بها وتضع قيودا شديدة على توظيف الأجانب وفى سوق العمل الصينية الحالية العرض يفوق الطلب كثيرا.

ومن ثم يجب بذل الجهود لتدريب العاملين الصينيين. بعض العلماء يعتبرون تشغيل الأجانب فى الصين شهادة على زيادة القوة الشاملة للصين.

ومع التنمية الاقتصادية فى الصين سوف تستمر هذه الظاهرة إن آفاق سوق العمل فى الصين كبيرة وقبول عدد معين من الأجانب ليس مشكلة والعاملون الصينيون إن لم يستفيدوا استفادة كاملة من فرص العمل المتاحة لهم ويوظفوا طاقتهم الكاملة فى مواقعهم فعليهم ألا يلوموا إلا أنفسهم إذا فقدوا وظائفهم.

هذه الرؤية يؤيدها منغ شيانغ تسانغ، مدير إدارة التوظيف بمكتب العمل والتأمينات الاجتماعية التابع لحكومة بلدية بكين. يقول إن هناك ١٦ ألف أجنبى

وخمسة آلاف من مواطنى تايوان وهونغ كونغ وماكاو لديهم تصاريح عمل فى بكين، و٨٥٪ منهم مدراء من المستوى العالى أو المتوسط أو متخصصون. ولما كان عدد سكان بكين ١٠ ملايين نسمة فإن هذا الرقم لا يفرض أى تهديد على فرص العمل لقاطنى بكين.

قد تتعدد الرؤى فى هذا الصدد بيد أن شيئا واحدا مؤكداً وهو أن نظام التوظيف فى الصين يعاد تشكيله ليصبح متعدد الاتجاهات، والعدد المتزايد من الأجانب العاملين فى إدارة الفنادق وفى قطاعات الطعام والثقافة والتسلية وتكنولوجيا المعلومات يمثل تحديا ودفعة للتنمية الاقتصادية فى الصين .

الأجانب أيضا يساعدون فى التواصل مع العالم ويمكن أن ينقلوا إلى الخارج ما يحدث فى الصين. وبعد انضمام الصين لمنظمة التجارة العالمية يصبح تنظيم دخول العمالة الأجنبية وتعزيز الإمكانيات التنافسية للكفاءات المحلية الأولوية رقم واحد.

جيشى : الجنة بجانب بحيرة شنغهاى

مناظر من بحيرة شنغهاى :

فى المنطقة الحدودية التى تفصل بين الصين والاتحاد الروسى ، وتحديدا إلى الشرق من مدينة جيشى تترقرق مياه بحيرة شنغهاى على مساحة لا تقل عن ٤٣٨٠ كيلومترا مربعا البحيرة التى تحمل لقب الحجر الكريم الأخضر ترتبط مع نهر ووسولى، آخر أنهار الصين من ناحية الشرق، فى مقاطعة هيدونغجيانغ.

زمردة الشمال

شنغكاى لفظة من لغة قومية مان (منشوريا) تعنى تدفق الماء من أعلى إلى أسفل، وشينكاى بحيرة بركانية فى الأساس تجمع حولها قبل ٦٨٠٠عام أبناء قوميتى نيويتشنغ ومان حيث وفرت البحيرة لهم سبل العيش.

وبحيرة شينغكاى تمتد من الجنوب إلى الشمال أكثر من تسعين كيلومترا مربعا بينما عرضها من الشرق إلى الغرب أكثر من ٦٠ كيلومترا مربعا، والحق أن شنغكاى عبارة عن بحيرتين معا تفصل بينهما بعض التلال بيد أنهما يتصلان فى فترة ارتفاع المياه البحيرة الشمالية منهما، وهى الأصغر تقع داخل حدود الصين بينما بحيرة شنغكاى ككل مملوكة للصين وروسيا. تلال البحيرة مكسوة بالأشجار والنباتات الكثيفة كما أنها موطن للزراف والهرمين والدجاج الجبلى وغيرها من الحيوانات البرية.

مناظر بحيرة شنغكاى الطبيعية جميلة ولكنها أيضا غريبة، على شواطئها الجبل والسهول وبيوت الفلاحين فى فصلى الربيع والخريف أنت مدعو لتجدف بالقارب فيها فترسم لوحة رائعة على صفحة مياهها وفى الصيف تتحول البحيرة إلى حمام سباحة طبيعى ومقصد لعشاق قضاء العطلات بين أحضان الطبيعة. أما فى الشتاء فإن البحيرة قطعة هائلة من البللور الشفاف.

منطقة بحيرة شينغكاى التى تلتقى فيها العديد من المجارى المائية هى مركز الثروة السمكية لمنطقة شمال شرقى الصين وأسماك داباى التى تنتجها البحيرة من أشهر أربعة أنواع لأسماك المياه العذبة فى الصين. ويقولون إن المرء إذا تناول سمك داباى مع الصياد لا تفارقه السعادة طول الحياة !

الأرض الرطبة .. دوليا

العلماء يعتبرون الأرض الرطبة كلية الأرض ، فهى أحد أضلاع مثلث منظومة البيئة إضافة للغابات والبحر، ويهتم بها العالم لأنها تتعلق بحياة وتطور الإنسان. فالأرض الرطبة تمد البشرية بموارد وافرة وتلعب دورا مهما فى تطور الإنسان حيث الوقاية من الفيضان والجدب والسيطرة على التلوث وتعديل المناخ والسيرة على تآكل الأرض وتجميل البيئة.

تبلغ مساحة الأرض الرطبة ببحيرة شينغكاى ٢٢٠ ألف هكتار وهى من أندر مناطق الأرض الرطبة فى العالم الخالية من التلوث وبفضل مساحتها الكبيرة وبيئتها المتنوعة الجيدة أدرجت فى القائمة الدولية للأرض الرطبة الهامة. وفى يوليو عام ١٩٩٢ بمساعدة من الجمعية الدولية لحماية الكركى أقامت الصين وروسيا منطقة محمية طبيعية دولية فى بحيرة شينغكاى ، وفى إبريل عام ١٩٩٤ أصبحت هذه المنطقة محمية طبيعية على مستوى الدولة، وتشكلت منظومة بيئية شاملة ومركبة للأرض الرطبة تتكون من الأعشاب والمستنقعات والبحيراتوالغابات.

يوجد فى منطقة الأرض الرطبة بشينغكاى أكثر من ٦٠ نوعا من الأسماك وأكثر من ٤٥٠ نوعا من النباتات أشهرها صنوبر شينغكاى النادر والذى ليس له مثيل فى العالم.

طيور الدنيـا

تلال شينغكاى التى تفصل بين شقى البحيرة هى بحق جنة الحيوانات البرية يعيش فيها الفهد والأيل والثعلب والذئب والدب والخنزير البرى كما أن بها الدجاج البرى واليمام والسنجاب وغيرها من الحيوانات الصغيرة والطيور. إن الطبيعة البرية فى بحيرة شينغكاى عالم جد مختلف، أما الحياة البدائية فلن تجد تعبيرا لها أفضل من المحمية الطبيعية.

الطيور تحتاج دائما بيئة من نوعية جيدة، ويفضل مناخ منطقة بحيرة شينغكاى المحمية الدافىء الرطب والمستنقعات الكثيرة تأتيها الطيور مهاجرة، وبخاصة من أواخر مارس إلى أوائل إبريل. ويتكاثر ما يزيد على ٦٠ نوعا من الكركى ذى التاج الأحمر بمنطقة البحيرة التى يعيش بها ٥ر٢٪ من الكركى ذى التاج الأحمر الموجود فى العالم إضافة للطيور النادرة، وهذا جعل من البحيرة قبلة لعشاق مشاهدة الطيور والاستمتاع بها.

السياحة البيئية هنا

جيشي، المدينة الرابضة جنوب شرقى مقاطعة هيلونغجيانغ مجاورة لروسيا، تضم ستة أحياء وثلاث مدن صغيرة على مستوى المحافظة (جيدونغ هولين، ميشان) وجيشى مدينة لصناعة الفحم الحديثة بمقاطعة هيلونغجيانغ كما أنها قاعدة هامة لصناعة الفحم فى شمال شرقى الصين. وبفضل بحيرة شينغكاى تطور مدينة جيشى منتجا سياحيا جديدا هو السياحة البيئية ذات المزايا الخاصة.

الطبيعة فى جيدونغ

محافظة جيدونغ التى ترتبط بروسيا برا تبعد عن المنطقة الحضرية لمدينة جيشى ١٥ كيلومترا ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٣٠٠ ألف نسمة، من الهان والمان والهوى والكوريين.

لقد استطاعت جيدونغ أن تحافظ على انتمائها للطبيعة وتنأى بنفسها عن الفوضى والعشوائية التى عمت كثيرا من الأماكن : فالغابات تغطى ٦ر٤٢٪ من إجمالى مساحتها وتنتج أخشابا من نوعية راقية ويعيش فى غاباتها الواسعة أكثر من عشرين نوعا من الحيوانات البرية تنبت فيها العقاقير البرية النادرة بما فيها جذور الجنسن والطبر (لينغشى، وهو عشب طبى) والخضروات البرية

الجبلية، ومن أشهر مواقعها منطقة مناظر بالنغشان ومنطقة مناظر نهر هادا وحديقة فنغهوانغشان للغابات، كما أن بها ٣٦ مكانا من مصايد السمك وقضاء العطلات. يزورها سنويا ما لا يقل عن ٥٠ ألف نسمة، يستمتعون بأطعمة الأقليات القومية ورقصاتهم ويعايشون عاداتهم وتقاليدهم الغريبة ولكن الجذابة.

وجيدونغ من أقوى عشر محافظات فى مقاطعة هيلونغجيانغ، وبفضل سهولة المواصلات والاتصالات ترتبط محافظة جيدونغ مع العالم كما تعتبر محافظة جيدونغ من أهم عشر محافظات منتجة للفحم فى الصين، حيث يصل احتياطى الفحم بها ٤ر٣مليار طن . ومن أجل استثمار محافظة جيدونغ وضعت حكومة المحافظة سلسلة من السياسات التفضيلية لجذب التجار والاستثمارات كما تبذل الحكومة جهودا كبيرة لتحسين بيئة الاستثمار.

ميشان وثقافة المزارع

الفضل فى شهرة ميشان يرجع إلى بحيرة شينغكاى، بيد أن ذلك كان بعد تأسيس الصين الجديدة

فى عام ١٩٥٨ توجه ١٠٠ ألف من الجنود والضباط الذين نقلوا إلى العمل المدنى إلى ميشان لاستثمار هذه الأرض البكر وبفضل جهودهم الشاقة أصبحت ميشان الجدباء مخزن الحبوب للصين الجديدة وبعد عشر سنوات انتقل إليها مئات الآلاف من الشبان المثقفين من المدن للمشاركة فى بناء المزارع، أصبحت ميشان منبع ثقافة المزرعة.

ميشان مساحتها واسعة، وبيئتها طيبة وأرضها خصبة والمياه بها وفيرة وينافس خزان تشينغنيان للمياه بها بحيرة شينغكاى وهى مكان سياحى طيب.

يرجع تاريخ ميشان إلى قبل ٦ آلاف عام، وبها موارد أرضية وافرة وأحياء متنوعة، وينتشر تحت ثراها الفحم والجرافيت والرخام، وتتوفر بها المنتجات الزراعية والخشبية وتعد قاعدة إنتاج الحبوب التجارية فى الصين.

هولين - السماء الزرقاء والأرض الخضراء

مدينة هولين التى يمر بها نهر ووسولى، تغطى الغابات والمروج والمستنقعات والمياه ثلثى مساحتها، ولك أن تتخيل كيف يكون هواء هذه البقعة من الأرض. وفى هولين ٣٦ نوعا من المواد المعدنية، بما فيها الذهب والفحم.

بعد خمس ساعات بالسيارة يمكن أن تصل أرضا مرتفعة رقم ٥٢٩. ومنها يمكن مشاهدة منظر نهر ووسولى الجميل وجزيرة تشنغياو التى تتوسط النهر بمناظرها الجميلة وحيواناتها وطيورها المتنوعة.

من مناطق مناظر هولين الجميلة الأرض الرطبة ببحيرة يهيا وجزيرة تشنغياو وحديقة ووسوليجيانغ للغابات على مستوى الدولة وغابات دونغفاتغهونغ العذراء والانسياب مع التيار فى نهر هوتوجيه، ويمكن للسائح فى هولين زيارة الغابات العذراء ومشاهدة النباتات وجميع النباتات الجبلية النادرة تمتعا بجمال الطبيعة إضافة لزيارة بيوت الفلاحين والحقول.

من أجل حماية البيئة أنشأت حكومة مدينة هولين ٨ محميات طبيعية ومناطق لحماية الحيوانات البرية فى عام ١٩٩٦، منها منطقة بهياهو البيئية وأرض هوكو الرطبة . كما أنشأت قرى الزراعة البيئية وتهتم بتطوير الأطعمة الخضراء ولتحقيق هذا الهدف استثمرت ٣٠٠ مليون يوان لمعالجة البيئة، وفى عام ٢٠٠١ ساهمت الأطعمة الخضرة بحوالى ٦٥٪ من إجمالى متوسط دخل الفلاحين فى المدينة.

ويوجد فى مدينة جيشى أكبر شركة فى آسيا لإنتاج الجرافيت وأكبر إدارة للشؤون المنجمية وأكبر مؤسسة للآلات الميكانيكية فى الصين، وبها ١١ مزرعة كبيرة مملوكة للدولة ومزرعتان للأشجار، وتشكلت بها شبكة مواصلات سهلة من الطرق البرية والحديدية والجوية.

ولجعل جيشى مدينة للسياحة البيئية استثمرت حكومة المدينة ١٤٠ مليون يوان صينى لبناء المرافق العامة إضافة إلى استثمار المشروعات السياحية التى تتميز بالسمات المحلية والخطوط الدولية العديدة.

غابات بحيرة شينغكاى وبحيرة جيهو والأرض الرطبة والجليد كلها مناظر طبيعية للشمال الصينى تجذب الصينيين والأجانب.

رونالدو .. آفو الصينى

فى بطولة كأس العالم الأخيرة.. كوريا/اليابان تعلقت الأنظار، وربما قلوب كثيرين بنجم السامبا حامل الرقم ٩ رونالدو، بيد أن مهارة رونالدو البرازيلى لم تكن السبب الوحيد فى الولع برونالدو وإنما قصة الشعر الجديدة التى ظهر بها والتى أثارت تساؤلات عن مصدر هذه الموضة الجديدة فى حلاقة الشعر السر اسمه آفو الصينى!!

جنون آفــو

وفقا لما قاله أحد مصففى الشعر فى البرازيل زاد زبائن صالونه الذين حلقوا شعرهم على طريقة آفو بعد أن فاجأ رونالدو جماهير الكرة بها فى العالم.

فتاة برازيلية شكت من أن صديقها قص شعره على طريقة آفو بعد أن فعلها رونالدو، الفتاة تكره هذه الموضة.

زوجة رونالدو قالت عن موضة الحلاقة التى اختارها رونالد .. إذا كان يرى أنها تجلب له الحظ فمن الطبيعى أن أقتنع بها.

وهناك عدد غير قليل من الأطفال حلقوا مقلدين رونالدو على طريقة آفو، رغم أنف الأمهات.

حكاية آفــو

آفو هو اسم لتماثيل الأطفال الصلصالية التى تنتجها هويشان بمدينة ووشو، جيانغسو. فى فترة أسرة مينغ (١٣٦٨ إلى ١٦٤٤)، بنى عدد كثير من المعابد البوذية فى منطقة هويشان، فكان أبناء المكان يذهبون إليها للصلاة لآلهة البوذية حاملين معهم التماثيل الصلصالية بمختلف أنواعها تعبيرا عن آمالهم فى الإنجاب أو السعادة أو العمر المديد. كان من أشهر هذه التماثيل الصلصالية تمثال طفل آفو.

تقول أسطورة قديمة إن آفو فتى ضحى بحياته فى القتال من أجل تخليص الناس من مخالب الشيطان وتخليدا لذكراه أقيم تمثال صلصالى لهذا الفتى الشجاع. ثم تطور تمثال الفتى من تمثال أحادى إلى تمثال مزدوج لطفل وطفلة ثم تحول هذان التمثالان إلى تميمة عرفتها شتى أنحاء الصين. وهكذا غدا شكل شعر آفو موضة شائعة بين الأطفال الصينيين.

كعكة الشعر .. رمز الرجولة

فى قديم الزمان، كان النبلاء الصينيون يقيمون احتفالات بمناسبة بلوغ الصبى سن الرجولة، وفى أسرة تشو (١١٠ ق.م إلى ٢٥٦ ق.م تقريبا)، كان سن البلوغ للرجل عشرين سنة. كانت تقام مراسيم التتويج فى معبد الأسلاف ويشرف عليها وى الأمر بين الضيوف المدعوين تاج البلوغ الرجالى يتكون من ثلاثة تيجان هى تاج القماش الكتانى الأسود الذى يمثل امتيازات الطبقة الأرستقراطية، والتاج الجلدى الذى يرمز إلى واجب صاحب التاج فى أداء الخدمة العسكرية، وتاج من القماش الكتانى الأرجوانى يعبر عن حق الاشتراك فى النشاطات الاجتماعية.

بالنسبة للشاب من عامة الشعب كان إذا بلغ سن الرجولة يكفيه أن يصفف شعره مثل كعكة تحزم بالقماش فوق قمة رأسه.

بلوغ الفتاة

فى العصور الغابرة كان سن البلوغ للفتاة فى العادة خمس عشرة سنة، حيث يمكن تصفيف الشعر إلى ما فوق الرأس، وتزيينه بالحلى الجميلة.

ومن خلال اللوحات أو الأعمال الأثرية أو ما يشابهها، نلاحظ أن تشكيلية شعر النساء فى أسرة تانغ (٦١٨ إلى ٩٠٧) تبرز ميزات العلو، والكثافة باستخدام الشعر الصناعى. والزخارف للشعر من المصوغات الذهبية أو الفضية أو المجوهرات أو الأعمال الفنية من الخشب.

الشعر والرأس

قال كونفوشيوس : إن كل جزء فى جسم الإنسان بما فى ذلك الشعر، يأتى من الوالدين، فلا ينبغى أن تفعل شيئا يلحق به أى ضرر، فذلك هو بر الوالدين.

إذا كان تاج شعر الرأس أو الثوب الذى يرتديه الفرد غير نظيف أو غير سليم فذلك سلوك غير مهذب والحكاية الصينية القديمة تقول إنه فى معركة بمملكة وى ، سقط تاج رأس تسى لو - أحد تلاميذ كونفوشيوس، على الأرض بعد أن قطع رباط التاج وتهدل شعره الطويل فصاح بصوت عال إن صاحب الأخلاق الجيدة يفضل الموت على سقوط تاج الرأس، وكان أن باغته العدو وهو يلتقط تاج رأسه ويصفف من جديد شعره.

تساو تساو (١٥٥- ٢٣٠) كان الحاكم الحقيقى لمملكة وى فى عهد الممالك الثلاث أصدر أمرا بإعدام من يتلفون المزروعات الخضراء أثناء المسيرة العسكرية . ذات مرة اقتحم فرس تساو تساو مذعورا الحقول حيث وطئ زروعا خضراء هنا جرد تسا تساو سيفه وقطع به خصلة من شعره تعبيرا عن قطع رأسه

الرأس والشعر

فى عام ١٦٤٤ أسس أبناء قومية منشوريا أسرة تشينغ كانت الرجال يحلقون شعرهم بحيث يكون النصف الأمامى للرأس أصلع تماما بينما يكون شعر النصف الخلفى طويلا مضفورا. وقد أصدر البلاط الإمبراطورى مرتين فى يونيو ويوليو من عام ١٦٥٤ مرسوما حكوميا يطالب جميع رجال القوميات الأخرى أن يكونوا مثل رجال قومية منشوريا من حيث طراز الثوب وموضة شعر الرأس مع الحكم بالإعدام على الرافضين.

أنهت ثورة عام ١٩١١ حكم أسرة تشينغ الذى دام أكثر من ٢٦٠ سنة، وبنهايتها دخلت موضة شعر رجال منشوريا متحف التاريخ.

الصينيون حاليا، الرجال والنساء ، يقلدون موضات الشعر فى الولايات المتحدة وأوربا أو كوريا الجنوبية، وهم يسمون ذلك الحياة المعاصرة، فما رأيك أنت ؟!

تشوتشو : هنا ولدت حضارة الصين

تشوتشو هى مهد الحضارة الصينية لا جدال فى ذلك، والشاهد هو وجود مقبرة الأب الأول للصينيين الإمبراطور بان دى بها، بيد أن تشوتشو هى أيضا منبت الثورة الصينية.

وقد ظهرت بها أول سلطة سياسية حمراء فى الصين، الأكثر هو أن المخاض الأول للصناعة الصينية نشأ بهذه ألمدينة وكان ذلك القواعد الصناعية التى أنتجت المجموعة الأولى من محركات الطيران، والوحدة الأولى من محركات الدراجات النارية، وغيرها من ٥٠ نوعا من المنتجات من الدرجة الأولى فى أنحاء البلاد

مدينة على قضبان حديدية

السكك الحديدية هى شعار تشوتشو . ففى أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين كانت تشوتشو همزة الربط لخط تشجيانغ- جيانغشى، وخط بكين - قوانتشو، وخط هونان - قوينشو التى اعتبرت الشرايين الثلاثة للسكك الحديدية الصينية فى تلك الأيام، مما جعل المدينة أكبر مركز للمواصلات الحديدية فى جنوب نهر اليانغتسى . وبفضل سهولة مواصلاتها صنفت تشوتشو ضمن أكبر ثمان مدن صناعية فى فترة الخطة الخمسية الأولى بعد تأسيس الصين الجديدة. وقد أقيم بتشوتشو أربعة مشروعات من ١٥٦ مشروعا قدمها الاتحاد السوفيتى السابق مساعدة للصين وهى شركة المحركات ، محطة توليد الكهرباء، ومصنع سبائك الصلب، ومصنع غسل الفحم.

المحاور الرئيسية لتطور تشوتشو هى السكك الحديدية - المصانع - المدينة ومن أجل تحقيق المزيد من السرعة فى تطوير السكك الحديدية أنشأت تشوتشو عددا من المصانع التى تخدم قطاع المواصلات الحديدية ومنها مصنع القاطرات الكهربائية ومصنع العربات ومصنع عوارض الجسور. والآن يدخل محطة تشوتشو ويخرج منها قطار كل ٦ دقائق ونصف.

وتشوتشو هى أحد أضلاع «المثلث الذهبى» للاقتصاد المتقدم فى مقاطعة هونان مع كل من مدينة تشانغشا، عاصمة المقاطعة ومدينة شيانتان، وتشوتشو هى ثانى أكبر قلعة صناعية، بعد تشانغشا، فى هونان، وتمثل قوتها الصناعية الواقعية المركز السادس والعشرين على مستوى الصين.

المؤسسات المملوكة للدولة أو بعبارة أخرى شركات القطاع العام لها مكانة خاصة فى قلوب أبناء تشوتشو، ولكن بعد أن انتهجت الصين سياسة الإصلاح والانفتاح ومع التعديلات التى أدخلت على المؤسسات المملوكة للدولة

وجدوا أن آليتها المرتبطة بنظام الاقتصاد المخطط شديدة الجمود، وأن أعباء ديونها ثقيلة جدا، واكتشفوا أن الأكل فى القدر الكبير الواحد وزيادة العمال عن حاجة العمل ظواهر خطيرة تعوق بشدة تطور المؤسسات المملوكة للدولة.

فى الثمانينات سبقت تشوتشو المدن الأخرى فى القيام باصلاح نظام العمل والعاملين ونظام الأجور والمناصب فى المؤسسات المملوكة للدولة، مما أذكى حيوية جديدة للمؤسسات الكبيرة والمتوسطة التى تدعم تطور صناعة تشوتشو . فشكل حجم الأرباح التى حققتها مجموعة نانفانغ ومصنع القاطرات الكهربائية ومصنع السبائك الصلب وشركة تشيانجين للأدوية ٩٠٪ من إجمالى حجم أرباح المؤسسات الصناعية فى تشوتشو، ومن أقوى خمسمائة شركة فى أنحاء البلاد ٦ شركات تنتمى لمدينة تشوتشو.

شركة تشيانجين المحدودة للأدوية تكبدت خسائر فادحة حتى اقتربت من حافة الإفلاس فى أوائل الثمانينيات. وفى هذا الوقت الحاسم قاد تشو فى جين، مدير عام الشركة، موظفيه وعماله لإنتاج الأدوية الخاصة لعلاج أمراض النساء باعتبارها منتجات قوية، فحققت الشركة خلال خمسة أعوام أرباحا وضرائب للدولة وصلت ١٠ ملايين يوان . وحصلت هذه المنتجات على الجائزة الفضية للدولة. وأدرجت ضمن المنتجات المحمية للدولة وضمن الأدوية الأساسية للدولة. وفى عام ٢٠٠١ بلغت قيمة مبيعاتها ٦٠٠مليون يوان وفى منتدى الاقتصاد العالمى ببكين فى العالم الماضى ألقى مدير الشركة محاضرة لقيت استحسانا كبيرا .

مصنع سبائك الصلب الذى تأسس فى عام ١٩٥٤، أكبر قاعدة لإنتاج وبحوث سبائك الصلب. وله حق الاستيراد والتصدير المستقل بموافقة الدولة، وهو من المؤسسات الإنتاجية من الدرجة الأولى للدولة وفى عملية تحويل آليته يطبق المصنع نظام مسؤوليات المقاولة. ونظام الأسهم إلخ. ونتيجة ذلك بات

المصنع مفعما بقوة حيوية، وعبر عشرات السنين من البناء أصبح لدى هذا المصنع مركز للتكنولوجيا على مستوى الدولة، ومركز للتحليل والاختبار على مستوى الدولة، ومحطة عمل لدراسات مابعد الدكتوراه على مستوى الدولة. كما أقيمت فروع لشركات فى الولايات المتحدة وألمانيا واليابان وهونغ كونغ ، وتغطى شبكته التجارية ٦٩ دولة ومنطقة فى العالم. ويتجاوز إجمالى حجم وارداته وصادراته ٨٠ مليون دولار أمريكى سنويا.

مصنع القاطرات الكهربائية عمره ٦٠ سنة ينتج المصنع القاطرة SS9 وهى أكبر قاطرة من حيث القوة الآلية فى الصين حتى الآن . وفى الآونة الأخيرة حصل المصنع من خلال المناقصة على صفقة إنتاج ١٦٨ عربة لمترو شانغهاى، تبلغ قيمتها ٥ر١مليار يوان . وبعد سنتين سيدخل قطار من ١٦٨ عربة شانغهاى.

منطقة تشوتشو
الاستثمارية تستيقظ

تأسست منطقة تشوتشو الاستثمارية للتكنولوجيا العالية والجديدة فى فبراير عام ١٩٩٢، وفى ديسمبر من نفس العام أصبحت منطقة استثمارية على مستوى الدولة بموافقة من مجلس الدولة تبلغ مساحتها٣٥ كيلومترا مربعا.

خلال السنوات الثمانى الأولى لتأسيسها، أى حتى عام ١٩٩٩، كان السكون هو السمة الرئيسية للمنطقة، ولم تدخلها شركة صينية أو أجنبية فى شتاء عام ١٩٩٩ أصدرت وزارة العلوم والتكنولوجيا تحذيرا للمنطقة من أنها إن لم تسرع خطوات تطورها سوف يتم إلغاؤها هذا التحذير نزل كالصاعقة فوق رؤوس مسئولى حكومة مدينة تشوتشو.

وسرعان ما اتخذت حكومة المدينة سلسلة من الإجراءات الهامة، وخلال عامين تغيرت بيئة الاستثمار تغيرا جذريا واجتذبت المنطقة كثيرا من المستثمرين من داخل الصين وخارجها بالمرافق الأساسية المتكاملة ونظام الاستثمار المرن والسياسات التفضيلية والخدمات السريعة والعالية الفاعلية، وأقامت علاقات تعاونية مع عشرة دول ومناطق فى العالم مثل الولايات المتحدة وألمانيا وسنغافورة وتايوان إلخ، وأنشأت فيها بعض الشركات من أقوى خمسمائة شركة فى العالم مثل سيمنز وياماها مؤسسات لها.

وحسبما قال تشاى دوبى مسؤول المنطقة الاستثمارية شاركت أكثر من مائة شركة من أنحاء العالم فى مؤتمر المحادثات الذى عقدته منطقة تشوتشو الاستثمارية فى مايو الماضى، وتم فيه توقيع خطابات نوايا حول ٧ مشروعات ، تبلغ قيمة استثماراتها الأجنبية التعاقدية ٦ ملايين دولار أمريكى، وفى الوقت نفسه اجتذبت استثمارات صينية قيمتها ٨٠٠ مليون يوان من خارج مدينة تشوتشو. والآن ، لم يعد فى حديقة تيانتاى الصناعية بالمنطقة الاستثمارية بقعة فارغة من الأرض، وارتفع إجمالى قيمة صناعتها من ٣٩ر١٢٥ مليون يوان عند تأسيسها إلى ٤٤٨ر٧ مليار يوان عام ٢٠٠١، وبلغ معدل نموها السنوى ٤٥ر٥٠٪.

الفصل التاسع:

حضارة الصين

قبل أكثر من ٤٠ سنة وضعت خطة مدينة تشوتشو بمساعدة خبراء السوفيت بحيث تكون مساحتها ١٠ كيلومترات مربعة وتستوعب ١٠٠ ألف نسمة اليوم يزيد عدد سكان المدينة عن ٧٠٠ ألف نسمة، ومساحتها تجاوزت ٦٥كيلومترا مربعا. وإذا كان أبناء تشوتشو قد استفادوا من تطور الصناعة فإنهم يشعرون أيضا بالضيق والتوتر الناتج عن المنشآت الصناعية القديمة، ويأملون فى معيشة فى بيئة فسيحة جميلة.

نهر شيانجيانغ، من الروافد السبعة لنهر اليانغتسى ، أكبر نهر فى مقاطعة هونان، يمتد فى مدينة تشوتشو ٨ر١٢٠كيلومترا، وعرضه الأكبر ٦٠٠متر . ولم بنيت عليه جسور وهو يقسم المدينة إلى جزئين، ولذلك لم يكن داخل المدينة شبكات للطرق.

فى عام ١٩٩٩ بدأ بناء الطريق الدائرى السريع الذى يتكون من جسرين على نهر شيانجيانغ و٥ طرق و٣ جسور معلقة، يبلغ طوله الإجمالى ٧٩ر٣٢كيلومترا، من ٦ حارات للسيارات فى اتجاهين. ويبلغ إجمالى تكاليفه ٨ر١ مليار يوان. وبعد إتمام بنائه سترتبط المناطق الحضرية التى تقسمها السكك الحديدية والنهر والتلال.

والآن يجثم الجسران على نهر شيانجيانغ، رابطين المنطقة الاستثمارية غرب النهر بالمنطقة الحضرية القديمة شرق النهر. وبعد تزيينهما يبدو أنهما جسران ذهبيان فى النهار، كما أنهما مثل قوس قزح فى المساء.

يجرى العمل حاليا فى جسر جياننينغ، ثالث الجسور على نهر شيانجيانغ

فى تشوتشو، يبلغ طول باعه ٢٤١ مترا، ويرتفع برجه ١٣٨ مترا، ويعد أكبر جسر كابلى مشدود مائل فى الصين حتى الآن.

فى تشوتشو يلفت الأنظار السماء الصافية بين مجموعات البنايات. فقد ألغت المدينة الخطوط المتنوعة مثل خطوط الكهرباء وخطوط الهواتف وخطوط التلفزيونات المتشابكة كبيت العنكبوت فى سماء المدينة، واستبدلتها بكابلات كهربائية وهاتفية وتلفزيونية مدفونة تحت الأرض، وعلى جانبى الشوارع تنتصب صناديق المحولات بانتظام ، ولذلك أصبحت سماء المنطقة الحضرية واسعة وشوارعها جميلة. ستقوم شركة هايتشوان للتنمية العقارية بشانغهاى ببناء تجمعات سكنية راقية على الطراز الشانغهائى فى قلب مدينة تشوتشو، كما تقوم شركة تشاولين لصناعة العقارات بقوانغدونغ ببناء ساحة تايتسيداو التجارية ذات الملامح القوانغدونغية، وفى حى شيفنغ بمدينة تشوتشو تقوم شركة من تايوان بإنشاء مركز تجارى ضخم تبلغ مساحته ٢٠٠ ألف متر مربع.

كما بذلت حكومة المدينة جهودا كبيرة فى تحضير وتجميل المدينة. وبلغ معدل الغطاء الأخضر فى أنحاء المدينة ٣٧٫٧٥٪ من مساحتها. وتم إنشاء ثلاث حدائق داخل المدينة هى حديقة شننون، حديقة شيفنغ، حديقة ليوفانغيوان، يبلغ معدل مساحة التحضير لكل منها أكثر من ٧٠٪ ولذلك منحت وزارة الإنشاء والتعمير تشوتشو لقب «المدينة الممتازة لمعالجة البيئة» و«المدينة المتقدمة فى التشجير».

سياحة خاصة جدا

حضارة الخمسة آلاف سنة :

بمناسبة حلول عيد تشونغيانغ التقليدى (التاسع من الشهر الاسع فى التقويم القمرى الصينى) تفتحك بوابة مقبرة الإمبراطور يان دى على أنغام الطبول والصنوج، يسير موكب إحياء ذكرى يانو دى إلى المقبرة، ثم بقيادة تشنغ وان تشى، رئيس جمعية الصينيين العالمية ورئيس جمعية الصينيين العالمية لتنمية الصناعة والتجارة، وهى يو لى نائب رئيس معهد بحوث ثقافة الإمبراطور يان دى والإمبراطور هوانغ دى، ينحنى ٢٠ ألف مندوب صينى قادم من أنحاء العالم أمام مقبرة يان دى حاملين البخور فى أيديهم تعبيرا عن أن أبناء يان دى وهوانغ دى لا ينسون أسلافهم.

أصل الأمة الصينية يعود إلى عهد الإمبراطور يان دى والإمبراطور هوانغ دى قبل أكثر من خمسة آلاف سنة.

فى الزمن البعيد من تاريخ الصين القديم كان الامبراطور يان دى والإمبراطور هوانغ دى يتنازعان من أجل الهيمنة فيما بعد تعايشا فى ألفة ومودة كأفراد الأسرة الواحدة. اخترع هوانغ دى المركب والعربة والبيت، وعلمت زوجته الناس تربية دود القز وصنع الملابس، فى حين علم يان دى الناس الزراعة، وعرف بأنه عصر اعتماد البشر على لحوم الحيوانات البرية والثمار البرية.

كما جمع يان دى الأعشاب الطبية لعلاج أمراض الناس وقبل العلاج كان يتناول العشب بنفسه. وأخيرا مات فى جبل بانلينغ بعد أن تناول عشبا ساما بالخطأ عند جمع الأعشاب الطبية. وهذا هو مصدر قول أبناء يان هوانغ أى أبناء الأمة الصينية. يقولون إذا كنت تريد التعرف على حضارة الخمسمائة سنة

للأمة الصينية اذهب إلى بكين، وإذا كنت تريد التعرف على حضارة ألفى سنة للأمة الصينية اذهب إلى مدينة شيآن، وإذا كنت تريد التعرف على حضارة الخمسة آلاف سنة للأمة الصينية اذهب إلى تشوتشو، لزيارة مقبرة الإمبراطور يان دى.

بنيت مقبرة الإمبراطور يان دى فى عام ١٩٦٧ الميلادى، تقع فى محافظة يانلينغ بأقصى جنوب مدينة تشوتشو . هناك الأشجار الكثيفة الواردة والجبال المتراصة.

يبدو قصر مقبرة الإمبراطور يان دى بالقراميد الذهبية اللون والجدران الحمراء مهيبا وقورا، عظيما فاخرا. وهذا القصر متكون من خمس دور : الدار الأولى تسمى «وومن»، والدار الثانية جوسق «شينغ لى» (الانحناء احتراما) وأمامه نصب من الرخام الأبيض نقشت عليه ثلاثة مقاطع صينية «يان دى لينغ» (مقبرة يان دى) بخط الرئيس جيانغ تسه مين، والدار الثالثة قاعة رئيسية للقصر يوضع فيها تمثال يان دى من خشب شجرة الكافور والمطلى بالذهب، والدار الرابعة جوسق شاهدة القبر تنتصب فى قلبه شاهدة من الرخام الأبيض كتبت عليها كلمات "بر يان دى تشن نون شى» بخط هو يو بانغ الأمين العام السابق للجنة المركزية للحزب فى ابريل عام ١٩٨٦، والدار الخامسة قبر يان دى يبلغ ارتفاعه ٨٥ر٤ أمتار وعرضه ٤٧ر٦أمتار. وعلى مقربة من قصر مقبرة يان دى أنشىء معبد شنغسى وقاعة تيانشى وبرج شنغهوه وجوسق لوبوان.. الخ.

الطبيعة لها سحر :

يوجد فى تشوتشو الجبال والتلال والأحواض والأنهار والغابات ، الغابات تغطى ٦٠٪ تقريبا من مساحتها، الغابات العذراء التى لا تنتهى أطرافها، والكهوف العميقة الطبيعية والشلالات الطائرة الكبيرة تجعل أرض تشوتشو تظهر جمال وجاذبية الطبيعة.

تاويواندونغ (كهف الكرز) من الحدائق الغابية على مستوى الدولة، تبلغ مساحتها ٧٨٦ر٢٣ ألف هكتار وكثافة السكان فيها منخفضة، حيث يعيش ٤ر٦ فرد فى كل كيلومتر مربع . يكثر فيها الكرز البرى ويوجد الكهف الطبيعى، فأطلق عليها تاويواندونغ (كهف الكرز) هناك كهفان طبيعيان، أحدهما يستر الشلال مدخله، ولا يعرف الناس كم عمقه، والآخر يقال إنه يمتد بضعة كيلومترات، وحتى اليوم لم يدخله شخص. كما تعد تاويواندونغ من «الكنوز الخضراء؟»، فيها أكبر مجموعة من أشجار التنوب ذات القيمة العالية للدراسة العلمية.

علاوة على ذلك يوجد فى تشوتشو منطقة جيوفوجيانغ السياحية وهى تجمع بين خزان المياه الضخم والكهف الكلستى وموارد الحرارة الجوفية، ومنطقة داجين السياحية تجسد المناظر الطبيعية للجبال والمياه والغابات والحيوانات. ولا شك أن نهر شيانجيانغ الذى يمر بالمدينة له جمال طبيعى مميز.

الموقع الثورى المقدس :

تشوتشو هى أرض الأمجاد والأبطال، اشتعلت فيها نار الثورة الصينية التى أضاءت أرض الصين. وقام العظماء ماو تسى تونغ، تشو ده ، تشن بى ، بنغ ده هواى بالعديد من النشاطات الثورية الهامة فيها، مما وضع أساسا قويا متينا لانتصار الثورة الصينية أقيمت فيها أول سلطة سوفيتية صينية، وأول مصنع للأسلحة للجيش الأحمر للعمال والفلاحين الصينيين. كما تحفظ الآن فى تشوتشو لافتات للجيش الأحمر فى فترة الحرب الثورية الأهلية الأولى وكل هذا أصبح موادا حية للقيام بالتثقيف الثورى التقليدى.

إشراقة العلوم والتكنولوجيا الحديثة :

تشوتشو قاعدة صناعية هامة فى جنوب الصين، وهى ليست المهد الأول لصناعة سبائك الصلب والقطارات الكهربائية فحسب، بل هى قاعدة إنتاج المواد

الكيميائية وصنع العربات وصهر الرصاص أيضا . والآن تنتفح القواعد الصناعية أمام الزوار للتعرف على عملية تطور الصناعة الصينية، والإحساس بإشراقة العلوم والتكنولوجيا الحديثة. فى مصنع قوقوانغ للخزفيات والفخاريات بليلينغ الذى يعد أول منتج للسياحة الصناعية فى الصين يمكن مشاهدة ٧ عمليات إنتاجية من تركيب المواد إلى اللمسات الأخيرة للمنتجات. وقد باتت خزفيات وفخاريات ليلينغ من الهدايا التى يقدمها مجلس الدولة لكبار الضيوف الأجانب.

تشينغداو .. مدينة البحر

وذكريات الاحتلال

تشينغداو الواقعة على ساحل بحر هوانغهاى مدينة صغيرة تعبق بأجواء أجنبية غريبة لا تجدها فى المدن الصينية الساحلية الأخرى، ولعل ذلك من مخلفات الماضى عندما كانت تحتلها ألمانيا واليابان المدينة أيضا مفعمة بسمات بل مزايا المناطق الساحلية والفضل فى ذلك يعود إلى النظرة الثاقبة والرؤية البعيدة للقائمين على أمر تشينغداو.

بنايات قديمة بطراز أجنبى

عدد لا يحصى من البنايات القديمة ذات الأنماط المعمارية الأجنبية فى المدينة، منها المساكن والبنايات العامة، وما زالت البنايات الجديدة تسعى للإبقاء على هذه الأنماط التى يفخر بها أبناء المدينة بل كل الصينيين، بيد أن هذه البنايات بطرازها الأجنبى تثير فى نفوس الصينيين ذكريات المهانة والذل الذى تعرضوا له فى هذه المدينة وقت احتلالها.

فى نوفمبر عام ١٨٩٧ بدأ الاحتلاف الألمانى بالقوة العسكرية للمدينة ، ومن نوفمبر عام ١٩١٤ إلى ١٠ ديسمبر عام ١٩٢٢ حلت اليابان محل ألمانيا، وسيطرت على تشينغداو سيطرة استعمارية وعسكرية.

المستعمرون الألمان، بعد أن احتلوا المدينة، أعادوا بنائها على الشكل الذى يلبى متطلباتهم وهدموا البنايات التقليدية الصينية فيها، وبنوا هذه المدينة على طراز المدن الأوربية الحديثة، ومحوا ملامح الثقافة التقليدية الصينية، وخلال ١٧ سنة من الاحتلال الألمانى تشكل للمدينة أسلوبها المعمارى وملامحها الأساسية التى تركت بصماتها إلى الآن.

من أهم البنايات فى تشينغداو خلال فترة الاحتلال الألمانى والتى مازالت بحالة جيدة حتى الآن.

المكتب الرسمى للحاكم العام الألمانى (تشونغدوفو) تم بناؤه فى عام ١٩٠٦، وهو مشيد على طراز البنايات الكلاسيكية الأوربية، وهذه البناية هى حاليا المقر الرسمى لمجلس نواب الشعب والمجلس الاستشارى السياسى للشعب الصينى لمدينة تشينغداو.

مكتب إدارة الشرطة جياوآو (جياوآوجينغتشاشو): تم بناؤه فى عام ١٩٠٥، وهو مبنى على هيئة الكنائس الريفية فى العصور الوسطى باستخدام القراميد الحمراء والجدران الصفراء، وهو حاليا مقر إدارة مكتب الأمن العام لمدينة تشينغداو.

منزل الحاكم العام (تسونغدوقواندى) أو بناية الحاكم العام الألمانى (نيدولو) : بنى فى عام ١٩٠٨، ويقع فى جنوب جبل شينهاو، وهو فيلا نموذجية فاخرة على طراز الحديقة، مشيدة على الطراز المعمارى الألمانى، وهذه البناية تحولت إلى فندق حاليا.

محطة القطار بتشينغداو: تتكون من برج الساعة وقاعة الانتظار الكبيرة رئيسيا، وسطح برج الساعة مبنى على طراز ثمانى الزوايا، وتركب فيه أربع ساعات كبيرة، وبعض الأجزاء منه مازالت فى حالة جيدة، أما الأجزاء الأخرى فقد أعيد بناؤها مقلدة للأصل.

كنيسة يسوع : تم بناؤها فى ١٩١٠، ويبلغ ارتفاع الجزء الأساسى لها ٢٨ر١٧مترا. جدرانها الصفراء مبنية بأحجار الجرانيت، والكنيسة مشيدة بالأسلوب المعمارى للقلاع الألمانية القديمة.

بالإضافة إلى ذلك توجد فى تشينغداو البنايات التالية المبنية من ثلاثينيات القرن الماضى :

كاتدرائية القديس ميكائيل: بنيت فى عام ١٩٣٤ على الطراز المعمارى القوطى، وكانت بناية هامة فى ذلك الوقت، وهى بناية دينية ذات تأثير واسع فى تشينغداو، وهى مقر النشاطات الدينية لنحو عشرة آلاف كاثوليكى فى تشينغداو.

فيلا باداقون : تتكون من أكثر من ٢٠٠ فيلا مستقلة لكل منها حديقة، وفى كل منها يمكن التمتع بالبحر، وهذه الفيلات مشيدة بأساليب معمارية مختلفة، ومنها فيلات على الطراز المعمارى الريفى الأوربى والأمريكى رئيسيا، ومنها مبنى هواشى ومبنى قونغتشو بنايتان نموذجيتان.

متاحف وحدائق البحر

يوجد فى تشينغداو مركز العلوم والتكنولوجيا البحرية ومتحف المنتجات البحرية ومتحف المائيات ومتحف القوات البحرية، متحف المائيات بتشينغداو تم بناؤه فى عام ١٩٣٢، وهو أقدم متحف للمائيات فى الصين ، وسوف يبنى بالقرب منه متحف جديد للمائيات.

يسجل متحف القوات البحرية تاريخ القوات البحرية الصينية تقريبا، ويوجد فيه تاريخ الحروب وتاريخ الدبلوماسية للقوات البحرية الصينية ونماذج مختلفة من السفن الحربية والغواصات.

بالإضافة إلى ذلك توجد فيها الحدائق البحرية التالية ذات الخصائص المختلفة:

حديقة جبل شياويوى: توجد فى جبالها غير المرتفعة أشجار كثيفة، ويمكن التمتع بالمناظر البحرية فى مقصورة لانتشاو، وفيها المشهد المصغر للبنايات القديمة المشهورة فى تشينغداو.

حديقة جزيرة تشينغداو الصغيرة تقع فى داخل خمليج تشينغداو، وتسمى جزيرة تشينداو أيضا لأن شكلها يشابه شكل تشين (اسم لآلة موسيقية)، وتوجد فيها الجروف الفريدة من نوعها والسمراء اللون، وهى من خصائص تشينغداو، وتوجد فيها المنارة البيضاء، وهى رمز هام لدخول السفن إلى خليج جياوتشو وخروجها، وستشينيويبياودنغس (منارة فى جزيرة تشينداو) من أشهر المناظر والمشاهد العشرة فى تشينغداو.

حديقة جسر تشانتشياو جسر تشانتشياو رمز لتشينغداو، بدأ بناؤه فى ١٨٩١، ويبلغ إجمالى طوله ٤٤٠ مترا، وهو أشهر موقع سياحى لتشينغداو.

شـواطىء السباحة

فى تشينغداو عدد كبير من شواطئ السباحة، ويقع الأول فى خليج هويتشيوان وبجانب متحف المائيات، والثانى فى باداقون، ومناظره جميلة ونوعية مياهه صافية وهادئة، والسادس فى غرب جسر تشانتشياو، وهو شاطئ سباحة مشهور.

مهرجان البحر

تشينغداو لها كل سمات المدينة الساحلية بفضل موقعها الجغرافى، وفى الوقت نفسه بفضل اتساع أفق وبعد نظر قادتها ودليلنا على هذا مهرجان البحر

الذى يقام فيها فى يوليو كل سنة . كان مهرجان البحر هذا العام مفعما بالنشاط والحيوية لأن هذه المدينة سوف تستضيف سباق السفن الشراعية فى دورة الألعاب الأولمبية التى ستقام فى بكين عام ٢٠٠٨.

هدف مهرجان البحر العام الحالى هو تطوير الاقتصاد البحرى ودفع تنمية الصناعات البحرية وخلال فترة مهرجان البحر أقيم المنتدى الدولى لتطوير العلوم والتكنولوجيا والاقتصاد البحرى، وقد أصبح هذا المنتدى الدولى أعلى درجة وأوسع تأثيرا فى مجال البحث العلمى البحرى فى الصين بسبب تفوق تشينغداو من حيث البحث العلمى البحرى وخصائصها من حيث الاقتصاد البحرى. اشترك فيه أكثر من ٣٠٠ مندوب مثل رئيس الأكاديمية الصينية للهندسة و٣١ أكاديميا من الأكاديمية الصينية للعلوم والأكاديمية الصينية للهندسة وأربعة من الحاصلين على جائزة نوبل فى الكيمياء ... الخ، وفى الوقت نفسه أقيمت فيها الدورة الأولى لمعرض الملاحة الصينى الدولى.

إن البحر، كما يقول تشو جيا بين نائب عمدة مدينة تشينغداو، هو لغة مشتركة فى التبادل بين دولة وأخرى، وشرط للتبادل والتطور المتبادل بين الدول المختلفة، وتشينغداو لديها هذا الشرط، ولذلك لديها أساس لتطورها، ويأمل أبناؤها أن يتطور اقتصادها البحرى تطورا سريعا ليثير الانتباه مثلما يعرف الناس سياحة تشينغداو معرفة جيدة.

التبرك والسعادة

رسوم البركة :

القراءة الواعية للرموز والزخارف المرسومة على الأدوات والأعمال الفنية الصينية تقربك من فهم كيف كان يفكر الصينيون القدماء وكيف كانت طبيعتهم النفسية وعاداتهم الفلكلورية . فعلى أدوات الأكل والشرب البرونزية فى فترة

أسرة شانغ كانت ترسم صورة لحيوان مخيف شره أسموه "هاو تشن"، تتنبيها للناس ليعتدلوا فى مأكلهم ومشربهم.

من أبرز رموز الثقافة الصينية التقليدية رسوم عيد رأس السنة القمرية الجديدة والورق المقصوص فهما الأكثر تعبيرا عن الطبيعة الفلكلورية لهذا الشعب والحقيقة أن رسوم السنة القمرية الجديدة هى تطوير لرسم إله الباب فى قديم الزمان، وقد نشأ رسم إله الباب استجابة لحاجة نفسية لدى أبناء الشعب فى طرد الأشرار وإبعاد المصائب. ثم ارتبط رسم إله الباب بنشاطات الأعياد.

وفى فترة أسرتى مينغ وتشينغ ، بات تميمة لطلب السعادة والبركة فى رأس السنة، القمرية طبعا، تكتظ أسواق الريف وشوارع المدن برسوم السنة الجديدة،

كما أنها من أقدم الملصقات فى مناسبات الأعياد والزواج والولادة وتقديم الاحترام للآلهة، لزيادة البهجة والفرح فى هذه الرسم ترى أشكالا يعتقد الصينيون أنها تجلب البركة وشخصيات من القصص والأساطير، تعبيرا عن فهم الناس للحياة وتمنياتهم.

من أشهر هذه الرسوم لوحة "الزراعة والنسج"، و"الاحتفال بالحصاد الوافر" اللتان تعكسان آمال أبناء الشعب فى المناطق الزراعية، ولوحة "إله العمر المديد" و"مائة طفل" اللتان تعبران عن التمنيات بالصحة والعمر المديد، ولوحة "البر" و"سعادة جمع شمل العائلة" اللتان تعبران عن الأمنيات بحياة أسرية، واللوحات حول الشخصيات التاريخية وقصص من المسرحيات ترتقى بالوجدان.

والورق المقصوص حكاية صينية أخرى . فالورق المقصوص الذى يلصق على نوافذ البيوت لا يكون للزينة فقد وإنما لزيادة الفرح والسعادة يضع الصينيون الورق المقصوص على الهدايا وجهاز العروسين فى مناسبات الزواج

والولادة والانتقال إلى بيوت جديدة والتهنئة بعيد الميلاد، ويسمون هذا الورق "زهور السعادة" .

فى الريف، تقص العروس بنفسها "زهور السعادة" التى تستخدم فى حفل الزفاف، تعبيرا عن سعادتها، وهى فى ذلك تركز على استخدام كلمات ترمز إلى البركة وأشكال تعبر عن الحب والزواج إضافة إلى ذلك، يستخدم الصينيون الورق المقصوص دائما لطرد الشر وطلب السعادة وزخرفة البيت.

كما أنه نموذج للتطريز. جملة القول، الورق المقصوص ورسوم رأس السنة الجديدة يتشابهان فى الموضوع والمعنى.

السعادة فى الدنيا

رموز البركة :

قبل ألفى عام أو يزيد، قال الصينيون إن للسعادة خمسة تجليات هى العمر المديد، والثراء، والصحة والاستقرار، والأخلاق الحميدة، والوفاة. ولكنهم بعد ذلك غيروا رأيهم وقالوا إن السعادة هي العمر المديد والثراء والكرم، أو أن أعظم سعادة هى عدم وجود مصيبة. على أى حال الكل يتمنى السعادة أيا كان معناها بيد أن الرغبة فى الإنجاب والعمر المديد كانت قمة السعادة للصينيين.

مؤسسة الأسرة مكون هام فى حياة الصينيين وقد انعكس ذلك فى عنايتهم بالانسجام الأسرى وكثرة الأبناء. ،كان الشيئان البارزان فى عادات الزواج القديمة، هما التمنى للعروسين أن يعيشا حياة سعيدة إلى أن يشيب شعرهما، وأن ينجبا الأبناء مبكرا.

وقد ظهرت عادات وأشياء البركة التى تعبر عن هذا المعنى مثلا ، يدخل العريس والعروس عش الزواج يدا بيد وهما يجران "عقدة القلبين المتحدى المركز المصنوعة من الحرير الأحمر يدا بيد أيضا، يقص كل منهما خصلة من شعره ليصنعا بها عقدة قلبين لهما مركز واحد.

وقالوا عن هذا "عقد الشعر". وفى منقولات عش الزوجية، صورة لزهور الفوانيا والطيور ذات الرؤوس البيضاء، لماذا؟! لأن الطيور ذات الرؤوس البيضاء ترمز إلى الرغبة فى مشاركة الحياة معا حتى يشيب الشعر.

وزهور الفوانيا ترمز إلى الثراء والكرم. من بين رسوم رأس السنة الجديدة لوحة لطفلين مبتسمين يحمل أحدهما زهرة اللوتس، ويحمل الآخر علبة مستديرة، والأمر هنا له علاقة باللغة أكثر فكلمتى زهرة وعلبة فى لغة الصينين

نطقهما مثل نطق كلمة الالتئام والوئام، المعنى هنا هو أن يعيش الزوجان معا فى سعادة ووئام.

كانت هناك عادات كثيرة حول التمنى بكثرة السعادة وكثرة الإنجاب، من ذلك نشر ثمار العناب والفول السودانى وقواپيوان المجففة وبذور اللوتس وأبو فرو على سرير العروسين، كل هذا تمنيا أن ينجبا بأسرع وقت ممكن، وهذا أيضا له علاقة باللغة. حاليا قليلون أولئك الذين يعتقدون بأن كثرة السعادة فى كثرة الأبناء، غير أن هذه العادة ماتزال باقية فى بعض المناطق الريفية، فى المدن ينشرون قصاصات الورق الملون والأشرطة الملونة على رأسى العروسين.

ويهتم الصينيون بعيد ميلاد الفرد، ولكن لماذا ؟! تعبيرا عن تمنياتهم فى عمر مديد تنتشر بين أبناء الشعب كثير من الأشياء التى ترمز إلى البركة وقصص تهنئة الآلهة بعيد الميلاد. وقد صمم الناس أشكالا مختلفة لكلمة "العمر" الصينية لتطبع على الورق أو ترسم على الأدوات، واخترعوا صورة إله العمر المديد الذى يبتسم حاملا فى يده خوخة العمر المديد.

اهتمام الصينين بعيد الميلاد يعكس أيضا احترامهم للمسنين. فى الزمن القديم، كان الفرد إذا تجاوز الستين عدوه من المعمرين، فلابد من الاحتفال بعيد الميلاد الستين، الذى يسمى الاحتفال بالعمر المديد، بينما يسمى الاحتفال بعيد الميلاد قبل الستين "قضاء عيد الميلاد". هناك من يحتفل بالعمر المديد فى عيد ميلاده الخمسين.

كان هذا الاحتفال التقليدى مختلفا حسب الحالة الاقتصادية والمكانة الاجتماعية. عند الاحتفال بعيد ميلاد المسن، كانت تقام قاعة للعمر الطويل دائما، تضاء شموع العمر الطويل، وتعلق زهور العمر الطويل الحريرية.

وتعلق كلمة "العمر" فى وسط القاعة، بينما تعلق لافتتان للعمر الطويل على

جانبى هذه الكلمة، مكتوب عليهما عبارتان للعمر الطويل مثل "السعادة الكثيرة مثل مياه البحر الشرقى المتدفقة، العمر الطويل مثل أشجار الصنوبر التى لا تهرم فى الجبل الجنوبى". فى هذا الاحتفال يأتى الضيوف بهدايا العمر المديد مثل خوخ العمر المديد وستار العمر المديد ولافتة العمر المديد.

من بين أساليب طلب السعادة والبركة، تتميز الكلمات الصينية بجاذبية خاصة . مثلا، فى اللغة الصينية نطق كلمة الوطواط مثل نطق السعادة، لذلك يرمز الوطواط إلى السعادة، ونطق الآيل مثل نطق المنصب، فهو رمز للمناصب الحكومية . من عادات عيد الربيع أن تكتب كلمة "السعادة" الصينية على ورقة مربعة، لتصلق على جدار البيت أو على الأدوات والمفروشات فى البيت رمز للبركة والسعادة .

هناك من يلصقها مقلوبة رمزا إلى وصول السعادة والبركة إلى البيت. عند الزواج دائما تكتب كلمة "الفرح" أو "السعادة" مزدوجة على ورق أحمر لتلصق على النافذة أو الباب أو الأثاث، رمزا إلى وصول السعادة المزدوجة إلى البيت.

والصينيون يستخدمومن اللون الأحمر للتعبير عن السعادة والفرح، فيعلقون الفوانيس وأبيات الشعر المزدوجة الحمراء فى الأعياد والزواج وافتتاح الشركات الخ. اللون الأحمر رمز للفرح والكرم، مثلا، كان يسمون أبواب بيوت المسؤولين الكبار "الأبواب الحمراء" فى الزمن القديم، كما استخدم اللون الأحمر كثيرا فى بنايات القصور الإمبراطورية. اللون الأصفر من الألوان التى ترمز إلى البركة أيضا، كان رمزا للكرم والقداسة والسلطة والمهابة فى الزمن القديم، فاحتكر الأباطرة استخدامه، لذلك كانت أزياء الأباطرة باللون الأصفر، وسقوف القصور الإمبراطورية لفترة أسرتى مينغ وتشينغ كلها صفراء.

اليوم ، لا يزال الصينيون يهتمون بالعلاقات الأسرية والنسب، غير أن عدد الذين يعتقدون أن السعادة تكمن فى كثرة الإنجاب بات قليلا.

رموز البركة التقليدية لاتزال تزين حياتهم ، تغير معناها التقليدى ، أصبح ضعيفا أو تبدل. كلمات حلت أيام الأعياء، لايزال الصينيون يعلقون الفوانيس والزمور الحريرية ويقصون رقصة الأسد والتنين، ويستخدمون أساليب حديثة أخرى اليوم، كل الصينيين، أيا كانوا يكتبون بالكمبيوتر أو بالريشة الصينية، يشربون الشاى أو القهوة، يتمتعون بالأوبرات الصينية أو بالموسيقى الحديثة، يشتغلون محامين أو تجارا، يعيشون فى المدن أو الأرياف. كل منهم له لونه المفضل، ويمكن لكل منهم أن يختار أسلوب حياته، ويمتلك مزيدا من الوعى الحديث

لكن تقاليد الثقافة الصينية، لا تزال متواصلة تتوارثها الأجيال . لذلك يحمل كل صينى، أيا كان بصمات الثقافة الصينية التقليدية التى يصعب محوها.

الفصل العاشر:

وجبات مشتركة

بين مصر ودول الخليج[1]

عادات الشعوب الغذائية تنبع من الحاجة .. ومن الطبيعة.. وتخضع للظروف الاقتصادية والاجتماعية، والمهنية. والغريب أن هناك عادات غذائية تتشابه بين أماكن تفصل بينها آلاف الأميال. ولا نعرف هل كانت هناك وسائل اتصال منذ الزمن الغابر، أم هى توارد خواطر.

مثلا وجبة الأرز بالسمك المدفونة.. أى يطبخ الأرز ويسلق السمك منفرداً، ثم يضاف إلى حلة الأرز.. وتضاف عليهما التوابل والبهارات لإكساب الوجبة طعماً مميزاً. ويقدم مخلوطاً.

هذه الوجبة تؤكل فى القرى المحيطة، أو المنتشرة فوق الجزر فى بحيرة المنزلة، وبالذات فى المطرية. وأفضلها ما يعد مع البصل. ويمكن أن يظل الأرز بلونه الأبيض أو يتحول إلى أرز أحمر «صيادية». وأفضل الأسماك هنا - فى هذه الوجبة : القراميط والحنشان وقشر البيأض. أى الأسماك النيلية ما أمكن. ويلاحظ أنها أسماك كثيرة اللحم والدسم.. قليلة العظم والشوك. حتى يسهل تناولها بلا متاعب.

ويلاحظ أيضاً أن كل المطلوب وعاء واحد، أى حلة واحدة لأن المصرى يعدها وهو فى قاربه الذى يصطاد فيه.. وربما ليعيش فيه أيضاً. وهو فى هذه الحالة لا يريد أن يكلف نفسه شيئاً.

ونفس وجبة الأرز المخلوط بالسمك موجودة فى دول الخليج سواء منذ عصر ما قبل البترول .. أو فى عصر الوفرة البترولية.

---

(١) أ. عباس الطرابيلى - عجائب الأسفار وغرائب الأطباق . مجلة الأسرة.

وأفضل الأسماك التى تطبخ مخلوطة بالأرز فى الخليج العربى من الكويت شمالاً على قمة الخليج إلى مضيق هرمز جنوباً هى أسماك «الكنعد» وهى نوع من أسماك التونة كبيرة الحجم قليلة العظام أيضا وهى تسلق ثم تنزع من ماء السليق وتضاف إلى وعاء طبخ الأرز ولكن أفضل الأسماك التى تضاف للأرز هنا هى أسماك «الهامور» كما يطلق عليها فى الخليج العربى .. وهى أقرب ما تكون إلى سمك الوقار فى مصر.. وطبعاً مطلوب إضافة التوابل والبهارات إلى هذا الخليط مع البصل.. ترى ماهى العلاقة بين الكبسة المعروفة فى المطرية دقهلية .. والمدفونة فى إمارات الخليج العربى ؟!

وإذا كان المصرى يعرف صينية السمك بالطماطم والبقدونس والكرفس والبصل وحلقات أو شرائح الليمون.. فإن أبناء الخليج العربى يعرفون وجبة شبيهة تماماً .. فالمصرى يفضل لهذه الصينية إما الحنشان «تعابين البحر» وهذه أفضلها. أو البلطى الكبير. ولكن أسماك «الشيلان» لها طعم خاص لأن لحمها مثل الزبدة !!

أما ابن الخليج العربى فيفضل «الصالونة» وهى عبارة عن حلة صلصة بالتوابل والبهارات مع نوع من الخضر مقطعة إلى قطع صغيرة . ثم يضاف إليها قطع من السمك بعد نصف سلقها وتقدم الصالونة هذه مثل «الغموس» إذ ترش على الأرز وبالهناء والشفاء.

وإذا كان المصرى قد عرف «التمليح» وسيلة لحفظ السمك ويأكله على شكل فسيخ وأفضله البورى والجرانة والسهيلية ومنه الملوحة والسردين. فإن ابن الخليج العربى عرف وسيلة الحفظ بالتمليح.. أو التجفيف

فهو يقطع رؤوس سمك الكنعد مثلا وينظف السمكة ويشقها إلى نصفين ثم يجففها على أعواد الخشب أو الحبال، تماما كما يجفف سمك القرش. كما أنه يمكنه حفظها بالتمليح، وهذا وذاك : التجفيف والتمليح يسمحان للبدو

والسكان فى المناطق الداخية البعيدة عن الشواطئ بالاستمتاع بتناول هذه الأسماك.

وفى الخليج حرفة قديمة مازالت سائدة هى تجفيف أسراب السردين الذى يتواجد بكثرة ويطلقون عليه اسم «العومة» فهم ينثرونه فوق رمال الشاطئ حتى يجف سواء فى الخليج العربى .. أو على شاطئ خليج عُمان وبحر العرب. وكما وجدت هذه الصناعة مزدهرة فى إمارات عجمان وأم القوين ورأس الخيمة على الخليج العربى .. وجدتها أيضا فى شواطئ عمان وبالذات فى صلالة عاصمة ولاية ظفار فى الطرف الجنوبى الغربى سلطنة عُمان.

والسردين المجفف أو العومة يأكلها البدوى.. بعد فكها بالماء أو يستخدمها كسماد للأرض الزراعية.

ولكن يبقى لابن بحيرة المنزلة أنه يأكل الأرز والعدس الأصفر المختلط، ويستخدم البلطى المشوى «الشبار» كغموس وأحياناً يستخدم التمر الحجازى مع وجبة الأرز بالعدس.

البريمو .. فى المطبخ اللبنانى

إذا تجولنا بين المطابخ العربية بحثاً عن الطعام الأمثل، فإننا نجد المطبخ اللبنانى يتصدر المطابخ الشامية : سوريا ولبنان والأردن وفلسطين.

والمطبخ اللبنانى يجمع بين العراقة المزدوجة العربية التركية المشهورة بدسامتها ومسبكاتها ولحومها ومشوياتها . وبين المائدة الفرنسية المشهورة بتنوعها ورقتها، ومقبلاتها .. أى سلطاتها.

والمطبخ اللبنانى يعتمد على «المشاوى» أى اللحوم المشوية سواء الحمراء، خصوصا لحم الضأن أى الغنم، سواء على شكل الشيش كباب والكفتة. أما الأفضل عندهم فهو «الفروج المشوى» أى الدجاج المشوى : المخلى من العظام

.. أو الكامل وقد برع المطبخ اللبنانى فى تجهيز هذا «الفروج» وتتبيله بالتوابل والبهارات.

ولكن أفضل ما يقدمه هذا المطبخ هو السلطات أو السلاطات أو المقبلات. فهم يقدمون ٤٨ طبقاً من هذه السلاطات، تبدأ بالسلطة الخضراء المشكلة التى تعتمد على شرائح الطماطم والخيار والفجل الأحمر والنعناع والبصل الأخضر والخس .. وأنواع الطرشى «المخلل» مع أطباص محشى ورق العنب على البخار. كثير اللحم المفروم قليل الأرز. وشرائح لسان الغنم والبقر. والكوارع الضانى الصغيرة. ولسان العصفور والحمص وبابا غنوج والطحينة وأنواع الزيتون والجبن المختلفة والمش والجبنة .. والزبادى بالثوم .. و .. و .. و..

ثم يتوسط هذه الأطباق المتعددة قارب «التبولة». فهى ملكة السلاطات اللبنانية وتصنع من قطع صغيرة من الطماطم والخيار والبصل الأخضر والبقدونس والكسبرة والكرفس بكميات كبيرة مع النعناع الأخضر والبرغل.. ثم كميات هائلة من الليمون وزيت الزيتون وكل هذا يجمل بعيدان من قلب الخس وعيدان النعناع وحبات الفجل الأحمر .. أما طبق الفتوش فله طعم خاص ومذاق آخر !!

والمطعم اللبنانى لا يهتم كثيراً بالأرز، على عكس المطبخ البدوى أو السورى أو الخليجى. ولكنه يستبدله بالخبز الشامى الشهير. وإذا كان المطبخ السورى والتركى يهتمان بالمحاشى «الضلمة» من كوسة وباذنجان وطماطم.. ويكثر من اللحم الضانى فى الصلصة إلا أن سمة المطبخ اللبنانى هى المشويات. ولأن اللبنانى خير من يأكل من العرب، ويطيل الجلوس إلى مائدة الطعام، وتلك أخذها عن المطبخ الفرنسى، فإن هذا المطعم يقدم مع المشويات «اللبن الرايب» المضاف إليه الملح والثوم. وهو شراب مهضم للغاية.. ويقدم فى دورق كبير يتوسط المائدة .. وكلما شربت تفتحت الشهية وأكلت أكثر .. لتدفع أكثر!!

وفى جبل لبنان حيث أشجار الأرز ووادى الباروك يقدمون لك ما تختار من الأسماك الطازجة. تختار من الأحواض ما تشاء ليتم تجهيزه وتقديمه خلال التهامك لأطباق المقبلات أو المزات.

وفى لبنان أيضاً لا يهتمون كثيراً بالحلو المطبوخ. لأنهم يفضلون عليه الفواكه الطازجة بسبب انتشار هذه الفواكه من عنب متنوع الأشكال والألوان. إلى كريز وبرقوق أحمر فاتح وآخر قاتم وأصفر وأخضر. وكمثرى «انجاص» وأنواع التفاح بكل ألوانه. والحمضيات خصوصا اليوسفى الخالى من البذر ويطلقون عليه اسم : كلمنتينا وحباته صغيرة الحجم ولكنها لذيذة الطعم مركزة السكر لها نكهة لن تنساها أبداً.

أما «البوظة» أى الجيلاتى والآيس كريم فهم سادة فى صنعها وفى تجميلها بمبشور المكسرات وتقديمها طعاماً هنيئا للآكلين.

واللبنانيون أخذوا عن الأرمن الذين لجأوا إليهم خلال فترات القهر العثمانى لهم، صنع اللحوم الجاهزة مثل البسطرمة واللانشون، واللحوم المثلجة من الدجاج والرومى.

وإذا كانت مصر مشهورة بساندويتشات الفول والطعمية فإن لبنان ماهرة فى صنع ساندويتشات الشاورمة. وإذا كانت فى مصر بين كل مطعم فول ومطعم نجد مطعما آخر.. فإن نواحى الشوارع فى لبنان مشغولة تماماً «بنصبة» وعيدان الشاورمة.

المقلوبة والمكبوسة

والبوظة الشامية

المطبخ البدوى والمطبخ السورى متشابهان. لحوم الضأن هى الأساس، ولا تجد لحم البقر إلا قليلاً. وإذا كان المطبخ اللبنانى يمتاز بالتنوع بحكم انفتاحه على البحر والمطابخ الأخرى فى حوض البحر المتوسط.. إلا أن المطبخ البدوى ونظيره السورى لا يعرف هذا التنوع.. ولكن يمتاز بالتركيز، مع الإجادة.

وبحكم الامتداد الصحراوى - بعيداً عن غوطة دمشق نجد «المقلوبة» هى سيدة الموقف. وهى تصنع من نوع خاص من الخبز يوضع فى قارب كبير طبقات فوق بعضها. ثم كمية من الأرز الأبيض المطبوخ. وفوق كل هذا يزين الطبق الكبير أو القارب بكتل كبيرة من اللحم. أى على رأى المصريين «هُبر اللحم» المسلوق ثم كميات من اللوز والصنوبر وكل هذا غارق أو مشبع فى الشوربة. وتمتد الأصابع الماهرة بحثاً عن أطيب أجزاء اللحم. تطبيقاً للقول المأثور: أفضل اللحم ما جاور العظم!! ويمكن أن يقدم مع هذا اللبن الزبادى.

أما «المكبوس» فيصنع من الأرز وقطع الباذنجان فقط مع كتل لحم الضأن الدسم. ولابد أن يقدم معه الزبادى لتخفيف حدة الدسامة.. والمطبخ السورى والبدوى مغرم بالزبادى يقدمه مع المشويات.. كما يقدمه مع محشى الكوسة ومحشى ورق العنب. بل يضاف إلى الذبيحة خلال الطهى لتضيف إليها نكهة خاصة.

والأرز بالخلطة .. والكزبرية وجبة سورية بدوية ١٠٠٪ ربما بسبب توفر المكسرات. وأفضله ما كان لونه مائلاً إلى البنى الخفيف أو الأصفر الداكن. والخلطة تصنع من الكبد والقوانص والقلوب مخلوطة بالمكسرات وبالذات الصنوبرواللوز.

وإذا كان المطبخ السورى قد تأثر بالمطبخ التركى وأخذ عنه إجادة صنع وتقديم «الضلمة» أى المحاشى الغارقة فى دسم لحم الضأن، إلا أن المطبخ السورى والبدوى أيضاً عرف «الكبة» وتقدم محمرة أو مقلية.. وهناك من يعشقها «نية» أى غير محمرة !! والكبة قطع من اللحم تتعرض لعمليات ضرب وتعذيب ودق مع إضافة البرغل إليها وعصير البصل والتوابل، وتوضع فى صينية مدهونة بالسمن وتدخل الفرن ثم تقطع.. أو تقدم دون طهوها لمن يرغب. وهى عندهم .. تماماً كما يفضل بعضهم فى مصر التهام شرائح الكبدة الطازجة بعد إضافة عصير الليمون عليها فقط !! ويقولون إن سر الوجوه النضرة فى سوريا والأردن ولبنان يكمن فى تناول هذه «الكبة النية» التى لم تعرف النيران !!

وندخل إلى عالم الحلويات الشامية الشهيرة . من بقلاوة وكنافة بأنواعها وبغاشة. ولقمة القاضى. وعيش السراية وبلح الشام. ومن لم يتناول الحلويات الشامية فى مهدها.. فهو لم يدخل المطبخ أو المطعم السورى أو اللبنانى. وبعد كل هذا مطلوب منك أن تتبع هذا بالبوظة الشامية المعهودة أى الآيس كريم وهى ليست كالبوظة المصرية « شفا.. وخمير» يسكر ويسطل.

وبعد أن تأكل كل هذا عليك بالاستماع لنقيب مطربى سوريا ابن حلب الشهباء : صباح فخرى فى قدوده الحلبية وياعينى.. على مال الشام !

تركيا سيدة المطابخ

والمسجوف على ضفاف دجلة

حديثنا الآن عن المطبخ التركي .. والمطبخ العراقي ..

إذ بحكم الحضارة التركية والأصول التركية القادمة من الصحارى والبوادى . بل إن النشأة الحقيقية للأتراك كانت فى آسيا الصغرى أى شبه جزيرة الأناضول حيث تجود وتكثر الأغنام والماعز. ومن هنا يدخل هذا اللحم فى كل الأطباق التركية. وليس سراً أن الأتراك هم الذين صنعوا الكباب والكفتة لأول مرة .. كما أنهم يغرقون أطباق الخضر عندهم بهذا اللحم الدسم.

وفى زياراتى لتركيا -وبالذات فى استانبول واسمها الأول اسلام بول أى أرض الإسلام- وفى الحى الآسيوى من هذه المدينة التى حكمت أكبر امبراطورية عرفها التاريخ - كنت أفضل تناول طعامى فى المطاعم الشعبية. فكنت أدخل المطعم فأنتقى أنواعاً من «الضلمة» وهى ليست مقصورة على محشى ورق العنب، كما يفهم البعض.. بل تمتد إلى محشى الفلفل الرومى .. ومحشى الباذنجان ومحشى الطماطم. وكله غارق فى الدسم السايح.

والأتراك أيضا هم أصحاب طبق «التورللى» أى الخضر المشكلة : كوسة باذنجان. بطاطس. فاصوليا خضراء وبامية. وربما كان الأصل فيها أن هذا المطبخ كان يجمع بقايا الوجبات فيعيد تسخينها وتقديمها من جديد على هيئة : طبق مشكل من الخضر وأيضا تتوسط «هُبر» اللحم الضأن.

وهذا يذكرنى بطبق «البهية» أو «البجية» أى البقية الذى أعشقه وأبحث عنه كلما ذهبت إلى أسبانيا. وواضح من الكلمة أن أصلها عربى. أى بواقى الطعام. وكانت تجمع ليعاد إعدادها وتقديمها بعد إضافة الكركم والتوابل، وفى مقدمتها القرفة والقرنفل والدار صينى والزعتر والزعفران.

وفى طبق البقية أو البهية نجد قطع الدجاج، أو قطع اللحم وقطع السمك والجمبرى، وقطع البطاطس .. مع بلح البحر والأصداف، كل هذا وسط طبق الأرز الأصفر. والأسبان مازالوا يقدمون هذا الطبق الذى تجمع فيه ست البيت بقايا الطعام على مدى الأسبوع، وتقدمه يومى السبت والأحد.. فقط وهو بالمناسبة طبق مشبع للغاية وتقدمه المطاعم الآن فى ساعة واحدة يختفى بعدها!!

وفى جولاتى فى وسط وشرق أوربا عندما تهفو نفسى لوجبة دسمة، كنت أبحث عن المطاعم ذات الأصل التركى. أفعل هذا دائماً فى فيينا. وفى درسدن، جنوب شرق ألمانيا. وفى ليوبليانا على شاطئ بحر الأدرياتيك فى يوغسلافيا السابقة. وفى صوفيا.

ومن لم يأكل السمك المسجوف على ضفاف دجلة والفرات فكأنه لم يزر العراق !! وتمتد مطاعم السمك على طول شارع أبى نواس. وأمام كل مطعم من ناحية النهر يأتى الصياديون بقواربهم فيعلقون فى أعمدة خاصة مغروسة فى النهر شباكهم التى تحوى السمك طازجاً حياً. فيرفعه العمال إلى أحواض خاصة فى واجهة المطعم. وتظل تسبح فيها إلى أن يختار «الأكيلة» ما يشاءون حيث يتم تجهيز السمك وتنظيفه ووضعه حول حلقات النار ليتم إنضاجه ويقدم ساخنا مع السلطات والطرشى .

وكان سعر هذه الوجبة لا يزيد على خمسة دنانير ثم ظل السعر يلتهب حتى وصل إلى ١٠ ثم ٢٠ثم ٣٠ ديناراً حسب حجم السمكة ووزنها. وبالمناسبة فإن معظم العمال الذين يعملون فى مطاعم شارع «أبو نواس».. من المصريين!!

وفى العراق يبرعون فى تقديم طائر «السمان» مشوياً.. كما يقدمون «المن والسلو» وهما نوعان من الحلوى التى برع فى صنعها أهل العراق.

ولكن يظل طعم ونكهة سمك المسقوف أى المسجوف فى فمى.. حتى الآن!!.

وجبة من الحوت

على شاطئ الأطلنطى

عشقى بلا حدود للوجبات البحرية من أسماك وأصداف ورخويات وقرشيات ليس لأننى فقط «ابن بحر وابن نهر» أى من دمياط حيث البحر والبحيرة والنهر : البحر هو المتوسط. والبحيرة هى المنزلة كبرى بحيرات مصر. والنهر هو النيل سيد أنهار الدنيا وأطولها وأعذبها ماءً.. ليس لأننى هكذا فقط بل لأن الأغذية البحرية لا يوجد ما يفوقها فى قيمتها الغذائية، فضلا عن طعمها اللذيذ والتنوع الكبير فى أصنافها وطرق تقديمها. وليس غريبا أننى إذا لم أتناول الأسماك ثمان وجبات أسبوعياً.. فإننى أشعر بالجوع فأنا لا أشبع إلا من السمك.

ولا أتلذذ إلا بالأغذية البحرية. وربما لهذا السبب أحرص على زيارة سوق السمك فى أى مدينة أنزل بها فى الشرق أو الغرب. فى آسيا أو أفريقيا.. فى أوربا أو أمريكا.

كنت مرة فى مدينة العيون عام ١٩٧٩ عاصمة إقليم الصحراء الغربية المتنازع عليها بين السلطة الشرعية الممثلة فى المملكة المغربية .. وبين الثوار الذين يطالبون لهذا الإقليم (٧٥ ألف نسمة) بالاستقلال وهم ثوار البوليساريو ويمثلون : الجمهورية الصحراوية الديمقراطية الاشتراكية الشعبية !!

وبعد جولة سريعة فى المدينة التى كانت مقراً للحاكم العام الأسبانى خلال احتلال الأسبان لها وهم الذين ضموا الإقليم، وكان اسمه «ريو دى أورو» أى أرض الذهب والساقية الحمراء، وكان لهذا الإقليم ممثلون فى البرلمان الأسبانى خلال عهد الاحتلال، إذ كانت أسبانيا تعتبره قطعة من أسبانيا. تماما كما تعتبر مدينتا سبتة ومليلة المغربيتان جزءاً من أسبانيا.

المهم عدت إلى الفندق الذى كنت أقيم فيه وقد بناه الأسبان وأطلقوا عليه اسم «لابرادور» أى الفندق الذهبى وهو قطعة من المعمار الأندلسى الأسبانى المغربى.

ودخلت المطعم بعد جولة شاقة فى الصحراء، وبعد لقاء مع قيادات القبائل الصحراوية. والتقطت حواسى رائحة لا أخطئها .. كانت توحى بأن طعاماً بحرياً ما يجرى إعداده.. وهتفت بمرافقى المغربى : أريد من هذا؟ ولم يفهم مرافقى شيئاً.. قلت هل تشم هذه الرائحة؟.. ولم يجب بل طلب من مشرف المطعم أن يجيب. قال : هذا حوت. قلت : علىّ به !!

وخلعت «الدراعة» التى كنت أرتديها. وهى اللباس الشعبى القومى لسكان جنوب الصحراء الكبرى : جنوب المغرب. مُوريتانيا. تشاد. السنغال. شمال نيجيريا. النيجر. وهى نوع من الجلباب الفضفاض المصنوع من القطن والتيل. طول الأكمام واسع الأجناب. ولابد من لباس الرأس الذى يحميه من العواصف الرملية فى الصحراء.

واغتسلت. وجلست أنتظر وجبة من الحوت !! ولم أستغرب ذلك فنحن -فى مدينة العيون - على ساحل المحيط الأطلنطى الجنوبى.

وأتى «النادل» أى السفرجى بالخبز والسلطات فلم أقربها. كنت فى شوق للحم الحوت . وسال لعابى، وبلعته مرات ومرات ورائحته تملأ كل حواسى. وأتى الطعام وصدمت كأننى لم أصدم صدمة مثلها طوال حياتى.كان « كل الطعام» عبارة عن ٣ سمكات هزيلة فى حجم البلطى متوسط الحجم مقلية فى زيت الزيتون وفوق كل سمكة شريحة ليمون. طيبت خاطرى ظنا منى أن هذا الطبق هو المقبلات. فأكلتها سريعاً.

كانت لذيذة فعلاً. ولكنها لا تشبع. وانتظرت الطبق الرئيسى : طبق

الحوت. ولكن «ضاع نقبى على شونة» على رأى المثل. إذ بعد دقائق عاد الجرسون ليسأل : وماذا عن الحلو؟ قلت : هل تقدمون الحلو قبل الطبق الرئيسى ؟..

ولكنه صدمنى عندما قال : لقد قدمنا لك الطبق الرئيسى.. طبق الحوت !! وفهمت سريعاً أنهم على الشاطئ الشرقى لجنوب المحيط الأطلنطى يطلقون على السمك.. أى سمك : اسم الحوت. وكان مقلبا شربته ، ولم أتناوله !! أقصد لم أشبع منه.

إكرام الضيف : بين ذبح النخلة وشراب النارجيل

إكرام الضيف عملية تختلف من بلد إلى آخر. ولها طقوس وعادات.

ففى واحات مصر. وفى الصحراء نجد أن النخلة هى أفضل ما يملكه البدوى. وإذا كان حاتم الطائى – أشهر وأكرم العرب – عندما لم يجد شيئا يقدمه للضيف قد ذبح أغلى ما عنده وأغلى ما يملكه البدوى، حصانه.. أو فرسه. فإن المصرى ابن الواحات عندما يريد أن يكرم ضيفاً كبيراً لا يجد عنده أفضل من النخلة.. ولهذا نجده يذبح للضيف نخلة .. يذبحها ليقدم للضيف قلب هذه النخلة. الجمار الذى يوجد فى قلب النخلة أو العمود الفقرى والنخاع الشوكى.. مع الفارق وبمجرد ذبح النخلة تنتهى حياتها.. رغم ما للنخيل من قيمة وتقديس عند البدوى وابن الصحراء.

وفى المغرب نجد العودة إلى الأصول العربية عند إكرام الضيف الوافد. فليس هناك أفضل من حليب الناقة وحبات التمور لاستقبال الضيف الكريم. وهذه العادة العربية نجدها عندما يستقب العاهل المغربى الملك ضيوفه نجد هناك من يحمل الحليب والتمر كرمز لتكريم الضيف والترحيب به.

وعندما كنت أحاور ثوار البوليساريو فى مواقعهم المختلفة من الصحراء الغربية سواء فى معسكراتهم بالقرب من مدينة تندوف الجزائرية الحدودية عام ١٩٧٩ وفى معسكرات تحمل أسماء المدن الصحراوية بالداخل مثل سمارة والساقية نجدهم -بسبب ضيق ذات اليد- يقدمون للضيف مشروباً مصنوعاً من بودرة اللبن المجفف، ثم يضيفون السكر للتحلية !!

فإذا زاد الكرم - وهذا ما حدث لى ومعى مجموعة من صحفيى أمريكا اللاتينية - فقد ذبحوا لنا «معزة» وطبخوا كل شىء فيها حتى الحوافر والمصارين..كل شىء وضعوه فى آنية كبيرة تغوص فى صلصة الطماطم وقليل من الأرز. وهذا كان أفضل ما عندهم.

وإذا أكرمك الشقيق المغربى ودعاك لتناول الطعام فى بيته فإنه يقدم لك فى نهاية الطعام : شرائح من لحم البقر مطبوخة فى عسل النحل !! ويشترط أن تكون قطعة لحم البقر هذه كبيرة وسميكة. ومع شريحة اللحم هذه شرائح من القراصيا المطبوخة بالعسل والسمن وهذه الوجبة تقدم فى ختام حفل العشاء زيادة فى إكرام الضيف الغالى.

وفى مدينة صلالة عاصمة ولاية ظفار فى سلطنة عُمان، حيث المناخ شبه الاستوائى، تنتصب غابات أشجار النارجيل «جوز الهند»! وترتفع من ٤٠-٥٠متراً فأكثر ثم تحتها يزرعون أشجار الفافى أى الباباز، وهى ثمرة حلوة ناتجة عن تهجين أشجار المانجو مع ثمار الشمام وبداخلها بذور سوداء صغيرة.

ولإكرام الضيف فى صلالة ليس هناك أفضل من شراب النارجيل. ولن أنسى ما حييت طعم هذا الشراب ولا طقوس تقديمه لى عندما زرت صلالة عام ١٩٧٥ فقد أسقطوا لى ثمرة جوز هند غير كاملة النضج وبدأوا فى إزالة

الغلاف أو القشرة الخارجية الخضراء ثم أزالوا الجزء العلوى من الثمرة ببطلة كبيرة.. وقدموا الثمرة لى لأشرب ما بها.. ويا ليتنى أعيد الكرة !!

ولكم أن تتخيلوا قلب جوزة الهند هذه قبل أن يكتمل نموها. إذ تكون فى حالة سائل لبنى مقبول السكر لا هو بالغليظ القوام، ولا السائل الخفيف. والغريب أن السائل كان بارداً للغاية.. فقد اسقطوها لتوهم من أعلى الشجرة بهذا الارتفاع الكبير حيث الهواء البارد .. ومازال طعمها فى فمى : بارداً منعشاً لذيذاً مغذياً.. تماما كما أشتاق إلى التهام حبات الباباز.. هذه الثمار أو الفواكه الاستوائية الشهيرة.

السيمون فيميه
ومدفونة الجمبرى بالأرز!

من منا يرفض السيمون فيميه. أو شرائح سمك السالمون المدخن!! التى توزن شرائحه بالذهب، فهى تباع بالجرام. وهو زين الموائد فى العزائم والولائم والحفلات. إليه تسرع الأيدى بعد أن تبحث عنه العيون. ولا ينافسه إلا الجمبرى، أو لحم الأستاكوزا المشوية، أو المقلية. وعندما يكون الحفل غنياً فإن هذا السيمون فيميه يتجاوز تقديمه على شكل شرائح رقيقة.. إلى تقديمه على شكل كتل، أو قطع سميكة.

وإذا كان البعض منا تسحره هذه الشرائح وردية اللون ملحية المذاق، مدخنة الذوق، فإن قلة فقط تلك التى تنعم بسمك السالمون على شكل «هُبر» أى جزل كبيرة وهى مقلية فى الزبد ومحلاة بشرائح من زيتون الكالاماتا اليونانى الذى يحمل اسم المنطقة التى ينمو فيها هذا الزيتون الشهير.. وبجواره شرائح من الليمون وعيدان من الكرفس أو البقدونس الافرنجى.

وسمك السالمون هذا - بهذه الطريقة - شديد الدسم لا تستطيع أن تقاومه حتى ولو كنت تعانى من ارتفاع نسبة الكوليسترول التى تهدد قلبك وصحتك وشرايينك وخير أن أتناول ما أشاء عندما أشاء، حتى ولو مت غداً.. من أن أحيا العمر كله محروماً مما أرى وأشم وأنعم بطعمه !!

المهم أن السالمون المقلى بلونه الوردى ورائحته الذكية لا يرفضه أى ذواقة للطعام. والسالمون -للأسف الشديد- فى مقدمة الأسماك والقشريات والمحاريات الغنية للغاية والتى ترفع نسبة الكوليسترول فى الدم إلى حد الخطر فالسالمون مثل عائلة الجمبرى - ويطلقون عليه فى دول الخليج «الروبيان» وفى لبنان قريدس. وإن كان اسمه القديم هو : جراد البحر !!

وهناك «أم الربيان» وهى أكبر من الجمبرى وأتخن وكمية اللحم فيها مضاعفة وإذا كان الجمبرى السويسى هو أشهر جمبرى مصرى ويفضل أن يؤكل مشوياً. أو مسلوقاً ثم منزوع القشر مقلياً بدون دقيق أو بدقيق.. فان جمبرى الخليج العربى لا يقل عنه.

وفى موسم الصيد يباع فى الكويت بالكيلو. وفى الامارات «بالمن» والمن وحدة ميزان تعادل ٤ كيلو جرامات.. وفى سلطنة عمان يباع بالجدرل أو القسطل.

وجمبرى البحر المتوسط - أو البحيرات الشمالية - لا يقل جودة عن جمبرى البحر الأحمر والخليج العربى. وجمبرى البحر المتوسط أنواع وأشكال منه الأزرق بينما جمبرى البحر المتوسط يأخذ لونه الوردى من لون البحر واسمه!! وهناك الجمبرى القزازى. وإذا كان النوعان الأولان يفضل تناولهما شياً وقلياً، فإن النوع الأخير يفضل تناوله على شكل كفتة جمبرى. أو كبيبة شامية لا أحد يتقن صنعها مثل الستات الدمايطة !!

ويمكن أن تقدم مدفونة الجمبرى القزازى هذا بالأرز المطبوخ فى صلصة الطماطم. أو الأرز الأبيض بالبصل الخفيف.. أو الأرز الصيادية الأحمر. ويمكن أن تقدم أطباق الجمبرى فى صلصة الطماطم بالتخديعة. أو تقدم فى صينية طماطم وشرائح الخضر - بطاطس وباذنجان - أو بالبقدونس والكرفس والكزبرة وشرائح البصل مع فصوص الثوم. وإن كان أبناء القاهرة يفضلونه أحياناً فى ساندويتشات.

وإذا كان الجمبرى هو ملك الموائد.. فإن الاستاكوزا هى ملكة كل الملوك. ولكن لها طقوس وطقوس لتناولها تحتاج إلى شرح مستقل !!

الجاندوفلى وأم الخلول

وعرايس الكابوريا

خيرات البحر ليست مجرد أسماك وجمبريات واستاكوزا وسالمون هناك عائلات عديدة من القشريات والمحار بعضها يفوق فى قيمته الغذائية كل ما سبق. وربما كان أبناء أوربا أسرع منا فى اكتشاف قيمة هذه القشريات والمحار وأقبلوا عليها يلتهمونها بلا إعداد أو طبيخ أو إنضاج. إذ يفضلونها طازجة ولهذا السبب ينقلونها بالطائرات من مناطق صيدها وجمعها فى البحار والمحيطات إلى مناطق تناولها .. فى الداخل.

وبحكم اتصال الاسكندرية وبورسعيد والسويس بالعالم الخارجى من خلال الموانى والأجانب الذين يأتون ويخرجون وبعضهم يقيمون .. من خلال هذه الحياة المشتركة عرف أبناء الاسكندرية وبورسعيد لذة تناول هذه القشريات والمحار وفى مقدمتها : البقلويظ. الجاندوفلى. والقواقع.. وباقى عائلة المحار التى تؤكل طازجة بمجرد فتحها بشق السكين، أو إضافة قليل من عصير الليمون أو تناولها بسائل مملح.

وإذا كان الأوربيون قد برعوا فى إنضاج بلح البحر وخيار البحر .. فإن الدمايطة والرشايدة «أبناء رشيد» وأبناء «أبو قير» ورسعيد برعوا فى تقديم أم الخلول. وربما يكون تقديمها مملحة أبسط قواعد التقديم.. إلا أن تقديمها مطبوخة بصلصة الطماطم وفصوص الثوم هو ألذها، وأيضا تقديمها مسلوقة أى فى «شربة بيضاء» وكما يقول عنها الدمايطة : مستكة وشيبة.

وإذا كان الكل يعرف المستكة والحبهان وما يضيفانه من طعم خاص على الشوربة.. إلا أن أجيال هذا الزمان لا يعرفون ماهى «الشيبة» والشيبة هى مجموعة من الأعشاب كانت تباع عند العطارين تضيف نكهة لذيذة على الشوربة. ولكنها اختفت الآن من حياتنا.

ويشترط أن تغسل أم الخلول جيداً ومراراً وتترك طول الليل فى إناء به ماء عذب حتى تطرد أم الخلول ما بداخلها من رمال وشوائب. وبالطبع تفضل حبات أم الخلول الكبيرة لتقدم بهاتين الطريقتين.

وحتى تكون أم الخلول طيبة يجب أن يتم صيدها من مناطق بعيدة عن التلوث بالمياه الملوثة سواء من الصرف الصناعى أم الصرف الصحى وإلا تحولت أم الخلول إلى سم زعاف.

أما الكابوريا فهى وجبة معروفة لكل السواحلية. وتؤكل مسلوقة أو مشوية فى الفرن. ولكن لها طريقة أخرى تضيف إليها طعماً لذيذاً. إذ ينزع لحم الكابوريا من صدفتها بعد إتمام عملية الإنضاج فى مياه مغلية. وتملأ الصدفة إلى نصفها «أو الغطاء» بخلطة تصنع من الزبد والثوم المفروم وحبات الجمبرى الصغيرة. ثم يعاد لحم الكابوريا بعد هرسه بالشوكة فوق هذه الطبقة.

وتوضع فوق لحم الكابوريا هذا طبقة من البشاميل والجبن الرومى بالفلفل وتوضع فى الفرن لمدة خمس عشرة دقيقة. وتقدم ساخنة واسم هذه الوجبة

«عرايس» ولكن البعض يتمتع بتناول الكابوريا المشوية بالطريقة القديمة.. وليست جاهزة ولو على شكل .. عرايس !!

وتبقى «البلاميطة» والسبيط.. وهى وجبة اسكندرانية فى الأساس، ثم عرفها أبناء بورسعيد والسويس والقاهرة. والسبيط أو الحبار حيوان غضروفى بحرى قيمته الغذائية قليلة لا تذكر. ولكن القيمة فى طريقة تقديمه والخلطة التى تحيط به قبل انضاجه فى المقلاية بالزيت. تماما مثل الملوخية فقيرة فى قيمتها.. والقيمة فى تقلية الكزبرة بالثوم والكمون وورق السلق الحمضى.

وبعد أن كان باعة الأسماك المقلية يضيفون قطعة أو أكثر من هذا الحبار أو السبيط مجاناً .أصبح لهذا السبيط سعراً وثمناً.ولم لا ونحن فى عالم الغلاء.

طبق كشرى

فى فندق (٥ نجوم) !

لا ينافس فتة الكوارع بالخل والثوم - عند فقراء المصريين - إلا فتة شوربة العدس بالتقلية وهى وجبة مصرية شعبية أفضل ما تطلب فى عز البرد، أى فى شهرى طوبة وأمشير اللى يخلى الجلد على الحصير!

ولكن كما تحولت وجبة الكوارع والفتة بالخل والثوم إلى وجبة للأغنياء، أصبحت مطبقية شوربة العدس زينة الموائد.. ولكن أيضا موائد الأغنياء وفقد الفقراء وجبة - كانوا - يرون فيها البديل البروتينى الصحى عن اللحوم : حمراء وبيضاء .. وسمكية !!

فقد أصبح كيلو العدس المجروش فوق ٣٥٠ قرشا[1]. ليس هذا فقط، بل وجدنا من التجار من زاد جشعه فيدعى أنه يتولى تنظيف العدس ويعيد تعبئته

---

(١) الآن سعره ٥ جنيه.

ويضيف ما يشاء على السعر، ثم وجدنا منهم من ينقص الوزن فيعبىء الكيس بـ ٤٠٠جرام بينما المشترى يظنها ٥٠٠جم. وهكذا. وأصبحت حلة شوربة العدس تحتاج إلى سبعة جنيهات وهكذا عز الصنف على الفقراء، وأصبحت سلطانية العدس تقدم أيضا – قبل أى طعام – فى فنادق الخمس نجوم .. فماذا تفعل أم العيال الآن، وفى شهور الشتاء عندما يشتد البرد ؟!

وكانت ستة البيت الماهرة تضيف إلى حلة العدس – خلال التسوية على النار– كوسة وطماطم وجزر بهدف إثراء الوجبة بفيتامينات إضافية ومعادن أخرى. ثم تتولى تصفية المنتج كله – بعد تمام النضج – لتقدم سلطانية العدس المعتبرة كاملة القيمة لرجلها ولعيالها.

الآن : فقدت مائدة الفقراء سلطانية العدس.. فماذا عن طبق الكشرى البديل الآخر – أو البديل الباقى لكل فقراء مصر؟

تعالوا نتحاسب كم يتكلف طبق الكشرى الآن بمكوناته المعروفة من أرز ومكرونة وعدس وبصل للتقلية، وزيت لزوم التقلية، وطماطم لزورم الصلصة .. وشطة لزوم حريق الزور!!

كيلو الأرز الآن – فى أحسن الأحوال – سعره ٨٠ قرشا[١]. وكيلو المكرونة – فى أسوأ الأصناف من انتاج القطاع العام – ١٠٠=١٢٠ قرشا[٢] وكيلو العدس أبو جبة ٢٨٠ –٣٠٠ قرش[٣] وكيلو البصل ٤٠–٦٠ قرشا[٤]، وكيلو الطماطم ١٠٠–١٢٠ قرشا وكيلو الزيت ٣٠٠ قرش[٥] وكيلو الشطة شوفوا بكام. ومن عندى أقدم عبوة جاز لوابور الجاز.. لزوم إعداد حلة الكشرى.

---

(١) سعره الآن ٢ جنيه.
(٢) سعره الآن ٢ جنيه
(٣) سعره الآن ٥ جنيه .
(٤) سعره الآن ١ جنيه.
(٥) سعره الآن ٥ جنيه .

الآن ماذا تحتاج ست بيت - مدبرة - مطلوب منها تقديم أطباق كشرى لها ولزوجها ولأربعة من عيالها .. وبلاش حماتها !!

هذه الزوجة - يا ولداه - تحتاج إلى كيلو أرز وكيلو مكرونة ونصف كيلو عدس ونصف كيلو بصل - حتى لا تبوظ الأكلة !! - وكيلو طماطم ونصف كيلو زيت، والشطة مجاناً.. هل تحسبونها معنا، أم ضربت برمة معاكم !! أغلب الظن أن الست المدبرة مهما حاولت فلن تتكلف هذه الأكلة أقل من ست جنيهات[1].. والمقابل : طبق كشرى!!

أقول هذا وأنا أعلم أن بعض محال الكشرى تقدم الآن طبق كشرى سياحى بثلاثة جنيهات أما طبق الكشرى الشعبى الشهير اللى كان أبو قرشين والممتاز بثلاثة فلم يعد موجوداً الا فى .. يوميات الجبرتى والخطط التوفيقية!!

(١) سعره الآن ١٠ أو ١٥ جنيه

وليمة تاريخية

على لحمة راس !

بعد أن ارتفعت تكاليف إعداد طبق الفتة بالخل والثوم والكوارع .. امتد ارتفاع الأسعار أيضاً إلى لحمة الرأس والممبار.. والفشة والطحال !!

فقد كان يوم الذبح فرصة للمرأة المصرية، تذهب مبكرة إلى المدبح، أو إلى جزء فى سوق اللحم يخصص لبيع السقط ورخيص مخلفات اللحم أى مالا يطلبه الأغنياء.

وكانت لحمة الرأس هى تاج هذا السوق الجانبى فالغنية - من فقراء مصر- كانت تشترى الرأس كلها سليمة. وليه لا ؟! ومنها كانت تقدم لأسرتها العديد من الأطباق : وكل ست وبراعتها.

فالست الشاطرة كانت تصنع من اللسان دقية دمعة بالتقلية والحمص البلدى يحلس الأطفال وراءها صوابعهم.. ومن المخ تقدم قارباً طويلاً عريضاً من قطع المخ المحمرة بالبقسماط والبيض وليس أشهى ولا أغنى من المخ بالبيض والبقسماط، شيء على الاطلاق !!

كل هذا ومازالت الرأس واقفة !! وللمصرية براعة - أى براعة - فى تقديم الرأس هناك من يعشق الجوهرة . و . وهناك من يفضل لحم الجبهة، أما من يحب لحم الصدغ.. فهو حقيقى صدغ!! أما الصغار فكانوا يتصارعون على أيهم يفوز بقرقرشة الأذن!

ولحم الرأس أفضل ما يجود عندما تصنع منه دقية الدمعة، حتى يستطيع العيال أن يغمسوا ويبلعوا وأحيانا تقدم القطع الممتازة منه محمرة بعد سلقها، وتضاف عليه كميات من الكون لتضفى عليها نكهة اضافية خاصة.

وعن الفشة والعفشة يطول الحديث. وعن رائحة شوائها، أو تحميرها مخلوطة بقطع اللية أو الدهن ما يجذب الجوعى ولو كانوا على بعد عشرات الأمتار. واسألوا باعة الفشة على نواصى الحوارى الشعبية.. أو رواد الموالد والأعياد، وما أكثر موالد الصالحين، وأعياد المسلمين والمسيحين !!

وعندما كانت الأسعار فى متناول الفقراء.. كانت الفشة كلها بقروش. وكان الطحال أيضا. وربما كانت المعلمة بائعة الكرشة والفشة والطحال كريمة فتقدم من عندها طائعة مختارة - قطعة من الحلويات مجاناً، وطبعاً ليست من الحلويات الدمياطى، ولكنها قطع من داخل بطن الذبيحة.. لها طعم خاص.. أما الآن فقد أصبحت الفشة والكرشة والطحال تباع بالجرامات.. ولا الصيدلية، وفشر بل هى أغلى من أقراص الجنسنج تلك التى أنتجها الكوريون من الأعشاب ببراعة.

ثم نأتى إلى الممبار.. وإذا كان الألمان هم أفضل من صنعوا منه «الهوت دوج» أو السوسيز كما يحلو للفرنسيين أن يسموه إلا أن المصرية صنعت من هذا الممبار - أى المصارين - أفضل محشى، والمستورة بعض الشىء تحشوه باللحم المفروم والتوابل.. واللى على باب الله تكتفى بحشوه بالأرز والبقدونس والكرات وتكتر الفلفل حتى تعالج ما به من مخلفات.

وكان هذا الممبار مباحاً لكل الفقراء عندما كانت المصرية تشترى مصارين الذبيحة كلها بقروش تعد على أصابع اليد الواحدة.. الآن زحف الغلاء إلى هذا الممبار وانسحب من على طبلية الفقراء فى البيوت والأزقة، وتوارى حتى من فوق نصبة بائع الممبار الشهير فى حوارى السيدة وباب الشعرية وبولاق.

حكاية كرش

لا أريد أن أصدق أن المصريين الفقراء أكثر سمنة وتخمة من المصريين الأغنياء، اللهم إلا إذا اعتبرنا هموم الناس أكبر عامل علي إصابتهم بالسمنة فتدفعهم إلى أن يضعوا همهم فى .. الأكل !!

فإذا تركنا هذا الجانب الفكه يمكننا أن نقول إن العادات الغذائية هى التى تصنع سمنة الفقراء .. وتحمى الأغنياء من السمنة، التى أصبحت مرضا وليست مجرد ظاهرة جسمانية وتعالوا نناقش غذاء الفقير .. وغذاء الغنى.

الفقير يركز فى طعامه على ما يملأ المعدة، بغض النظر عن قيمته الغذائية تجد على مائدة الفقير -أقصد الطبلية- حلة الأرز المفلفل بالشعرية وبجانبها صينية البطاطس المسبكة، فإذا لم يتوافر اللحم ليتوسطها فلا أقل من «حتة لية» أى كتلة من الدهن والشحم، لتضيف لها طعماً يغرى «الأكيلة» بالغوص فيها. وهى بهذه الصورة أفضل من الصينية «الأرديحى» أو على رأى أولاد البلد «تدهنن» بطن العيال !! ثم بجانب كل هذا تجد أرغفة الخبز! وهذه كلها مواد نشوية كاربوهيدراتية يستفيد الجسم منها بالقليل، أما الكثير فيتم اختزانه بالجسم.

وانظروا إلي عشق الفقير للكشرى. ما الذى يحتويه هذا الطبق : أرز مكرونة. شعرية عدس بجبة. تقلية بصل. أو انظروا إلي عشق المصرى للمكرونة بكل أشكالها. أو إلى العدس ومعظم ما فى هذه الأكلات مواد نشوية، وربما اكتسبت صفتها الشعبية من أنها تملأ بطن العيل فيشبع، وبذلك يتحمل. ويبعد شبح الجوع.حتى الفول المدمس والطعمية رغم وجود نسبة بروتين فيهما بحكم ما فى الفول.. إلا أن النسبة الأكبر تمثل مواد نشوية، فضلا عن أن وجود القشرة فى الفول والزيت الذى تقلى فيه الطعمية يؤخر الهضم.

المصرى الفقير إذن يكثر من النشويات، وهو مضطر لهذا المسلك الغذائى بحكم انخفاض أسعار الأغذية النشوية، وبحكم إعطائها شعورا بالشبع لمن يأكلها.. ولهذا فهو يصاب بمرض السمنة.. أى هى «سمنة الفقر».

أما الغنى فإنه يختار ما يأكله جيداً. سواء اللحوم. فإن كان يعشق المشويات كالكباب أو الفراخ البدارى فإنه يصاب بالسمنة.. ولكنها «سمنة الغنى»، وفرق كبير بين «سمنة الضرورة» و«سمنة الوفرة». وإذا كانت السمنة بهذا المفهوم أصبحت مرضا كما أكده المؤتمر القومى للسمنة فإننا مطالبون بأن نشرح للناس : للفقير.. قبل الغنى. ما الذى يمكن أن يأكله، وما الذى يمتنع عنه، وما هو الغذاء الصحى.

وفى هذا المجال يقول الدكتور محمد شرف أمين عام المؤتمر ومدير عام مستشفى الساحل التعليمى : إن البدانة أصبحت بالفعل مشكلة قومية، بل إن «المصرية» أصبحت أكثر بدانة من شقيقتها العربية. وإذاكانت هذه المشكلة ترجع إلى الأسلوب الغذائى والحالة النفسية والعوامل الوراثية واضطراب الغدد.. فإننا مطالبون بإعادة النظر فى نظم غذائنا.

وحكايات شعب يزداد تخنا !

بعد أن زادت بدانة المصريين، رجالاً ونساءً، وبعد أن اقتنع البعض بخطورة السمنة، ظهرت في مصر موجة أندية التخسيس، أو معاهد التخسيس. بعضها يعمل وفق القانون، والبعض يحاول استغلال لهفة المرضى بالسمنة. حقيقة هناك معاهد مجهزة بأحدث المعدات ووفق الأصول الصحية.. ولكن بعضها دخل هذا العمل ليربح.

وفي المؤتمر القومى لعلاج السمنة طالب الحاضرون بتكوين لجنة من إدارة التراخيص الطبية بوزارة الصحة ونقابة الأطباء والجمعيات العلمية تكون مهمتها تقييم أماكن علاج السمنة والمنتجات المنتشرة حالياً لعلاجها، وطالب

المؤتمر، كما قال الدكتور محمد شرف الأمين العام للمؤتمر ومدير مستشفى الساحل التعليمى، الذى رعى المؤتمر - بإنشاء نواد لمرضى السمنة، مع مراقبة الإعلانات والأدوية التى حذر منها المؤتمر.

وإذا كان الأوروبى أو الأمريكى يقاوم الآن مرض السمنة بالتركيز على الرياضة وبالذات «رضاية الركض» إلا أن البعض يحاول أن يروج وسائل صناعية، أو يضع برامج غائية، أو ينتج أدوية ثم يدعى أن لها مفعول السحر فى عالم التخسيس.. وهذا كله يجب أن يخضع للرقابة العلمية، لأن أخطر شيء لجوء البعض إلي أدوية التخسيس دون أن يعمل حساباً لمضارها الجانبية سواء بالنسبة لمرضى القلب أو الضغط أو الحساسية.

نعم حوال ٣٠٪ من سكان مصر يعانون الآن من زيادة الوزن عن المعدل الطبيعي، والغريب .. أن الكثيرين منهم من الشبان والشابات، ولكن لا يجب ترك القضية هكذا دون حاكم علمى طبى يتحرك على أساسه كل راغب فى العلاج والقضية فى نظرى هى التصدى لكل من يدعى أن عنده العلاج القضية هى فى مقاومة الدجل والنصب على مرضى البدانة، والأم من هذا مطلوب أكثر القضاء على الأماكن غير العلمية التى تزعم علاج السمنة.

لقد أصبحت البدانة بالفعل -كما قال الدكتور شرف- مشكلة قومية .. ولكننا يجب ألا نسمح بتحويلها إلى تجارة يسعى البعض إلى الكسب من ورائها. من هنا لابد من مراقبتها. وعدم الموافقة على فتح أى معهد تخسيس إلا إذا كان ملتزما بالشروط الطبية والمواصفات العلمية التى تحددها اللجنة الطبية المطلوب تشكيلها. أما ما يلفت عيون الناس كل مساء على شاشة التليفزيون، وفى الصحف والمجلات من إعلانات براقة عن أدوية أو مواد تعالج أو تدعى العلاج، فيجب ألا يمر هكذا. وإذا كانت أقسام الإعلانات بالصحف والتليفزيون لا يهمها إلا الربح المادى .. ففى القانون ما يردع .. لأننا مطالبون بحماية صحة الناس أولا وأخيراً.

السلطان إبراهيم

بين قذائف الفانتوم

بين مدينتى صور وصيدا اللبنانيتين، وغير بعيد عن معمل تكرير البترول فى منطقة الزهرانى، وعلى شاطئ البحر جلست ومعى كل أسرتى ألتهم أجمل وأشهى وجبة من سمك البربونى اللذيذ، الذى يطلقون عليه فى لبنان اسم : السلطان إبراهيم !! وهو فعلا سلطان الأسماك.

كنت أقضى وأسرتى إجازة صيف فى لبنان فى أغسطس ١٩٧٥. ولم تكن أحداث الحرب الأهلية قد توسعت، كانت مجرد أحداث قليلة تتناثر هنا أو هناك بعد حادث ومذبحة سيارة الأتوبيس التى فجرت هذه الحرب فى شهر ابريل«نيسان».

كنت قد استأجرت سيارة تاكسى من شارع الحمراء حيث أقيم فى أحد فنادق الشارع المشهور فى العاصمة اللبنانية بيروت. انطلقنا إلى جيزين تلك المدينة الجبلية المشهورة بصناعاتها اليدوية وبالذات أطقم المائدة المصنوعة من الفضة ومقابضها المصنوعة من العظام، أو من العاج حسب ما تملك من ليرات!!

وهبطنا من الجبل حيث مدينة جيزين المسيحية غالباً إلى مدينة وميناء صيدا التاريخى. وطفنا بالقلعة التاريخية ثم وقفنا نلتهم الآيس كريم المشهور هناك. وواصلنا طريقنا الساحلى إلى مدينة صور بعد عبور نقط التفتيش والبحث عن الهويات. وانطلقنا إلى المنطقة الأثرية، حيث الحمامات الرومانية التاريخية وتركت زوجتى وأصغر أولادى : شريف فى السيارة مع السائق - عم خليل وفى يدى اليمنى أمسكت بيد خالد ابنى وفى اليسرى امسكت بيد عزة ابنتى . ثم تنبهت إلى يد خالد تجذبنى متسائلاً : ما هذه الطائرات التى تنطلق فى السماء

؟ واكشفت أنها فانتوم. وكانت إسرائيل وحدها تحتكر هذه الطائرة التى تحولت إلى بعبع لكل دول المواجهة. وحسبتها فى عقلى. نحن لا نبعد عن حدود إسرائيل إلا حوالى ٢٠ كيلو مترا.

وأغلب الظن أن هذه الطائرة تتجه لتنفيذ عمليات انتقامية ضد التواجد الفدائى الفلسطينى الذى كان كثيفاً فى جنوب لبنان وقتها. وقلت : فى أسوأ الظروف لو بدأ القصف والضرب فسوف أقفز ومعى خالد وعزة فى إحدى حفر الحمامات وهى عميقة تحمى من يلجأ إليها. ولن تصاب إلا إذا كانت القذيفة مكتوب عليها اسمك !!

وبدأ القصف من الطائرات الإسرائيلية بالقنابل والقذائف والصواريخ.. والمدافع الرشاشة. ترد عليها قوات المقاومة الفلسطينية الأرضية. كان الهدف معسكراً فلسطينياً فى قرية «البرغلية» اللبنانية . وتحت صراخ زوجتى وبكاء أطفالى الذين أزعجتهم الزوجة الخائفة أسرعت .. ووجدنا بابا لبيت فلسطينى يفتح لنا ويدفعوننا إلى غرفة تتوسط الدار المنخفض عن الشارع. والدار كلها داخل بستان أو بيارة برتقال ذكرتنى بالبرتقال اليافاوى الذى كنا نأكله فى دمياط قبل حرب ١٩٤٨.

المهم أن الغرفة تتوسط الدار. محصنة تماماً. مزدوجة الحوائط مدعمة السقف. وافترشنا الأرض وسط الأسرة الفلسطينية التى أسرعت كلها فى تقديم الطعام من الخبز الشهى مع اللبنة المعروفة المصنوعة من لبن الغنم الغارقة فى بحر من زيت الزيتون.. ثم أطباق من الجبن الحلوم المصنوع من لبن الماعز. كانت الأسرة الفلسطينية تهدف إلى امتصاص الخوف خصوصا وأن زوجتى كانت تبكى قائلة : لم أحضر إلى هنا لأموت فى لبنان !!

وانتهت الغارة. ولم تسمح لنا الأسرة بمغادرة البيت إلا بعد وقت كاف. إذ

كانت عادة الطائرات الإسرائيلية أن تعود لتضرب من جديد خلال عملية إخلاء الجرحى ورفع جثث القتلى.

وأخذنا طريق العودة إلى بيروت. وبين صور وصيدا أردت أن أمتص ما بقى من خوف فى أوصال أطفالى .. فعرجت على أحد المطاعم العديدة على طول الشاطئ لأختار أفضل سمك بربونى وبينما كان الجرسون يعده للقلى كنا نلتهم أطباق السلاطة المشهورة وتمتعنا بعد خوف بأشهى أكلة بربونى، أو السلطان إبراهيم.

فى تركيا

المرأة والدين والسياسة

حين تعيش فى تركيا تشعر بأنك قريب من قطعة من قلبك بعيدة عنك.

وتركيا قطعة من قلوبنا: بالتاريخ، والجغرافيا، والدين، واللغة والعادات والتقاليد، وإلى حد ما بطريقة الحياة، خاصة فى الريف، أو - بمعنى آخر- في غير أنقرة واسطنبول وأزمير.

حتى فى أنقرة واسطنبول تصافح أذنيك فى مواقيت معلومة كلمات النداء الجميل : الله أكبر، الله أكبر.

وتحمد الله حينئذ على أن شيئا جميلا كالصلاة بقى إلى جوار الحانات، والكاسيات العاريات، ومرتكبى ومرتبكات الحركات الغريزية فى الشوارع، والحمد لله أن هذه الأعمال ليست على النطاق الأوسع.

أول مرة أزور تركيا كانت عام ١٩٩٣ فى عز القيظ (شهر أغسطس). وكانت هناك قضيتان على الساحة : المرأة والدين .. وعلاقتهما بالسياسة.

كانت المرأة قد كسبت أرضا غير مسبوقة بوصول تانسو تشيلر إلي

السلطة رئيسة للحكومة، وتعيين وزيرة دولة لشئون المرأة والأسرة، واسمها توركان أكيول، فى الحكومة الجديدة. وكان الدين ، أو - بمعنى أدق- الاتجاه الدينى فى السياسة والمجتمع قد بدأ يتوغل فى الشارع التركى وينتشر. وبينما كان هناك ارتياح لوصول تشيلر إلى الحكم باعتبار ذلك دليلا على أن العلمانية قطعت شوطا أبعد، كان هناك قلق من أن الاتجاه الدينى يهدد شوط السبعين عاما المنقضية من العلمانية، بالرجوع والانحسار.

وكان الأتراك يعيشون أيضا حالة من الدوار تسبب فيها انهيار الاتحاد السوفيتى، وقيام الجمهوريات الإسلامية التى تعتبر امتدادا طبيعيا لتركيا من النواحى الثقافية والدينية واللغوية.

وكان السؤال المطروح وقتذاك هو : هل تستطيع تركيا أن تمد ذراعيها حول أشقائها المستقلين حديثا، أم أن الإمكانات أضعف من ذلك بكثير، وأن مطامع الآخرين فى إمكانات هذه البلاد أكثر اندفاعا من مطامع تركيا المترددة؟

وقد جلست وراء زجاج المقهى فى الفندق الذى نزلت به فى أنقرة أرقب أحوال تركيا.

- احضر شايا من فضلك.

وجاء الساقى بالشاى، ومعه كشف الحساب لأوقع عليه، ثم تضاف قيمته على حساب غرفتى. وتأملت الكشف فإذا بياناته باللغة التركية تشير إلى مكوناتها العربية، مثل :

الوقت : التوقيع :

فالكلمة الأولى تعنى «الساعة» برغم أن نطقها هو «ساعت» والكلمة الثانية تعنى «الإمضاء» برغم أن نطقها هو «إمزا».

فثلث مفردات اللغة التركية عربية مثل «صناعت» أى الصناعة، و«زراعت» أى الزراعة.. وغيرها.

وكانت اللغة التركية تكتب بالحروف العربية، مثلما تكتب الإيرانية والأوردية، إلى أن جاء كمال أتاتورك قبل أكثر من ٧٥ سنة، أى بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية، وقرر - فى نطاق العلمانية والاتجاه غربا - كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية.

وإذا نظرت أمامى أجد الشارع كما لو كان واجهة عرض كبيرة تضم أقصر الأزياء، الغربية، وأكثرها كشفا للمعالم والتفاصيل الأنثوية، وإذا بعض الأولاد والبنات أكثر هياما وغراما من أقرانهم فى باريس ومدريد وواشنطن.

ولما انتهيت من تناول الشاى خرجت إلى الشارع سائرا صعودا (فالمدينة قائمة على هضاب إلي حديقة عامة كبيرة فى وسط المدينة، على حافتها فندق ضخم.

وفى الحديقة ظهرت تركيا بشطريها: المتدين والمتعلمن. فقد رأيت بنات تركيات محجبات رقيقات، وتكلمت معهن بإذن الشاب المهذب الذى بصحبتهن . ورأيت بنات تركيات سافرات تكلمت معهن بدون إذن، وتكلمت أيضا مع الشبان الذين كانوا معهن، وكل من الجانبين يطرح قضية السفور والحجاب بما هو مقتنع به.

ولكن القضية كانت مطروحة بصورة أخرى أبعد من مجرد التدين والتعلمن، أى بصورة سياسية ، إذ الحقيقة أن السافرات والمحجبات هن قشرة المجتمع التركى، وليس لحمه وعظامه.

وقد أفادنى فى ذلك كثيرا مديرة الرابطة التركية - الأمريكية التى التقيت بها فى مكتبها بأنقرة. وكان شرحها مهما، برغم أنه متحيز بوضوح إلى

العلمانية . فمن رأيها أن أتاتورك كان خيرا وبركة علي المرأة، بدليل أن عدد النائبات فى أول برلمان تركى عام ١٩٤٥ كان ١٨ نائبة، بالمقارنة بـ ٨ نائبات فى البرلمان الذى تشكل قبل رحلتى، برغم التطور الكبير الذى تمثل فى أن تشيلر تولت رئاسة الحكومة، وبفضل علمانية أتاتورك كانت أول امرأة ترأس محكمة عليا فى دولة تركية، وكان ذلك فى عام ١٩٥٤.

ولكن الأغلبية من النساء التركيات لسن معنيات كثيرا بالسفور والحجاب، أو بالحقوق السياسية والمهنية. فهذه الأغلبية موجودة فى ألوف القرى، وكذلك فى المدن، باستثناء المدن الثلاث الكبيرة.

ومشكلة المرأة فى الريف والمدن الصغيرة اقتصادية فى الأساس، فهناك لا تستطيع المرأة أن تدعى القدرة على الاستقلال ماديا، وبالتالى فإن التقاليد القديمة التى عمادها دور الأب والأم والإخوة فى تقرير مصير البنات هى الأساس.

ما هو إذن حل مشكلة المرأة التركية ؟ وفى أى اتجاه ؟

فى رأى محدثتى أن النشاط الكبير الذى كانت تقوم به قرينة الرئيس الراحل تورجوت أوزال، دفاعا عن تقدم المرأة التركية وتعليمها، لم يكن كافيا. وهى تقف أيضا ضد أن تكون هناك وزارة للنساء، مادام الرجال ليس لهم وزارة خاصة بهم. وتعتقد أن وجود قسم للمرأة فى كل وزارة سيكون أمرا مفيدا. والأهم من كل شىء هو أن تنجح الوزارات، والهيئات، والمؤسسات فى تعريف النساء - على نطاق واسع - بحقوقهن، وتعليمهن الدفاع عنها.

وتلوم محدثتى المشرع فى بلادها لأنه لم يكن قادرا - وقت إدلائها بهذا الحديث فى صيف عام ١٩٩٣ - على التصدى لقوانين الميراث المنبثقة عن الشريعة الإسلامية، أو ما تسميه - بغير حق - الثقافة التقليدية فى تركيا !!

وبينما تعارض المواريث طبقا للشريعة الإسلامية فإنها تؤكد أنها ترفض أن يكون للرجل حق فى الزواج من أكثر من امرأة، وتقول إن النظام العلمانى كان على حق فى إلغاء هذا الأمر !

– لكن نفترض أنك متزوجة، وأن زوجك تزوج من أخرى ؟

– لن أبقى معه أبدا ... الطلاق أفضل ألف مرة.

– مهما تكن الأسباب ؟

– مهما تكن الأسباب.

– حتى لو كانت تخصك أنت، عجزا أو عاهة طارئة مثلا؟

– حتى لو كانت تخصنى، لكى لا تنكسر القاعدة بالنسبة للأخريات !!

– هناك رجال يقيمون علاقات خارج الزواج؟

– هذا شأنهم مادامت بعيدة عن علم الزوجة، ولا تؤثر عليها!

– ما رأيك فى عودة المرأة التركية إلى الحجاب ؟

– للأسف أن هؤلاء اللاتى ارتدين الحجاب تعرضن لتأثيرات خارجية، ولست أعتقد أن هذا الموضوع يجب أن يثار فى مجتمع علمانى، مثل مجتمعنا. هذا مجتمع ديمقراطى، وكل إنسان له أن يتصرف بالطريقة التى تروق له، بشرط ألا تعمل المحجبات من أجل التأثير على المجتمع. وأى امرأة لديها اعتقاد دينى حرة فى ذلك، ولكن لا يمكن لهذه الظاهرة أن تنتشر. ولعلمك فإن الحركة الأصولية فى المجتمع لا تزيد نسبتها على ١٠٪ .

(لاحظ أن التيار الدينى نما إلى درجة أن الحكومة التالية لحكومة تشيلر وشركائها جاءت دينية برئاسة نجم الدين أريكان زعيم حزب الرفاه).

– ألا تعتقدين أن هذه الظاهرة ستنتشر؟

- لا أعتقد، فالولايات المتحدة بها محجبات، ولست أرى أن لهن تأثيرا كبيرا.

لاحظ أيضا أن قضية الحجاب انتقلت بعد ٦ سنوات من مناقشات دوائر المثقفين إلى المناقشة العامة بعد انتخابات عام ١٩٩٩ وظهور أول نائبة فى البرلمان بالحجاب، وما أثاره ذلك من مشكلات.

- لكن تركيا فى الأساس مجتمع إسلامى ؟

- تركيا تدخل تحت مفهوم البلد الإسلامى الحديث المودرن. وبالتالى لا أعتقد أن تركيا مجتمع غربى.

- وأنت أيضا مسلمة ؟

- أنا مسلمة، ولكننى لا أخفى ديانتى أو أظهرها. سبب المشكلة التى نحن فيها الآن أن الحكومات التركية المتعاقبة تجاهلت المسائل الدينية، ولم تناقشها على الملأ، وهذا خطأ فى تقديرى.

- لكنك هكذا تهربين من ديانتك ؟

- الإسلام فعلا ديانة عالمية، وأنا لا أريد أن أهرب من ديانتى. أنا مؤمنة بالله وبنبيه محمد ﷺ وأمارس شعائر ديانتى بالقدر الذى تسمح به الحياة الحديثة !!

- هل تواجه البنات التركيات مصاعب فى الزواج؟

- الزواج سهل فى المدن الكبرى، ولكنه مازال مرتبطا بالتقاليد والعادات فى الريف. وهذه علامة استفهام، حتى فى المدن مازال بعض الأسر يتولى ترتيب الزواج.

- هل تؤيدين حياة الولد والبنت معا بدون زواج؟

– لا أظن أن الثقافة التركية تسمح بذلك، ولا أؤيده، ولكن هناك من يفعلونه فى اسطنبول.

– هل تؤيدين صدور قانون يمنع الحياة بين الأولاد والبنات دون زواج.

– أنا لا أريد إطلاقا أن يكون هناك أطفال غير شرعيين، ولكن بخلاف ذلك هم أحرار!!

– ألا توجد مثل هذه الظاهرة فى أنقرة؟

– موجودة ، ولكنها حالات استثنائية. هناك فعلا لقاءات بين الشبان والبنات، وهناك ارتباط، ومواعيد غرامية، وأنا أويد هذا قبل الزواج، لا أعتقد أن يجب أن تكون هناك قيود !!

- لماذا زادت نسبة الطلاق فى تركيا؟

نسبة الطلاق زادت فعلا بصورة كبيرة جدا، ولم يكن الأمر على هذا النحو منذ عشر سنوات، لأن قدرة النساء كانت محدودة على الاستقلال ماديا. فكثير من النساء يستطعن اليوم التخلص من الزواج السيىء سعيا إلي زواج أسعد، أو أفضل.

– هل توجد فى المجتمع التركى ظاهرة الانفصال ؟

– موجودة فعلا، ويقضى القانون بأن الانفصال ٣ سنوات يؤدى إلى الطلاق، وقد عارضت نساء كثيرات تخفيض هذه المدة إلى سنة، ولكننى أؤيد التخفيض حتى يستطيع الرجال والنساء بدء حياة جديدة فى وقت أسرع.

– هل تعتبرين نفسك من عناصر الحركة النسائية التى شهدتها الولايات المتحدة، ومجتمعات غربية أخرى، فى الستينيات ؟

– أنا مهتمة بقضايا المرأة، ولكننى ضد الحركة النسائية، ولا أريد، ولا أحاول تغيير الثقافة التركية.

- أنت إذن تؤيدين الحياة الأسرية المترابطة ؟

- وأسعى إلى أن تكون أفضل مما هى عليه الآن، وأنا أعارض المنظمات النسائية التركية التى تعمل بطريقة مثيلاتها الأوروبية والأمريكية. ولعلك تعلم أن المرأة عندنا هى القائد فى الأسرة، ولكن من وراء ستار، وهذا من تقاليد الثقافة التركية، وإذا كانت هناك زوجة ناجحة فهناك زواج ناجح.

- هل تعتقدين أن هناك ما يمكن أن تقوليه لنساء مصر؟

- أقول لهن يجب أن تؤمن بمفهوم حديث للإسلام، لكى تأخذن مكانكن فى المجتمع، ويقع ٥٠٪ من أداء هذا الواجب على عاتق النساء باعتبارهن نصف المجتمع. ويجب أن تكون مصر وتركيا رائدتين في هذا المجال، ولكن فى نطاق التقاليد والتراث، فأنا لا أطلب منهن علاقة حميمة مع الثقافة الغربية.

شكرا للصحفية التركية الشابة نظلان التى كانت وراء ترتيب هذا اللقاء.

لا أوافق أبدا على زواج الرجل من امرأتين مهما تكن الظروف والأسباب .. الطلاق أفضل ألف مرة !

نظلان - صحفية فى جريدة "حريت" أى "حرية" ولكن بالتاء المفتوحة على الطريقة التركية مثل "همت" من "همة" و"عفت" من "عفة" و"جودت" من "جودة" و"صفوت" من صفوة.

الطابور الروسى !

انتهيت من مقابلاتى السياسية وتأملاتى فى أنقرة، وسافرت بالطائرة عائدا إلى اسطنبول لأبقى فيها يومين قبل عودتى إلي القاهرة . وكانت مقابلات العاصمة قد شلمت إيردال إينونو نائب رئيسة الوزراء، وحكمت شتين وزير الخارجية، وهو شخصية ممتازة فى رأيى، إذ يتسم -إلي جانب الكفاية السياسية - بدماثة الأخلاق.

وفى اسطنبول لا مفر - فى ذلك الوقت وإلى الآن - من أن يقابلك اثنان : كردى وعراقى.

أما الكردى فهو مشرد من الحرب فى كردستان التركية، أو باحث عن عمل، ولو كان عملا وضيعا. والعراقى لاجىء أيضا من كردستان العراقية، أو من شمال أو وسط أو جنوب العراق عبر الطرق الجبلية، وهى لا تخضع منذ سنين طويلة لرقابة منظمة من جانب السلطات العراقية أو السلطات التركية.

فالمنطقة الممتدة من جنوب تركيا إلى شمال العراق - كما تعلم - منطقة فوضى واضطراب وحروب منذ أكثر من ربع قرن.

فى فندق يطل على ميدان تقسيم بأنقرة أقمت اليومين المتبقيين من الرحلة، وفى حديقة قريبة من الميدان قابلت الكردى والعراقى.

كان العراقيون مجموعة من اللاجئين ينتظرون فرج الله، أى نتيجة طلبات الهجرة التى قدموها لسفارات الدول الغربية. حالهم بائس بلا شك، بل يصل إلى حل التسول تحت مظلة الشرعية الدولية.

فمع أحدهم قرأت «بطاقة هوية لاجىء» حاصل عليها من الأمم المتحدة، وجاء فيها :

«إلى من يهمه الأمر، هذه شهادة بأن السيد بهنام بطرس حنا، وهو عراقى الجنسية، شخص يهم الأمم المتحدة أمره، ويهم كذلك المفوضية العليا لشئون اللاجئين، وأى مساعدة تقدم له ستلقى عظيم التقدير، وتنصرف مساعدته أيضا إلى من يعولهم.

وقال لى بهنام بينما زملاؤه يتابعونه باهتمام :

- عدد الأسر العراقية اللاجئة هنا زاد على ١٧٠٨، وزاد عدد اللاجئين الأفراد على ٥٠٠٠ شخص.

لا حول ولا قوة إلا بالله هؤلاء العراقيون ترقد بلادهم على ثانى أكبر احتياطى بترولى ثابت فى العالم بعد السعودية، وتزيد على السعودية أن بها إمكانات زراعية هائلة : نهران و٢٠ مليون فدان.

وعلى مقربة من اللاجئين - وراء الأشجار- أطفالهم البؤساء التعساء يدخنون أعقاب السجائر.

الكردى اسمه عبد الله.

شاب قصير نحيل متخرج فى مدرسة متوسطة فى ديار بكر عاصمة كردستان التركية، وكان يبحث عن أى شىء فى هذه المدينة الكبيرة، وبأى طريقة : عمل أو مال أو هدايا أو عطايا أو هبات أو تبرعات، أو حتى دعوة إلى مسكرات أو مخدرات.

ويتكلم عبد الله الإنجليزية بطريقة فك الخط، وبالتالى يكمل عباراته بإشارات من يديه ورأسه ورجليه. وقبل الغروب قال لى بعد أن تناولنا بعض السندويتشات، وبعض الحلوى التركية المشهورة، ودخنا عددا من السجائر:

- هل تحب أن ترى الطابور الروسى ؟

- ما هذا الطابور الروسى ؟

- بعد أن نذهب إلى هناك سأطلب منك أن تغمض عينيك، وسأقول لك افتحهما حين يظهر هذا الطابور.

وأدركت بحاسة سادسة أن الأمر متعلق بنساء، وعاجلت عبد الله قائلا بحدة

- قل ما الحكاية وإلا افترقنا

- إنهن راقصات روسيات يعملن فى ملهى ليلى قريب من هنا

- ولماذا تصفهن بأنهن طابور؟

- مدير الملهى يجعلهن يقطعن المسافة من الفندق الذى ينزلن به إلى الملهى، وتزيد على كيلومتر، فى طابور، لكى يراهن الرجال ويذهبوا إلى الملهى.

- كم عددهن؟

- ١٤ امرأة، وكل منهن أجمل من الأخرى، وأكثر عريا.

- إذن هيا بنا.

وأجمل وأرقى ما تقع عليه عيناك فى اسطنبول هو مساجدها القديمة الشهيرة ... فن رفيع وعمارة رائعة... جلال وبهاء.

سبحان الله .. يجمع بغير أن يوفق إذا شاء.

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس